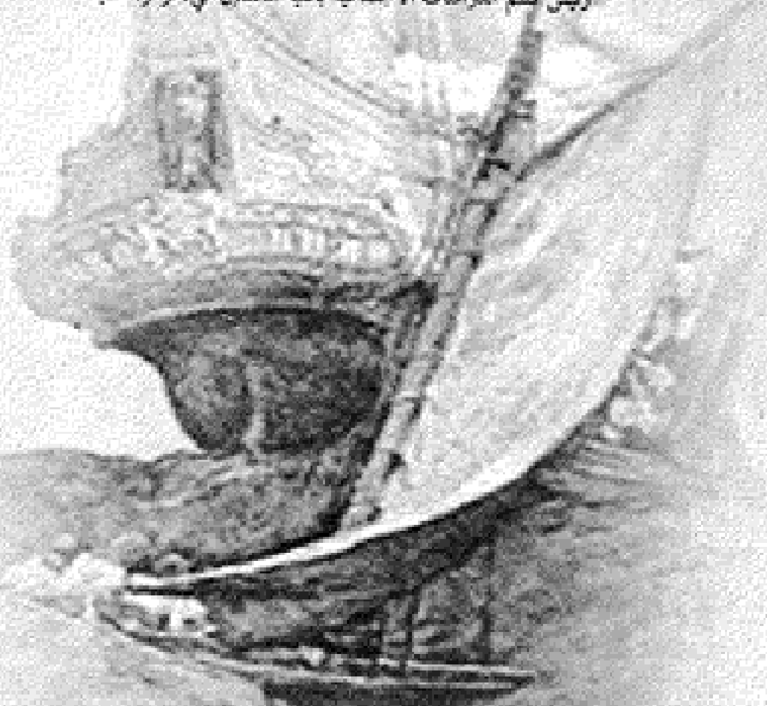
دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب
(١)

العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام

تأليف
الدكتور مصطفى محمد الحناوي
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
بكليات التربية للبنات بالقصيم
رئيس قسم الدراسات الاجتماعية بكلية المعلمين في (عرعر) سابقاً



مكتبة الرشد
ناشرون

رفع

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

إهـــــــداء2005

الدكتور/ مصطفى محمد الحناوى

الإسكندرية

العلاقات بين
جمهورية أمالفي والمسلمين
في مصر والشام

دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب
﴿١﴾

العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام

تأليف
الدكتور مصطفى محمد الحناوي
استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
بكليات التربية للبنات بالقصيم
رئيس قسم الدراسات الاجتماعية بكلية المعلمين في (عرعر) سابقاً

مكتبة الرشد
ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى : زوجتي....

تقديراً ووفاءً وعرفاناً...

تمهيد

الحمدُلله الذي له مافي السّموات ومافي الأرض، وله الحمدُ في الآخرة وهو الحكيم الخبير، والصّلاة والسّلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ... وبعد :

فإن العلاقات بين الشرق والغرب حظيت باهتمامات سابقة، من قبل عدد من الباحثين، تناولوها من جوانب مختلفة، معظمها دراسات اقتصرت على الجانب السياسي والحربي بين طرفي هذه العلاقات، وهو ما اتسمت به فترات زمنية طويلة، غلبت عليها مشاعر العداء والرغبة في السّيطرة من قبل الغرب على بلاد الشرق الإسلامي بوجه خاص.

وبالرغم من ذلك، لاتزال هذه العلاقات في حاجة إلى مزيد من الاهتمام، من خلال دراسات أخرى، تتبّع الأطراف التي لعبت دوراً في هذا المجال، سواءً هؤلاء الذين يمثلون العالم الغربي، أم نظائرهم الذين ينتمون إلى الشرق، بعد انقسام كل عالم إلى دول وحكومات، تقيم علاقاتها في إطار تحكمه مصالحها الخاصة، حتى وإن كان ذلك في ظل انتماءاتها إلى سياسة عامة شرقية أم غربية.

وفيما يتعلق بالتحديد الجغرافي لكلٍ من الشرق والغرب، فقد تغيّر مفهومه من عصرٍ إلى آخر، ففي العصور القديمة كان الصراع الدائر بين الإمبراطورية الرومانية ودولة الفرس يَعُدّه البعض نموذجاً للعلاقات بين الشرق والغرب آنذاك، بالرغم من التنافس الذي كان قائماً بين هاتين الدولتين في إخضاع أجزاء من بلاد الشرق لسلطانها. ثم تغيّر هذا المفهوم في العصور الوسطى بظهور الإسلام، وقيام دولة إسلامية فتية اصطدمت بالقوى المعاصرة، فأصبح العالم الإسلامي يمثل الطرف الشرقي، بينما كان يندرج تحت لواء الغرب دول أوروبا الغربية والجمهوريات الإيطالية، والمنظمات العسكرية، التي تأسست لتنفيذ سياسة البابوية تجاه الشرق، هذا بالإضافة إلى الإمبراطورية

البيزنطية (دولة الروم)، بالرغم من أنها دولة شرقية في اتجاهاتها الحضارية ومذهبها العقائدي.

وانطلاقاً من المحاولات الجادة لإلقاء الضوء على حقيقة أهداف وطبيعة العلاقات من جانب الغرب إزاء الشرق، اقتضت الضرورة تخصيص دراسة مستقلة عن العلاقات بين هذين الطرفين الغربيين، على أساس أن أحدهما ينتمي إلى الشرق حضارياً، بينما ظلت أوروبا الغربية تواصل سياسة ذات قواعد محددة في موقفها من العالمين الشرقيين بالنسبة لها، وهما: العالم الإسلامي والعالم البيزنطي، وهو موقف نابع من مشاعر عدوانية لحساب الكنيسة الكاثوليكية، وتطلع للهيمنة والسيطرة على هذين العالمين بدوافع اقتصادية واجتماعية.

ونظراً لأهمية العالم الإسلامي، ومايتمتع به من ميزات استراتيجية وموارد اقتصادية وفيرة، فقد كان ولا يزال محور هذه السياسة الغربية. وفي هذا الصدد تؤكد الشواهد وتطورات الأحداث أن المسلمين بما عُرف عنهم من تسامح كانوا يستقبلون العناصر الغربية القادمة إلى بلادهم للتجارة أو الحج أو الإقامة، ويوفرون لها كل سبل الحماية اللازمة، ويمنحون البعض منهم امتيازات توفر لهم وضعاً يفوق ما كان لأهل البلاد من المسلمين، مثل السماح لهؤلاء الغربيين بإقامة منشآت في أماكن متميزة بالمدن المهمة لممارسة نشاطهم المتنوع، وعلى النقيض من ذلك، كانت هناك مخططات من قبل العناصر التي تنتمي إلى الغرب الأوروبي لتنفيذ سياسة البابوات والحكومات هناك، والتي ترمي إلى إحتلال بلاد إسلامية بمبررات غير منطقية ولا تمتُ إلى الواقع بصلة.

والملفت للنظر أنه في غمرات الحروب التي كانت تندلع بين الطرفين من حين لآخر، وحملات قادمة من الغرب تقترف جرائم وحشية ومذابح، كانت هناك اتصالات دبلوماسية وعلاقات سلمية قائمة بين أطراف أخرى غربية وبلاد إسلامية، على أساس من المصالح

المتبادلة، وعلى نحو لم يغفل فيه المسلمون قضيتهم الخاصة بتحرير أراضيهم من هؤلاء الغزاة. وفي هذه العلاقات بمجالاتها المختلفة، أثبت المسلمون أنهم متميزون حضارياً في تعاملهم حتى مع أعدائهم، مما كان له أثره في تخفيف حدة العداء لدى من اختلطوا بهم وتعايشوا معهم، من الصليبيين القادمين من الغرب.

وهذه الدراسات التي أقدمها في سلسلة تنشر تباعاً، آثرت أن تتناول موضوعات لم تحظ باهتمام الباحثين، على النحو الذي يحقق الهدف المنشود، فهي عن عناصر لعبت دوراً بارزاً في مجال تلك العلاقات، وكان لها أثرها الواضح إما في إذكاء نار العداوة بين الطرفين أم في إشاعة روح الثقة في التعامل وتوفير جو يسوده الود والصداقة، وفي حالات كثيرة لم يكن هذا الدور واضحاً في المصادر العربية بالقدر الذي يقدم دراسة متكاملة الجوانب لكل منها، ولذلك اقتضت الضرورة الرجوع إلى المصادر والمراجع الغربية بلغاتها الأصلية (اللاتينية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية) لسد هذا النقص بأسلوب يقوم على تحليل ونقد ما ورد بها من روايات تاريخية، وعرضها في سياق التطورات العامة للعصر الذي تنتمي إليه للتأكد من أنه لم يشوبها الخيال والمبالغة، ولم تتأثر بروح التعصب السائد لدى الكتاب الغربيين، باستثناء المعروفين لنا منهم بالإنصاف وعدم التحيز.

وفي هذا الصدد توخينا الأمانة في عرض التطورات، والحياد التام، والنظرة الموضوعية في معالجة كل ما يرتبط بهذه العلاقات، وبيان وجهات النظر المختلفة، ثم الوصول إلى النتائج التي تتفق والواقع التاريخي، بعيداً عن أية افتراضات، وذلك لتصحيح المفاهيم الخاطئة الصادرة عن غير المنصفين وأصحاب الأهواء، وبُغية التعرف على الجذور والعوامل التي تحكم مسيرة العلاقات الدولية في عصرنا الحاضر، مما يساعد على رسم سياسات ناجحة لمجابهة التحديات التي يتعرض لها عالمنا الإسلامي.

وأول هذه الدراسات عن "العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام" وهي علاقات غلبت عليها أواصر الصداقة والود بين الطرفين، بحكم المصالح المشتركة بينهما في عمليات التجارة، وسياسة الحكام المسلمين القائمة على التسامح، وتشجيع الغربيين على القدوم إلى بلادهم، والإقامة فيها آمنين على أرواحهم وممتلكاتهم. وقد حقق الطرف الغربي فوائد اقتصادية عظيمة من وراء هذه العلاقات، كما ساعدت جمهورية أمالفي هذه على تهيئة المناخ للسياسة الغربية أن تحقق أهدافها، وذلك عن طريق إقامة منشآت لخدمة الحجاج الكاثوليك القادمين من الغرب إلى الأماكن المقدسة في بلاد الشام، وهي العمليات التي أدى تطورها إلى قيام الحروب الصليبية في الشرق.

والدراسة الثانية عن "فرسان إستبارية القديس يوحنا، ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي" وهؤلاء الفرسان كانوا بمثابة منظمة عسكرية تحولت من الرهبنة وخدمة الحجاج في المستشفيات ودور الضيافة، إلى حمل السلاح وتملّك القلاع والحصون للقيام بعمليات عدوانية شبه متصلة ضد المسلمين.

كما كانوا يقفون ضد أية محاولات للتفاهم بين المسلمين والصليبيين، يحدوهم في ذلك شعور عدائي جارف، ظاهره الحماس للعقيدة الكاثوليكية والالتزام بالسياسة البابوية، وباطنه الحرص على تملّك الإقطاعات، والحصول على مزيد من الهبات والتبرعات في الشرق والغرب، مقابل ما يقومون به من أعمال حربية في المواجهة مع المسلمين، مما أدى إلى ضخامة ثرواتهم وانتشار أملاكهم في أنحاء أوربا. وبالرغم من محاولاتهم الدائمة للحيلولة دون قيام علاقات سلمية، فإن العناصر الصليبية الأخرى المقيمة في المستعمرات الصليبية ببلاد الشام، أقامت نوعاً من التعايش من جانبها مع المسلمين في هذه البلاد، وتأثروا بالعادات والتقاليد الإسلامية، وهو أمر أثار انتباه من زاروها من الرحالة.

وثالث هذه الدراسات عن "العلاقات الصليبية البيزنطية" ومنشأ الاتجاه لدراسة هذا الموضوع هو التصدي لنوع مختلف من العلاقات عن تلك التي كانت بين المسلمين والعناصر الغربية، فعلى الرغم من أن طرفي العلاقة هنا يجمعهما التقاء على العداء ضد المسلمين، وكثيراً ما تحالفا سويا لتنفيذ مخططات مشتركة على هيئة حملات ضد البلاد المصرية والشامية، وكذلك التقارب بينهما فيما يتعلق بالعقيدة لا سيما وأن البابوية كانت تتطلع إلى مد نفوذها ليشمل كنيسة بيزنطة الشرقية الأرثوذكسية، فإن العلاقات بين هذين الطرفين تحولت إلى عداء يفوق ما كان قائماً ضد المسلمين، وإلى فقدان الثقة في التعامل والاتصال، مما أفسح المجال للمسلمين لإقامة علاقات مع الطرفين المتصارعين كل على حده وفقاً لمتطلبات الظروف والأحوال التي تعيشها البلاد الإسلامية، وكذلك كان الحال بالنسبة لعناصر أخرى غلّبت مصالحها الخاصة على انتماءاتها الإقليمية والمذهبية، ونعني بذلك بعض العناصر التجارية الإيطالية.

وآمل أن تحقق هذه الدراسات الأهداف المرجوة من وراء إعدادها، والمتمثلة في بيان جوانب من العلاقات بين المسلمين وأطراف غربية عبر فترات تاريخية مختلفة للتأكيد عمليا وتطبيقيا على حقيقة مهمة، وهي أن الإسلام دين التسامح، واحترام العهود والمواثيق، والحفاظ على الحقوق، وضمان حرية العقيدة لغير المسلمين، بعيداً عن التطرف والغلو، وأن هذه كانت قواعد التعامل الأساسية التي سار على نهجها المسلمون في علاقاتهم مع الشعوب الأخرى، حتى في فترات اتسمت بعدم الاستقرار، وهو ما يبين عدم صدق أصحاب الدعاوى والافتراءات المقصودة في موقفهم من العالم الإسلامي، وأن مايسوقونه في هذا الصدد إنما هو تبرير لمخططات يتطلعون من خلالها إلى تحقيق مآربهم في السيطرة على ثروات العالم الإسلامي، والحيلولة دون قيام وحدة قوية فيه.

وفي مقام العرفان بالفضل لذويه فإني أتقدم بالشكر والتقدير لكل من قدم عوناً له آثاره، ولو بشكل غير مباشر، في تحقيق هذا الإنجاز، وأخص بالذكر والديّ اللذين

ربّياني وعلّماني الصّبر والجلد والمثابرة، والأستاذ الدكتور/ سعيد عبدالفتاح عاشور رئيس اتحاد المؤرخين العرب، والأستاذ الدكتور/ إبراهيم العدوى نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق، والأستاذة الدكتورة/ زبيدة محمد عطا عميدة كلية الآداب - جامعة حلوان، والأستاذة الدكتورة/ عفاف سيد صبرة وكيلة كلية التربية للبنات بالقصيم، فهؤلاء جميعاً - وآخرون غيرهم لم يتسع المجال لذكرهم - كانت لهم بصماتهم بما قدموه من وجهات نظر سديدة ومشاعر طيبة كان لها أثرها في مواصلة البحث والدراسة عبر دروب وعرة من أجل الوصول إلى نتائج أفضل، فجزاهم الله عن ذلك خير الجزاء.

وختاماً، فإن وفقت، وهذا ما أتطلع إليه، فبفضل الله ونعمته، وإن قصّرت فحسبي أني بذلت ما في وسعي وحاولت، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والله الهادي إلى سواء السّبيل ،،،

د. مصطفى محمد الحناوي
بريدة - القصيم
المملكة العربية السعودية
رمضان ١٤٢٣هـ/نوفمبر ٢٠٠٢

المحتويات

تابع المحتويات

مقدمة الموضوع الأول

ودراسة المصادر

المقدمة

أولاً : أهمية الموضوع ومحاوره الرئيسية.

ثانياً : عرض وتحليل لأهم المصادر والمراجع.

أ. مصادر ومراجع خاصة بتاريخ جمهورية أمالفي

ب. مجموعات التواريخ الغربية

(مؤرخي غالة وفرنسا - مؤرخي الحروب الصليبية).

جـ. المصادر الغربية المتنوعة.

د. وثائق الجنيزا.

هـ. المصادر العربية.

بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية انقسمت إيطاليا إلى ولايات وإمارات، وأخفقت أية محاولات في سبيل توحيدها، وأصبحت البلاد مسرحاً للحروب والفتن، وهنا أخذت المدن الإيطالية التي أعدها موقعها الجغرافي لممارسة التجارة، تضع لنفسها سياسة قائمة على أساس الابتعاد عن الاشتباك مع الدول القوية المجاورة في حروب لا طائل من ورائها، وبذا تهيأت لها أنسب الفرص للاشتغال بالتجارة مع الشرق، ومن هذه المدن أمالفي، التي حصلت على مركز المدينة المستقلة من الوجهة العملية، وصارت منذ منتصف القرن التاسع الميلادي الممثلة الأولى للتجارة والقوة البحرية في أوربا المسيحية، لا ينافسها في هذه المكانة سوى البندقية(١).

وإذا تأملنا خريطة العالم الاقتصادية في العصور الوسطى بصورة عامة وجدنا أن هنك ثلاثة أقسام ذات مراحل متعاقبة أدت إلى مولد التجارة، فيما بين سقوط الأمبراطورية الرومانية، وفجر التاريخ الحديث، وأول هذه الأقسام هو الإمبراطورية البيزنطية، التي تسلطت بتفوق على السوق المالية من القرن الخامس حتى أواخر القرن السابع الميلادي. والقسم الثاني هو النشاط العربي الإسلامي خلال أواسط العصور الوسطى من بداية القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر. والقسم الثالث هو ما كان مرتبطاً بتطور التجارة والقوة البحرية، وكذلك الصناعة في غرب أوروبا، وأيضاً ما ترتب على الحركة الصليبية من آثار في هذا المجال(٢).

ومن أهم العوامل التي ساعدت على نمو النشاط التجاري للمدن البحرية المطلة على البحر المتوسط هو التوسع الإسلامي في البحر المتوسط في القرنين السابع والثامن

(1) Camera, Matteo : Memorie Storico - Diplomatiche Dell, Antica Citta e Ducato d, Amalfi Balogna 1972. P. 192.

أيضاً : راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، ط١ ، القاهرة ١٩٤٨م ص ٤٥ -٤٦

(٢) عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب : تجارية، ثقافية، صليبية، ترجمة الدكتور فيليب صابر سيف، دار الثقافة، ص ١٥٠ - ١٥١

الميلاديين. هذا التوسع الجزئي حطّم وحدة هذا البحر، إلا أنه لم يقض فيه على التجارة بشكل نهائي، ويعزى ذلك لسببين : أولهما : أن المسلمين كانوا من المشتغلين بالتجارة منذ بدايات تاريخهم(١). وثانيهما : فشل المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية مما ترك الباب مفتوحاً أمام التبادل التجاري بين المدن الإيطالية النامية، وبين أراضي الدولة البيزنطية على الجانب الشرقي من البحر المتوسط، مما يسر لهذه المدن سبل الاتصال بالمسلمين المجاورين لبيزنطة في كل من مصر والشام(٢)، هذا فضلاً عن اتصالهم بمسلمي جنوب إيطاليا وصقلية وشمال إفريقية، والذي وضع اللبنات الأولى لقيام علاقات نشطة بين الأمالفيين وحكام هذه البلاد الفاطميين، الذين نجحوا في إقامة خلافة قوية امتدت من هذه المنطقة إلى مصر والشام.

وهكذا جاء القرن العاشر الميلادي بمزاحم جديد للبيزنطيين في تجارة البحر المتوسط، إذ دخلت المدن الإيطالية حلبة هذه التجارة وفي مقدمتها أمالفي التي احتلت المكانة الأولى في ذلك الوقت بين التجار الكاثوليك في إفريقيا وبلاد الشرق الأدنى الإسلامي(٣) بحصولها على امتيازات تجارية في القسطنطينية، وعنايتها بالتجارة مع المسلمين في المدن المصرية والشامية، مما قلل من أهمية العاصمة الإمبراطورية التجارية، فلما احتل السلاجقة شرق آسيا الصغرى وشمال الشام، وأخذ النورمان يعنون بالسيطرة على البحر المتوسط الشرقي من صقلية ويصطدمون بالبيزنطيين، كان ذلك إيذاناً بأن بيزنطة يجب أن تنصرف عن محاولة السيطرة على التجارة في الشرق الأدنى لتفسح المجال أمام هؤلاء التجار الإيطاليين، الذين أخذوا يوسعون من نشاطهم التجاري مع المسلمين في هذه المنطقة، إلى أن جاءت الحروب الصليبية فغيّرت ما كان قد

(١) الدمشقي، أبو الفضل جعفر : الإشارة إلى محاسن التجارة ، طبعة المؤيد ١٣١٨هـ ص ٤٧ .

(٢) نعيم زكي فهمي : دور اليهود في تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب، القاهرة ، ١٩٧١م، ص ٧٥ - ٧٦.

(3) Lopez, R. S. : Litmpartanza dell Monde Islamico Nella Vita Economica Eurapa dans l, Occident el, Islam Nell Alto Medioevo, Spoleto 1965. P. 451.

ألفه الناس، ودخلت بالعلاقات بين المدن الإيطالية والمسلمين في اتجاه جديد.

وموضوع هذه الدراسة هو : (العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام في الفترة من ٩٩٦ ـ ١١٣١م/ ٣٨٥ ـ ٥٢٥هـ). ويتلخص الهدف من هذا البحث وأهميته في النقاط التالية :

(١) إلقاء الضوء على جانب من العلاقات بين الشرق والغرب في فترة تُعد مبكرة في تاريخ العلاقات التجارية بين الطرفين، وكانت بمثابة الأسس الأولى التي تطورت عنها العلاقات بعد ذلك بين المدن البحرية الإيطالية وبين المسلمين. وهي بدايات يكتنفها العديد من المصاعب، ورغم ذلك قُيِّض لها النجاح في النهاية، وضربت المثل في إمكانية قيام علاقات صداقة متينة بين الطرفين الإسلامي والمسيحي في ذلك الوقت المبكر، دون وجود أية قيود ناجمة عن الاختلاف في الدين أو الجنس، وهو ما يدحض الإدّعاءات الباطلة التي نادى بها المؤرخون الغربيون المعاصرون في فترة تالية لانتهاء هذه العلاقات، والتي وصفوا فيها المسلمين بالتعصب وعدم التسامح، ليبرروا لقيام الغرب بحملاته ضد الشرق، وهو المنطق الذي قامت على أساسه علاقات مع مدن إيطالية أخرى كانت في سبيلها إلى تدعيم اتصالاتها بمنطقة الشرق الأدنى، وحصلت على نفوذ كبير فيها على حساب الأمالفيين.

(٢) تناولت هذه الدراسة علاقات جمهورية إيطالية لم تحظ بأي اهتمام من قبل الدارسين، على النقيض مما كان عليه الحال بالنسبة لجمهوريات أخرى كالبندقية، وجنوة، وبيزا، هذا فضلاً عن صعوبة الحصول على المادة التاريخية الوافرة عن تاريخ أمالفي وعلاقاتها بالمسلمين، سواء في الأبحاث التي عالجت موضوع العلاقات الإيطالية الإسلامية في العصور الوسطى بشكل عام، أو في المصادر العربية التي أغفلت كلية الإشارة إلى أي نوع من هذه العلاقات، سوى إشارة عابرة مبهمة سنعرض لها في حينها.

(٣) دراسة العلاقات بين أمالفي كأحد أطراف الغرب الأوربي، والمسلمين في مصر والشام قبل قيام الحروب الصليبية الغربية بأكثر من قرن من الزمان، حتى استقرار صليبيي الحملة الأولى في الشرق، ثم ظهور آثار هذا الوضع الجديد، تُعد من الأمور الهامة لإظهار التطورات التي حدثت في مجال العلاقات بين الشرق والغرب في الفترة السابقة، بحيث أسفرت عنها هذه النتائج، التي تمثلت بشكل رئيسي في أن تفقد علاقات الغرب الأوروبي بمسلمي مصر والشام طابعها الودي، التي مثلها الأمالفيون أصدق تمثيل، وتتحول إلى علاقات سيطرت عليها روح العداء والحروب، حيث ورث الغرب عن البيزنطيين موقفهم العدائي من المسلمين، وبالتالي كان على أمالفي التي استفادت كثيراً من وراء علاقات الصداقة مع هؤلاء الأخيرين بالحفاظ على مصالحها التجارية، أن تنسحب قليلاً تحت وطأة ظروفها السياسية، لتفسح المجال لمدن أخرى تقيم علاقاتها مع الدول الإسلامية على أساس من الجمع بين طابعي الحرب والسلام في آن واحد.

(٤) موضوع العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الحروب الصليبية حظي بنصيب وافر من الدراسات التي تناولتها من زوايا عديدة ومتنوعة، سواء بالنسبة للمدن الإيطالية أو العناصر الغربية الأخرى.

ولم يوجه هؤلاء الدارسون اهتماماً يذكر إلى جمهورية أمالفي، بحجة أن دورها في هذه الفترة كان ضئيلاً إذا ما قيس بالوضع بالنسبة للمدن الأخرى. فأتى هذا البحث ليبرر ويؤكد أن الأمالفيين مارسوا علاقات نشطة ومزدهرة مع المسلمين في الشرق في القرن السابق على قيام الحروب الصليبية، في إطار بعيد عن الحروب أو سياسة العدوان، وبالتالي حققوا نتائج مثمرة من وراء هذه العلاقات فزادت فرص التأثير والتأثر بين الطرفين في جو من الاتصالات غلبت عليه روح الصداقة، ونعم بالهدوء والاستقرار، كما أن الأمالفيين باتجاههم إلى الاستفادة من هذه النتائج، قاموا بجهود لصالح

مسيحيي الغرب والسياسة البابوية بصفة عامة- سواء بقصد أو بغير قصد - وذلك عندما أتيحت لهم الفرصة لإقامة منشئات لخدمة الحجاج الغربيين، فأسهموا في تطويرحركة الحج إلى الشرق، والتي انقلبت في النهاية إلى عداء صريح ضد المسلمين في مصر والشام، مثّلته الحروب الصليبية أصدق تمثيل.

لذلك فإن هذا الموضوع يُميط اللثام عن حقيقة هامة، وهي : أن هؤلاء التجار باتصالهم الدائم بالمسلمين في هذه المنطقة أوقفوا الغرب على أحوال الشرق وخيراته، وبالتالي زاد اهتمام الغربيين على اختلاف مشاربهم وأهوائهم بهذه المنطقة، مما أدى إلى تطور العلاقات بين الغرب الأوربي والشرق الإسلامي.

وقد واجهت الباحث في سبيل معالجة هذه النواحي صعوبات جمّة نجمت عن ندرة الوثائق أو نصوص المعاهدات، التي تؤكد قيام علاقات من هذا القبيل، وهو الوضع الذي فرض على بعض الباحثين ممن عالجوا إحدى نقاط تمُس هذا الموضوع إلى الاستشهاد بأدلة غير مباشرة، كالمشتقات الفيلولوجية للتعرف على مسار هذه العلاقات ومؤثراتها(1)، ويرجع ذلك في ظل هذه الظروف إلى أحد أمرين :

إما عدم اهتمام في ذلك الوقت بتسجيل علاقات كهذه في الوثائق الرسمية والتواريخ، أو مراعاة لأسلوب السرية الذي كان متوخياً في هذا العصر بالنسبة للاتصالات بالمسلمين اتسمت بروح المودة والصداقة، وغلب عليها الاهتمام والمصالح الخاصة، وهو ما كان يتعارض مع ارتباطات أمالفي بالدولة البيزنطية، التي كانت على موقف عدائي من المسلمين، ومع سياسة البابوية التي تقف في سبيل قيام أي نوع من هذه العلاقات.

وأمام هذا الوضع، سعى الباحث منقباً في معظم المصادر والمراجع المتنوعة الخاصة بتاريخ هذه الفترة موضوع الدراسة، بحثاً عن خيوط هذه العلاقات لدى المصادر

(1) Citarella, A. O. : Scambi Commerciali Fra L, Egitto E. Amalfi in Un Documento Indedito Della Geliza Del Cairo in A. S. P. N.-, ix Napoli 1971 P - 143.

التاريخية الخاصة بأطراف ثلاثة هي : الدولة البيزنطية التي ارتبطت بها أمالفي من خلال تبعية اسمية حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، والغرب الأوربي بما فيه المدن الإيطالية المعاصرة. وأخيراً المسلمون الطرف الثاني في هذه العلاقات. وقد أخذ ذلك من الباحث كثيراً من الوقت والجهد، خصوصاً وقد وجد نفسه أمام مصادر ومراجع بلغات غير مألوفة كاللاتينية والإيطالية القديم منها والحديث، والتي لا مناص من الاعتماد عليها لأنها احتوت معظم المادة التاريخية اللازمة لإنجاز هذا البحث.

والواقع لولا أنه تيسرت للباحث فرصة السفر إلى إيطاليا، وقضاء مدة هناك ليست بالقصيرة في أرشيفات مدينة الفاتيكان، ومكتبة معهد القاصد الرسولي للدراسات الشرقية، وبعض المكتبات الأخرى الشهيرة، كالأهلية بروما والامبرزيانا بميلانو، وحصوله على بعض المصادر والمراجع المتخصصة في تاريخ جمهورية أمالفي، لما أمكنه إنجاز هذا البحث بالنحو الذي هو عليه الآن، وذلك رغم أن هذه المصادر والمراجع لم تول موضوع العلاقات الأمالفية الإسلامية القدر الكافي من العناية، فاضطر الباحث إلى جمع الأشلاء المتناثرة في غيرها، والخاصة بهذا الموضوع لسد هذه الفجوات ما أمكن.

لذلك فإن تزويد المكتبة العربية بدراسة من هذا القبيل اعتمدت على قدر كبير من المصادر والمراجع الأصلية، معظمها في لغته الأصلية كاللاتينية والإيطالية القديمة والفرنسية، وأيضاً على مادة تاريخية متناثرة في العديد من المصادر الأخرى المعاصرة والمتأخرة، استغرق جمعها وقتاً وجهداً كبيرين قد يسد فجوة في موضوع العلاقات بين الشرق والغرب بصفة عامة، وبين المدن الإيطالية والمسلمين بصفة خاصة. ومن الممكن أن يفتح المجال كذلك لدراسات أخرى مقبلة تبدأ من حيث انتهى الباحث، وتساعد على إماطة اللثام عن الغموض الذي يكتنف بعض النقاط في هذه العلاقات، خصوصاً إذا أتيح لمن يقوم بهذه الدراسات فرصة الحصول على وثائق أو مادة تاريخية أخرى لم تصل إلى متناول أيدينا.

ويقع هذا البحث في أربعة فصول ومقدمة وخاتمة، كما ذيل بملاحق وجداول وخرائط لإيضاح نقاط وردت في ثناياه.

وتحديد المدى الزمني للفترة موضوع الدراسة يبدأ بعام (٩٩٦م/٣٨٦هـ) وهي السنة التي يرجع إليها توافر الأدلة على وجود الأمالفين بأعداد كبيرة في مصر والشام، مما يقلل من جوانب الافتراضات الخاصة بالفترة السابقة، لعدم توفر مثل هذه الأدلة، خصوصاً وأن دليل هذه السنة استقيناه من مصادر عربية وهو أمر لم يكن مألوفاً. أما نهاية هذه الفترة فهي عام (١١٣١م/٥٢٥هـ)، وهي السنة التي سقط فيها النظام الجمهوري في أمالفي، وأصبحت هذه المدينة منذ ذلك التاريخ خاضعة لحكم ملكي وسياسة نورمانية بعد أن أضحت جزءاً من مملكة الصقليتين، وبالتالي فقد دخلت في مرحلة جديدة مختلفة أثرت كثيراً على علاقاتها بالعالم الخارجي.

وقد تناول الفصل الأول عدة نقاط هامة، عبارة عن ظروف وأحداث سابقة على بداية الفترة موضوع البحث، لدى كل من أمالفي والمسلمين في مصر والشام، وكان لها أثرها على تشكيل العلاقات بين الطرفين في هذه المنطقة، وفي حوض البحر المتوسط بصفة عامة. وتتمثل هذه النقاط في : الموقع الجغرافي لأمالفي وأهميته، والنظام السياسي للمدينة وآثاره، ونشاط الأمالفيين الاقتصادي، ومنزلة التجارة في هذا النشاط، على أساس أنها كانت محور العلاقات الأمالفية الإسلامية، والتطورات التاريخية، وعلاقات أمالفي بالمسلمين والبيزنطيين منذ تاريخ الاستقلال حتى قيام الخلافة الفاطمية في شمال إفريقية، وأثر ذلك بالنسبة لمستقبل العلاقات مع الفاطميين، ثم استيلاء هؤلاء الأخيرين على مصر والشام وإقامتهم خلافة هناك وأثر هذا الوضع الجديد بالنسبة لصلات أمالفي بهذه المنطقة.

وتناول الفصل الثاني : (العلاقات بين أمالفي ومسلمي مصر والشام في الفترة ما بين ٩٩٦م - ١٠٧١م/ ٣٨٦ - ٤٦٣هـ) بادئاً بالعلاقات الأمالفية الفاطمية حتى عام ٩٩٦م/

٣٨٦هـ، ورحلة ليو الأمالفي إلى مصر، وأهميتها بالنسبة لموضوع العلاقات، ووضع أمالفي السياسي والتجاري في بيزنطة، وأثره على علاقاتها بمصر والشام، وبعد ذلك تعرض الباحث بالدراسة لما ذكر في المصادر المعاصرة عن اشتراك الأمالفيين في مؤامرة حريق الأسطول الفاطمي عام (٩٩٦م)، ثم تقييم هذا الدور الذي نُسب إليهم وأثره على علاقاتهم بالمنطقة.

وتتابعت أحداث الفصل لتؤكد بأدلة تاريخية أن علاقات أمالفي التجارية بمصر والشام استمرت بعد هذا الحادث. ومن النقاط التي احتواها هذا الفصل بعد ذلك : الموقف بالنسبة لأمالفي في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، ومساعي الأمالفيين لدى الخلافة الفاطمية للحصول على مقر لهم في بيت المقدس، ودور المنشئات الأمالفية في العلاقات بين الطرفين، ووجود وثائق في الجنيزا تؤكد تردد الأمالفيين على مصر بغرض التجارة في فترات متقطعة، وأيضاً الدليل على تبادل الخبرات والعمالة بين أمالفي والمسلمين في مصر والشام والمؤثرات الناجمة عن ذلك بالنسبة للعلاقات بينهما.

وبالنسبة للفصل الثالث : فقد تناول هذه العلاقات في الفترة ما بين (١٠٧١ - ١١٣١م / ٤٦٣ - ٥٢٥هـ) أي حتى سقوط الجمهورية. وتعرض لعدة أمور هامة مثل الغزو السلجوقي لآسيا الصغرى وبلاد الشام وآثاره على علاقات أمالفي بهذه المنطقة، وظروف مصر السياسية والاقتصادية خلال هذه الفترة، وأثرها على العلاقات مع أمالفي، وخضوع أمالفي للنورمان، وأثر ذلك على الموقف بالنسبة لها لدى كل من البيزنطيين ومسلمي مصر والشام، ووضع الأمالفيين التجاري في صقلية النورمانية، وآثاره على مصالحها في الشرق، ودور الأمالفيين في تطور حركة الحج، وأثر ذلك على تغيير وضع العلاقات بين الشرق والغرب بصفة عامة، ودور أمالفي في الحركة الصليبية والموقف بالنسبة لها لدى حكام مصر والشام في ظل الوضع الجديد، ثم وضع أمالفي في هذه البلاد بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى حتى سقوط الجمهورية

الأمالفية، وما آلت إليه هذه العلاقات.

أما الفصل الرابع والأخير وعنوانه : (تجار أمالفي في مصر والشام) فقد تناول كافة النواحي المتعلقة بهذه التجارة، والتي لعبت دوراً في مسار هذه العلاقات، وتتمثل في : سياسة أمالفي التجارية في الداخل والخارج، وطرق التجارة الهامة التي سلكتها تجارة كل من مصر والشام من ناحية وأمالفي من ناحية أخرى، ومراكز أمالفي التجارية في الشرق والغرب، والسلع المتبادلة بين الطرفين، والاتفاقات والنظم التجارية التي كان معمولاً بها في هذا المجال، وذلك كتطبيق عملي لهذه العلاقات التي تناولناها بالدراسة في الفصول السابقة.

ويقتضي العرض العلمي لموضوع البحث أن نتقدم في هذا المقام بدراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع الخاصة بتأريخ جمهورية أمالفي من ناحية، وتلك التي تناولت نقاطاً هامة تتعلق بموضوع العلاقات الأمالفية الإسلامية من ناحية أخرى.

وفي مقدمة المصادر التي تنتمي إلى النوع الأول : (مجموعة الوثائق الدبلوماسية الأمالفية) المعروفة باسم : Codice Diplomatico Amalfitano، والتي نشرها المؤرخ ريتشارد فيلانجيري منذ بدايات القرن العشرين، وتحتوي هذه المجموعة المئات من عقود البيع أو الشراء، والهبات والتنازلات والمبادلات وما شابه ذلك، فضلاً عما تضمنته من مادة تاريخية تتعلق بالنواحي الإدارية والسياسية لجمهورية أمالفي وفقاً للتسلسل التاريخي المتتابع، ولا تتجاوز قيمتها بالنسبة لموضوع البحث هذا النطاق، إذ أنها لم تتضمن أية وثائق خاصة بموضوع العلاقات بين أمالفي والمسلمين، بل اقتصرت على الإشارة في بعض الأحيان إلى الاتصالات التي كانت قائمة بين أمالفي وبيزنطة، وبين أمالفي وجيرانها من بلاد الغرب الأوربي، مما يؤكد عدم وجود معاهدات رسمية مسجلة بين الأمالفيين والبلاد الإسلامية بصفة عامة، وأن الأمر اقتصر على وجود قواعد للتفاهم مستقرة بين الطرفين، ومعروفة لدى كل منهما ، ولم تأخذ طريقها إلى السجلات

التاريخية المعاصرة حفاظاً على هذه العلاقات القائمة من معارضة القوى المسيحية المعاصرة، أو أن أحد أطراف هذه القوى التي هيمنت على عملية التدوين التاريخي في ذلك الوقت ونعني بها البابوية ورجالها من الرهبان والأساقفة تعمدوا اغفال الإشارة إلى هذه الاتصالات التي لا تمثل أية قيمة بالنسبة لهم، هذا فضلاً عن أنهم لا يقرونها.

وتقتصر أهمية (مجموعة الوثائق الدبلوماسية الأمالفية) بالنسبة لموضوع العلاقات الأمالفية الإسلامية في تلك الإشارات العابرة التي احتوتها بعض الوثائق، والتي تؤكد وجود الأمالفيين في موانيء ومدن مصر والشام، عن طريق التنويه إلى مكان وجود أحد الأطراف المتعاقدين، أو من لهم صلة بعمليات التعاقد أنهم مقيمون وقت توقيع العقد في الاسكندرية أو القاهرة أو أنطاكية .. إلخ.

ويلي هذا المصدر في الأهمية (أرشيفات إقليم نابلي التاريخية) Archivio storico Per Le Province Napolitomo والتي تنشر بصورة دورية، فقد تضمنت وثائق تم اكتشافها حديثاً، ونشرت لأول مرة، والبعض منها كان مفيداً بالنسبة لموضوع البحث.

هذا بالإضافة إلى أنها احتوت أبحاثا عبارة عن دراسات وثائقية لنقاط هامة تتعلق بتاريخ جمهورية أمالفي أو بعلاقاتها مع المسلمين وقد أفاد الباحث من المعلومات التاريخية الواردة في هذه الدراسات، ومن تعريفها بوثائق لم يتيسر له الحصول عليها من مظانها الأصلية. وكذلك كان الحال بالنسبة لأرشيفات الأقاليم الأخرى التي عاصرت أمالفي زمنياً في العصور الوسطى وارتبطت معها بصلة الجوار، بل أن بعضاً من هذه الأقاليم سيطر على جمهورية أمالفي لفترة من الوقت وبالتالي ارتبط الإقليمان سوياً برباط تاريخي واحد في فترات متقطعة من التاريخ الأمالفي. ومن هذا القبيل (أرشيفات أمارة سالرنو) Archivio di Storia di Salerno .

أو تواريخ (أمارة بنفنتو اللمباردية) التي تضمنتها (مجموعة مؤرخي غالة وفرنسا) Recueil des Historiens des Gaules et de la Frame فهذه الأرشيفات والتواريخ

احتوت إشارات خرجت عن النطاق التقليدي لكونها أكثر صراحة في التعريف ببعض الأمور المتعلقة بالنشاط التجاري الأمالفي، وهو ماكان تجار أمالفي يتوخون السرية بعدم إعلانه حرصاً على مصالحهم ضد أي منافسة تجارية خارجية.

وينطبق هذا الوضع على ما تضمنته (التواريخ الأمالفية). Chronici Amalplitani والتي نشرها أ. موراتوري A. Muratori. في عام (١٧١٨م).

فهذه لم تحتو اشارات واضحة عن تجارة أمالفي في الشرق، ولم تحقق الفائدة بالنسبة لموضوع البحث إلا من خلال تنويهات غير مباشرة تم استنتاجها من سياق عرض هذه التواريخ للأحداث، واستخدمت لتأكيد بعض الفروض والاستنتاجات التي لجأ الباحث إليها مضطراً لسد فجوة في الموضوع التزمت المصادر إزاءها الصمت بشكل كلي.

ويرتبط بهذه المصادر من حيث الأهمية بالنسبة لموضوع البحث ما كتبه كل من فرانشيسكو بانسا Francesco Pansa. ومتى كاميرا Matteo Camera .

فالأول في كتابه عن (تاريخ جمهورية أمالفي القديمة) Istoria Dell, Antica Republica d, Amalfi المكون من جزئين، توخى في عرضه لهذا التاريخ الاستشهاد بنصوص المصادر التي اعتمد عليها ونشرها كاملة سواء مترجمة إلى الإيطالية القديمة أو بلغتها الأصلية اللاتينية، ومعظمها مصادر على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لتاريخ أمالفي، ولم تقع في متناول أيدينا، فعوضنا بذلك فرانشيسكو عن عدم وصولها إلينا، هذا فضلاً عن أنه جمع أشلاء متناثرة من نصوص قديمة، مما ساعد على إجلاء غموض كان محيطاً ببعض نقاط هذا البحث.

وكذلك كان الحال بالنسبة لمؤلف متى كاميرا المعروف : (ذكريات تاريخية - دبلوماسية لمدينة ودوقية أمالفي القديمة)، إلا أن هذا المرجع الأخير امتاز عن سابقه بإيراده لمعلومات أخرى متنوعة تتناول الجوانب السياسية والتجارية والدينية. ويكفي دليلاً على

أهمية هذين المرجعين وقيمة كل منهما التاريخية بالنسبة لأمالفي، أنهما كانا مصدرا لمشاهير المتخصصين في التاريخ الأمالفي، أو تاريخ التجارة أمثال ماريو دل تريبو Mario Del Treppo وألفونس ليون Alfonso Leone وميـاهي برزا M. Berza وأرمـاندو شيتاريللا Armando Citarella وجيوزيبي كونيجليو Guisippe Coniglio ليوجي شاركي Liugi Garci ج. جالاسو G. Galasso وكلود كاهن Claade Cahen ووليم هايد.

فقد قدم المؤرخان ماريو تريبيو، والفونس ليون دراسة وافية عن تاريخ أمالفي ضمناها كتابا عنوانه : (أمالفي في العصور الوسطى) Amalfi Medioeval .

وأفاد الباحث من هذه الدراسة بالتعرف على أنواع النشاط الاقتصادي المختلفة التي مارسها الأمالفيون، والتي لم تكن قاصرة على التجارة بل مارسوا أيضاً حرفتي الزراعة والصناعة، هذا فضلاً عما قدمته هذه الدراسة من معلومات وفيرة عن الحياة الاجتماعية وتكوين طبقات المجتمع، وما تضمنته أيضاً من إشارات عن علاقات الأمالفيين التجارية مع الشرق الإسلامي وشمال إفريقيا، وعن المراكز الخاصة بهم في بلدان العالم المختلفة.

أما المؤرخ ميـاهي برزا M. Berza فقد قدم دراسة موثقة بالأدلة والبراهين عن التطورات التاريخية التي مرت بها أمالفي من أخريات القرن السادس حتى النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، في مقال بعنوان Amalfi Perudicale نشره في مجلة «حوليات أمالفي» الأكاديمية الرومانية بروما. ولم يغفل في هذه الدراسة أن يتناول علاقة أمالفي بالأطراف الثلاثة المعاصرة في ذلك الوقت، وهي الإمبراطورية البيزنطية، الغرب الأوربي، العالم الإسلامي.

وتتمثل قيمة هذه الدراسة بالنسبة لموضوع البحث أنها ساعدت الباحث كثيراً في تفهم الظروف التي أحاطت بالأمالفيين قبل الفترة موضوع الدراسة، ومعرفة جذور العلاقات التي تطورت وازدهرت بين أمالفي والمسلمين في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

وقد اتجه البعض إلى اتباع أسلوب أكثر تخصصاً في مجال هذه الدراسات، ومن هؤلاء المؤرخ أرماندو شتياريللا Armando Citarella الذي قدم بحثين قيّمين يتسمان بالموضوعية في معالجة المسائل التي يكتنفها الغموض. كما أنهما يمسان موضوع هذا البحث كثيراً، إذ أن أحدهما يتناول موضوع : (علاقات أمالفي بالعالم العربي قبل الحروب الصليبية)، والآخر عن : (تجارة أمالفي في العصور الوسطى). وبالإضافة إلى ذلك نشر إحدى وثائق الجنيزا لأول مرة في أرشيفات إقليم نابلي في بحث بالإيطالية عنوانه : (التبادل التجاري بين أمالفي ومصر).

وقد أفادت هذه الدراسات الواعية الباحث كثيراً في تتبع العلاقات الأمالفية الإسلامية في المجالين السياسي والتجاري وكذلك الثقافي، والاستناد إلى ما تضمنته هذه الوثيقة في تأكيد بعض النواحي المتعلقة بمسار هذه العلاقات وهو ما يمكن أن نلمسه بوضوح في حواشي هذا البحث.

وأيضاً المؤرخ جيوزيني كوينيجليو في بحثه عن (أمالفي وتجارتها في العصور الوسطى) Amalfi e il Suo Commercio Nel Medieovo، والذي امتاز بأنه عرض في هذا البحث لكافة التطورات التي مرت بها التجارة الأمالفية منذ بداية انتعاشها إلى أن انهارت كلية في أواخر العصور الوسطى، مما ساعد الباحث على المقارنة بين هذه التطورات في عصرين مختلفين هما : عصر استقلال أمالفي، وعصر خضوعها للسيادة النورمانية، والتعرف بالتالي على مدى تأثر التجارة بالأوضاع السياسية في هاتين الحقبتين واللتين تناولهما بالدراسة الفصلان الثاني والثالث من هذا البحث.

يضاف إلى هذه الدراسات المتخصصة كتاب ليوجي شاركي عن (جمهورية أمالفي البحرية) Le Repubbliche Marinare Amalfi، والذي احتوى فصولاً هامة عن النظم السياسية، والتجارة الأمالفية والعملات والنقود التي كانت متداولة في هذه التجارة، وقد انفرد هذا المرجع بإيراد معلومات مفيدة في نقطتين هامتين هما : سياسة

جمهورية أمالفي التجارية، والقوانين البحرية والتجارية التي وضعتها المدينة، وأخذت الصبغة العالمية في العصور الوسطى، وقد ذيَّل شاركي هذه الدراسة بملحق على قدر كبير من الأهمية، عن (لائحة أمالفي) Tabula di Amalfi، التي تضمنت هذه القوانين ونشر نصوصها بلغتها الأصلية اللاتينية، وقد قمنا بترجمتها إلى العربية ضمن ملاحق هذا البحث.

وقد أفاد الباحث أيضاً من دراسات أخرى موضوعية كتلك التي قدمها ج. جالاسو G. Galasso عن : (التجارة الأمالفية في العصر النورماني) Il Commercio Amalfitano (Nel Periodo Normanno)، وعن مدينة كامبانيا La Citta Campania، وما كتبه المؤرخ كلود كاهن عن (نص يتعلق بالتجارة الأمالفية في مصر)، وما تضمنته فصول كتابه الخاص بتاريخ "سوريا الشمالية في عصر الحروب الصليبية" من مادة تاريخية عن النشاط الأمالفي والجاليات الأمالفية المقيمة في هذه المنطقة، وما كان لهم فيها من أملاك ومنشآت، وكذلك مرجع كل باحث يتعرض بالدراسة للموضوعات الخاصة بالتجارة، وأعني به مؤلف وليم هايد عن (تاريخ تجارة الشرق في العصور الوسطى)، فقد حوت هذه المراجع معلومات قيمة استقاها هؤلاء المؤرخون من مصادر أصلية بعضها حصلنا عليه فآثرنا أن نعتمد على ما في هذه المصادر من تفاصيل إضافية، والبعض الآخر لم يكن في متناول أيدينا فحصلنا من هذه المراجع على ما انفردت به من مادة تاريخية في هذا المجال، وما حوته من وجهات نظر مفيدة.

ومن المصادر التاريخية الهامة التي أفادت موضوع البحث (مجموعة مؤرخي غالة وفرنسا)، والتي تقع في أربع وعشرين جزءاً، وقد حوت أجزاء منها مادة أصلية عن تاريخ اللمبارديين وتأثيرهم على جنوب إيطاليا، وعلاقات مدن الجنوب هذه، ومن بينها أمالفي، بالمسلمين في إفريقيا وصقلية وجنوب إيطاليا، هذا فضلاً عما تضمنته عن تاريخ النورمان، ونصوص الخطابات المتبادلة بين البابوات والأباطرة والتي تشير إلى الموقف

بالنسبة للأمالفيين في سياق الأحداث المعاصرة التي ترويها تواريخ هذه المجموعة.

وأيضاً : (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية)، و(أرشيفات لاتين الشرق) و(تقارير حجاج فلسطين)، فهذه المصادر تتمثل قيمتها بالنسبة لهذه الدراسة فيما احتوته من مادة تاريخية عن منشئات الأمالفيين، ووجود مواطني أمالفي وتجارها في الأراضي المقدسة قبل قدوم الصليبيين إلى الشرق، ثم دور هؤلاء التجار المباشر وغير المباشر في العلاقات بين الشرق والغرب أثناء أقامتهم في هذه المناطق. وبالإضافة إلى ذلك فقد تضمنت هذه المصادر خصوصاً (تقارير حجاج فلسطين) ماكتبه الحجاج والرحالة عن هذه المنشآت، وماشاهدوه في مصر والشام من نشاط تجاري، وفنادق للتجار، وجاليات أوربية مقيمة أثناء قيامهم برحلات عاصرت الفترة موضوع الدراسة.

وهناك مصادر أخرى لها أهميتها، مثل تاريخ وليم الصوري والكسياد آنا كومنينا، وميشيل السرياني، وفوشيه أف شارتر. وقد ولد وليم الصوري في بيت المقدس عام (١١٣٠م/٥٢٤هـ)، ثم ذهب إلى باريس حوالي عام (١١٤٥م/٥٣٩هـ) حينما كان يبلغ من العمر خمسة عشرة عاماً، حيث تلقى تعليمه هناك في بولونيا لعقدين من الزمان عاد بعدها إلى الشام في عام (١١٦٥م/٥٦٠هـ) لذا لم يكن وليم شاهد عيان لما أورده في تاريخه عن الفترات الزمنية السابقة على هذا التاريخ، ورغم ذلك اشتهر بقدرته على تقييم الروايات التاريخية التي نقلها عن الآخرين. أي أنه كان مؤرخاً محققاً(١).

وتتلخص أهمية (تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحر) : بالنسبة لموضوع البحث في أنه قدم مادة تاريخية قيمة عن جمهورية أمالفي، ونشاط تجارها في بلاد مصر والشام، ووضعهم لدى حكام هذه البلاد، كما تطرق إلى وصف أطراف من

(١) للمزيد من التفاصيل عن المؤرخ وليم الصوري وتاريخه انظر مقال للأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق، منشور بمجلة كلية الآداب . جامعة الأسكندرية العدد ٢١، سنة ١٩٦٨، ص ١٨١ - ٢٠٠.
Also : Smailly, Berl : Historians in the Middle Ages; New York, 1974. PP. 134 - 141.

طبائعهم التي كانت سر نجاحهم في العمل التجاري، وذلك في معرض الحديث عن مساعي هؤلاء التجار لدى الخليفة الفاطمي في مصر للحصول على مقر لهم في مدينة بيت المقدس، وما أقاموه من منشآت في هذه المدينة خدمت أغراض التجارة الأمالفية، ووفرت سبل الراحة للحجاج الغربيين في آن واحد، وقد انفرد وليم بإيراده لهذه الموضوعات مما جعل من تأريخه مصدراً لمؤرخين كتبوا عنها في فترة تالية.

ويعد كتاب الألكسياد The Alexiad للكاتبة آنا كومنينا ابنة الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين من المصادر البيزنطية الهامة. إذ أنه رواية شاهد عيان للفترة من ١٠٦٩ إلى ١١١٨م التي شهدت جهود الأباطرة للحفاظ على القوة البيزنطية، والتلاقي بين بيزنطية والغرب في الحرب الصليبية الأولى، والمقاومة ضد السلاجقة والنورمان(١).

وهذا المصدر أفاد منه الباحث في معالجته لهذا لنقاط وأثرها المباشر وغير المباشر على علاقات أمالفي بمصر والشام، وأيضاً بما قدمته آنا كومنينا من مادة تاريخية عن وضع الأمالفيين التجاري في الدولة البيزنطية، والأماكن التي كانوا يشكلون فيها أغلبية بين الأهالي كمدينة دارخيوم، ثم الموقف بالنسبة لهؤلاء التجار في بيزنطة بعد خضوعهم للنورمان، والذي تمثل في مرسوم أصدره الامبراطور الكسيس الأول كومنين في عام (١٠٨٢) يمنح بمقتضاه للبنادقة امتيازات في بيزنطية على حساب الأمالفيين. وأخيراً موقف هؤلاء الأخيرين من حرب النورمان ضد الأمبراطورية.

أما تاريخ (ميشيل السرياني) Michel Le Syrien فتتمثل أهميته فيما قدمه من مادة تاريخية عن الأحوال في كل من مصر والشام وبيزنطة على مدى فترة زمنية من تلك التي تناولها البحث بالدراسة، وكذلك الحال بالنسبة لكتاب (فولشر أف شارتر) Fulcher of charters تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، الذي تناول الأوضاع الاقتصادية لبعض مدن

(1) cf. Ostrogorsky, G. : History of the Byzantine State trans. by Toan Hussey, Oxford 1956 P. 311.

الشام أثناء كتابته عن خط سير الحملة، هذا فضلاً عما أورده من معلومات مفيدة عن العناصر النورمانية التي اشتركت فيها، وبداية سيرها من الغرب الأوربي، وهي معلومات ساعدتنا على تتبع دور الأمالفيين في هذه الحملة.

وبالإضافة إلى ذلك، فهناك عدد من المصادر والمراجع الغربية بلغات أوربية مختلفة، أفادت موضوع البحث من زوايا مختلفة، وهو ما يمكن تبينه من حواشي الكتاب.

وفي هذا الصدد لايمكن إغفال أهمية وثائق الجنيزا التي قام بنشرها وتقديمها في هيئة دراسات موضوعية المؤرخ س. د. جواتين S. D. Goitein في كتابه عن (مجتمع البحر المتوسط)، وفي أبحاث أخرى عن (تجارة الهند) و(المجتمعات التجارية لليهود)، فبعض من هذه الوثائق تضمن إشارات واضحة عن وصول التجار الأمالفيين ببضائعهم إلى موانيء مصر، أو مغادرة السفن الأمالفية لهذه الموانيء محملة بسلع الشرق. هذا فضلاً عن أن البعض الآخر من هذه الوثائق كان عبارة عن خطابات إلى الحكام أو كبار رجال الدولة فكشفت النقاب عما كانت عليه العلاقات التجارية بين أمالفي وحكام مصر والشام والتي قامت أساساً على توريد الأمالفيين لخشب بناء السفن، والأكثر من ذلك هو أن هذه الوثائق أسعفتنا بمادة تاريخية عن هذه العلاقات في فترات التزمت فيها المصادر الغربية والعربية الصمت إزاء هذا الموضوع كلية بسبب اهتمام المؤرخين من الطرفين الزائد بالظروف السياسية التي طغت في بعض الأحيان على كل الجوانب الأخرى خصوصاً في حالات الحروب الخارجية أو الفتن الداخلية.

أما المصادر العربية، فرغم أن موضوع الدراسة يتناول العلاقات بين أمالفي والمسلمين، مما قد يوحي بأنه على هذه المصادر تقع مهمة تقديم المادة التاريخية عن هذه العلاقات على الأقل من الجانب الإسلامي، فقد أغفلت هذه المصادر الإشارة إلى هذه العلاقات باستثناء حادثة واحدة هي دور الأمالفيين في مؤامرة حريق الأسطول الفاطمي عام(٩٩٦م)، وهي إشارة عابرة وكانت غامضة لدى البعض من المؤرخين العرب، ولم

تتجاوز سوى ذكر الأمالفيين كعنصر من بين العناصر التي وجه اليها الاتهام دون إعطاء أية تفاصيل عنهم أو حتى عن المكان الذي كانوا يقيمون فيه.

والتزام المصادر العربية الصمت كثيراً إزاء العلاقات الأمالفية الإسلامية، أمر زاد صعوبة المهمة أمام الباحث، فقد اضطره ذلك إلى البحث عن خيوط لهذه العلاقات في المصادر الغربية. وتنحصر أهمية هذه المصادر بالنسبة لموضوع البحث في أن كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين قدمت مادة وفيرة عن الأوضاع الاقتصادية في مصر والشام، ووصفاً لما اشتهرت به المدُن والموانيء الهامة من منتجات زراعية أو صناعات، أو أسواق لعبت دوراً كبيراً في التبادل التجاري بين أمالفي والمسلمين.

ومن ناحية أخرى فإن البعض منهم كالإدريسي وابن حوقل زاروا غرب أوروبا، وتركوا لنا وصفاً لما كانت عليه مدينة أمالفي ومدن الجنوب الإيطالي على أيامهم.

وبالإضافة إلى هؤلاء، فإن كتاب الحوليات والسير، وغيرهم من المؤرخين العرب تناولوا في كتاباتهم الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مصر والشام، وأيضاً العلاقات مع الروم (البيزنطيين) ومع الفرنجة (أهل الغرب الأوربي) بشكل عام، وهذه الكتابات حوت مادة تاريخية أفاد منها الباحث في تحديد الخطوط العامة للعلاقات بين أمالفي والمسلمين، واسترشد بها كمصدر لأحداث وقعت لدى الجانب الإسلامي أو الجانب البيزنطي، وأثرت على هذه العلاقات بشكل واضح.

الفصل الأول

أمالفي والمسلمون في مصر والشام
قبل عام ٩٩٦م/٣٨٥هـ

- الموقع الجغرافي لأمالفي وأهميته.
- الوضع السياسي والاقتصادي وأثره في تكوين الجمهورية وتشكيل علاقاتها بالعالم الخارجي.
- التطورات التاريخية التي مرت بها أمالفي حتى استقلالها عن دوقية نابلي، وآثارها.
- العلاقات الأمالفية الإسلامية في عهد الاستقلال قبل قيام الدولة الفاطمية.
- الأمالفيون والفاطميون في شمال إفريقية وجنوب إيطاليا.
- الفتح الفاطمي لمصر والشام وأهميته.

إذا كانت المؤثرات الجغرافية والمناخية قد تفاعلت بشكل كبير مع الأحداث التاريخية وشكلتها بالنسبة لشبه الجزيرة الإيطالية ككل(١)، فإن هذه المؤثرات لعبت دوراً كبيراً في التطورات التاريخية التي مر بها الجنوب الإيطالي ومدينة أمالفي بوجه خاص سواء من حيث قيام المراكز الحضرية والعمرانية وتحديد النشاط السكاني بها أو من حيث توجيه علاقات هذه المراكز بالعالم الخارجي. فالأمالفيون بحكم موقع مدينتهم الطبيعي على الساحل بين الصخور والبحر، وطبيعة أرضها الفقيرة مما ترتب عليه قلة مواردهم الزراعية(٢)، وجدوا البحر والنشاط التجاري مجالهم الوحيد لتعويض الافتقار إلى هذه الموارد، فما كان منهم إلا (الخروج بسرعة من بين أسوار المدينة والانتشار بتجارتهم في كافة أنحاء الشرق)(٣).

فقد وضعت أمالفي في نطاق مكاني فرض عليها هذا الوضع منذ تاريخها المبكر، ويمكن تحديد هذا النطاق بأنه شبه جزيرة صغيرة تنحصر بين خليجي نابلي وسالرنو، تكسوها قمم جبلية متصلة، لدرجة أنه لا وجود لطريق يمكن السير فيه، وعلى طرف خليج سالرنو تقع المدينة، بحيث كان الاقتراب منها من ناحية البر مستحيلاً تحول دونه الحواجز الجبلية، ولا يمكن الوصول إليها إلا من جهة البحر(٤). وكانت بذلك على اتصال مباشر ودائم بالقوى البحرية التي تسيطر على هذا البحر، أي بالدولة البيزنطية وبالعالم الإسلامي أكثر من اتصالها بقلب القارة الأوربية.

---

(1) cf. Bury, J. B. & Others (ed) The Cambridge Medieval History. Cambridge 1936, Vo1. 111 P. 178

وعن أهمية هذه المؤثرات بالتفصيل انظر :

فرانسيس وينوار : إيطاليا شعبها وأرضها، ترجمة د. محمد نظيف ط٢ القاهرة ١٩٦٦ ص٢٥ -٣٣.

(2) cf. Camera, M. : Memorie storico - diplomatiche dell Antica setta eduato d, Amalfi, Bologna 1972, P. 77.

Alaso : Jorga, N. : Points de-Vue sur l. Histoire du Commerce de I, orient Age, Paris 1924, P. 60.

(3) Camera, M. : op. cit jdem.

(4) f. Sismondi, De sismondi, J. C. L. I Historjes des Ropubbiques Italiennes du Mayen Age, Paris 1818, P. 220.

وتنبه إلى الموقع الجغرافي لأمالفي وأهميته بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة ممن زاروها وسجلوا مشاهداتهم، التي تشير إلى ما كانت عليه المدينة في زمن كل منهم.

فالمؤرخ وليم الصوري يحدد موقعها بقوله : «مدينة أمالفي تقع بين الجبال الشاهقة والبحر، وإلى الشرق منها على مسافة حوالي سبعة أميال من هذا البحر مدينة سالرنو النبيلة، وإلى الغرب تقع سورنتو ونابلي»(١).

ويصفها الإدريسي بقوله : «هي مدينة عامرة، يُرسى بها، متحصنة من جهة البر، سهلة من جهة البحر، إذا حوربت أخذت، وهي قديمة أزلية ذات سور جديد وأهلها بشر كثير مياسير، ومن مدينة ملف (أمالفي) إلى موقع وادي باذروا عشرة أميال وهو مستراح للأساطيل حسن، وعلى أعلى هذا الوادي مستراح يسمى باذروا ... وهو موضع حصين لا يتوصل إليه إلا من بابين، وفيه الماء والحطب، ومن هذا الوادي إلى سالرنو ميلان»(٢).

أما ابن حوقل النصيبي فيضيف إلى هذه الميزات، التي هيأت للأمالفيين أن يسلموا مما أحاق بالقارة من جراء أخطار البرابرة وأن يتفوقوا في مجال العمل البحري، ميزات أخرى بقوله عن أمالفي إنها :

«أخصب بلدان الأنكبرده (أي اللمباردين) وأنظفها، وأجلها أحوالاً، وأكثرها يساراً وأموالاً، وتتصل أرض ملف (أمالفي) بأرض نكبل (نابلي)، وهي مدينة صالحة الحال دون ملف في أكثر أحوالها»(٣).

---

(1) William of Tyre : A. history of Deeds Done Beyond the Sea New York 1943, Vo1. 11 P.242.

(٢) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (المقدمة وصفة البلاد التي هي الآن مملكة إيطاليا)، روما ١٨٧٨م، ص ٨٠م.

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض القسم الأول، ط٢ ، ليدن ١٩٣٨م، ص٢٠٢.

ويذكر الرحالة الأندلسي بنيامين التطيلي عن الأمالفيين أنهم :

«تجار، لا يشتغلون بالزراعة بل يبتاعون كل ما يحتاجونه بالمال، وهم يقيمون في الجبال الشاهقة والصخور السامقة، أراضيهم غنية بالفواكه، تكثر فيها الكروم وأشجار الزيتون، وهم أشداء لا قبل لأحد بمحاربتهم»(١).

وهكذا دفعت الطبيعة الأمالفيين إلى التجارة والبحر منذ وقت مبكر، بحيث لعبت دور الوساطة بين الشرق والغرب، وأصبحت مركزاً للحياة التجارية واقتصاد متطور واسع الانتشار، في عصر سادت فيه أوربا الغربية نظام دوميني مغلق(٢).

وساعدها على التقدم في هذا المجال ظروف أخرى ناجمة عن مزايا الموقع الجغرافي أيضاً، سواء بالنسبة لشبه الجزيرة الإيطالية أو الجنوب الإيطالي، حيث تقع أمالفي، أو بالنسبة للمدينة ذاتها، وتتمثل هذه الظروف في أن إيطاليا لم تصل إلى ذروة النظام الإقطاعي الذي ساد في البلدان الواقعة خلف جبال الإلب، بل ازدهر النشاطان الصناعي والتجاري فيها عن أية بقعة أخرى في غرب أوربا(٣)، وذلك لأن غزوات القوط واللمبارديين لم تدمر كل معالم الحياة الحضارية فيها، بل سرعان ما استأنفت المدن الإيطالية حياتها ومارست طبقة الصناع والتجار نشاطها دون انقطاع(٤)، ومن ثم فإن الروح الجمهورية، التي تخمّرت في كل مدينة، وأعطت كلاً منها نظماً حكيمة، وحكاماً متحمسين، ومواطنين ولعين بحب وطنهم

---

(١) رحلة بنيامين ، ترجمها عن الأصل العبري عزرا حداد ، طرا ، بغداد ١٩٤٥م

(2) cf. Berza, M. : Amalfi Preducale, in Ephemeris dacaroromana, Annuario della Scuola romana di Roma, 1938, V111, P. 371

(3) Pirenne, H. : History of Europe, London 1961, P. 112

أيضاً : سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، ج٢، القاهرة ١٩٨٠م. ص ٣٠٣.

(4) cf. Franesco Bertolini 8 others : The History of Italy ; the historians History of the world, London Vo1. 1xPP. 17-18.

Also : Thompson, J. W. : Economic and social History of the middle Ages, New York, 1959, Vo1. 1 P. 317.

وقادرين على القيام بانجازات ضخمة ، وجدت - هذه الروح - في إيطاليا النماذج التي أسهمت في تشكيلها(١).

وفضلاً عن ذلك فإن الأجزاء الإيطالية التي كانت تابعة لبيزنطة - ولو اسمياً - ومنها أمالفي، كانت تختلف عن مثيلاتها في الغرب الجرماني. ففيها سمات مجتمع قائم على أساس بيروقراطي مندمج مع نظام خاضع للاقتصاد (الطبيعي)، ولم يكن الاتصال بين تلك الأجزاء وبين الحكومة المركزية في القسطنطينية قوياً في يوم من الأيام، كما لم يكن بوسع بيزنطة إعادة البيروقراطية المدنية والعسكرية في إيطاليا إلى نفس المستوى الذي كانت عليه في الإمبراطورية الرومانية الشرقية نفسها(٢).

وقد تأثرت أمالفي - وكذلك البندقية - بالبيزنطيين في مجال التطور نحو (الاقتصاد النقدي)، الذي يمكنها من جمع الإيرادات التي تسمح بإقامة جهاز دائم، والعمل على صيانته، وتشييد استحكامات مزودة بحاميات مستديمة، وإعداد أسطول بحري يصحبه طاقم مدرب من البحارة.

ومن ثم كان لكل من المدينتين - أمالفي والبندقية - أسطول في وقت لم تستطع فيه الامبراطورية الغربية الاحتفاظ بسفينة واحدة في الخدمة، وقد ظل كل من الأسطول البحري والمدينة تحت رقابة حاكمها، طالما كان هذا الحاكم يؤدي دوراً بارزاً في التجارة، وبعد ذلك آلت السلطة الفعلية إلى أيدي كبار التجار(٣)، كما أن الأمالفيين من خلال هذه التبعية كانوا على اتصال دائم بالقسطنطينية التي كانت ذات مكانة بحرية

(1) cf. Francesco, B. : op. cit p. 23

(٢) هارتمان، ل. م. باراكلاف، ج الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية ص ٢٥.

(٣) المرجع السابق : ص ١٥٥ - ١٥٦.

أيضاً :

Francesco, B. : OP. Cit 1dem.

وصناعية كبرى في عالم البحر المتوسط، ومركزاً رئيسياً للتجارة الدولية(١).

وقد استفادت أمالفي كثيراً من تلك الظروف التي قيضت أو تهيأت لها، في سبيل تطورها في المجالين البحري والتجاري خصوصاً وأنها كانت بمنأى عن هجمات البرابرة، والحروب المضنية التي اندلعت في إيطاليا، وظلت سالمة وسط هذه العواصف مكرّسة كافة جهودها للصناعة والتجارة البحرية(٢).

وأدى ذلك بالتالي إلى اتساع نشاط الأمالفيين في حوض البحر المتوسط، فهامت سفنهم على صفحات هذا البحر في كل اتجاه، جنوباً حيث الشمال الإفريقي والاتصال بالمسلمين، الذين سيطروا أيضاً على أجزاء من إيطاليا الجنوبية وعلى جزر قريبة منهم للغاية، وشرقاً حيث الدولة البيزنطية التابعين لها وبلاد الشرق الأدنى الإسلامي، وأهمها مصر والشام، اللتان ضمتا أهم المراكز التجارية المعروفة في العالم آنذاك فضلاً عن أهميتهما من الناحية الدينية، وغرباً حيث بلاد الأندلس ثم شمالاً حيث المراكز الأوربية التي يصرّفون فيها ماجلبوه من تجارة الشرق، ثم يعودون ومعهم ماكان يحتاجه أهل المشرق من سلع الغرب(٣).

ولم تكن أمالفي مجرد المدينة التي تم تحديد موقعها الجغرافي - كما سبق - من كتابات الجغرافيين والرحالة، وإنما كانت بمثابة (دولة) أو (جمهورية) عاصمتها مدينة أمالفي، وتضم مجموعة من المدن أو القرى والحصون والقصور حول العاصمة على

---

(١) انظر أهمية تبعية أمالفي لبيزنطة بالتفصيل في موضع تال من هذا الفصل.

Carcj ; Luigi : Le Rep bbliche Marimare Amalfi, cosenza 1937, P.31

Also, Ernesto Buonouti (ed) : The Catholic E. cyclopedia London 1913, Vo1. 1. P.379.

(2) cf. Camera, M. : OP-Cit Sdem

(٣) انظر هذا البحث في مواضع متفرقة، وأيضاً :

Coni lio, G. : Amalfi e il suo Commercio nel Medicoevo, in Nouva Rivista Storica XXV111 - XX1X, 1944-1945. Passim.

Citarella, A. O. : Patterns in Medieval Trade : The Commerce of Amalfi Before the C Crusades, in Jowrnal of Economic History, XXV111, 1968. Passim.

سفوح الجبال التي تسد الناحية الغربية من خليج سالرنو(١).

هذا فضلاً عن بعض الجزر البحرية، وقد قدم لنا ليوجي شاركي بياناً بأسماء هذه المدن والجزر التي كانت تابعة لأمالفي، ومن المفيد إيرادها هنا لأنها تعد بمثابة قواعد أو مراكز لعبت الجمهورية من خلالها دوراً في علاقاتها مع المسلمين. وهذه المدن هي :

أتراني Atrani سكالا Scala ميئوري Minori مايوري Maiori ليتيري Lettere جراجنانو Jrafnano كتيارا Cetara ترامونتي Tramonti بيمونتي Piemonti بينو pino برايانو Praiano كونكا conca أجيرولا Agereal بوسيتانو Positane. أما الجزر فهي جزيرتي جالي Jalli وكابري Carbi. وتمتد حدود الجمهورية حتى نيسيدا Nisida القلعة التي بناها الأمالفيون، لذلك فالبعض يتعجب من إصرار معظم المؤرخين على استخدام تعبير أو لفظ (الجمهورية الصغيرة)، للإشارة إلى أمالفي، رغم هذا الاتساع المكاني، لكنه يقرر عدم أهمية الجدال حول هذا الموضوع من زاوية أن الازدهار الاقتصادي لأمالفي وأهميتها لم يكن راجعاً لعامل الاتساع، بل يرجع الفضل فيه إلى التوسع الملاحي المحدد بأربعة عناصر اقتصادية، تتمثل في : وفرة رأس المال، سهولة الاتصال البحري، توفر عدد كبير من السفن لديها ونزاهة وأمانة تجارها. ومن ناحية أخرى فإن مجال النشاط الأمالفي كان ممتداً بلا حدود في البحار والموانيء المضيفة، حيث تأكدت للأمالفيين في هذه المناطق سيادة تجارية مطلقة خالية من أي تناقض(٢).

وعن أصل الأمالفيين وكيفية استقرارهم في هذا المكان يذكر المؤرخ ميسموتشي أن سكان أمالفي كانوا يرددون أنهم خرجوا من مستعمرة رومانية، ويؤكدون أن أسلافهم كانوا مبعوثين من قبل الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧)، وأثناء رحلتهم غرقوا في راجوزة بعد أن أقاموا مدة طويلة في الليريا وعبروا الأدرياتيك، وأقاموا في مالفي في

(1) Pansa, Francesco ; Istoria dell Antica Republica d, Amalfi, Bologna 1724, Vo.1 1 P. 75
(2) cf. Carci, L. : OP. Cit PP 31 - 32.

بوليا التي أقاموا فيها مدة أطول ثم تركوها بحثاً عن بلد يمكنهم الإقامة فيه بحرية، وكان أن شيدوا على خليج سالرنو مدينة أعطوها اسم آخر مسكن لهم (ملفي). وقد أقام بعضهم ما بين الصخور والبحر واستفادوا من موقعهم هذا في ممارسة حرفتي الصيد والتجارة، بينما بقي بعضهم الآخر معلقاً (مثل جناح الصقر) في منتصف الجبل (ما بين سفحه وقمته)، وكان من الصعب رؤيتهم لأنهم كانوا موارين ما بين أشجار الزيتون التي كانت تكسو كل هذه المنطقة، والأفرع الذهبية لأشجار الموالح التي كانوا يحيطون بها منازلهم البيضاء، مما جعلها تسترعي النظر عن بعد وتشير إلى مسكن الأثرياء وأصحاب الحرف والصناعات(١).

ويدعم هذه الأخبار ما ذكره الإدريسي، إذ يشير إلى مدينتين على أنهما نواتا أصل واحد في التسمية ولا يميز بينهما إلا الموقع المكاني، فملفي التي أقام بها الأمالفيون في بداية أمرهم هي عند هذا الجغرافي (ملف البرية) مدينة جليلة المقدار كبيرة القطر، عامرة بالناس، كثيرة الكروم والأشجار والعمارات بينها وبين سالرنو اثنان وسبعون ميلاً(٢).

أما المقر الآخر الذي بحثوا عنه ليعيشوا حياة الحرية وأعطوه اسم آخر مسكن لهم، ووجدوه على خليج سالرنو، فهي عنده (ملف الساحلية) - السالفة الذكر -(٣)، ويحدد المؤرخ الإيطالي مياهي برزا المراحل التي مر بها الأمالفيون في حياتهم المبكرة، حيث يعتقد أنهم كانوا في البداية جماعة من الصيادين والمزارعين استولوا على هذا الإقليم منذ زمن قديم، ثم مروا من مرحلة الصيد والزراعة إلى مرحلة تنظيم حضري انتهوا بعدها إلى الحياة التجارية(٤).

---

(1) cf. Hixtorro des Republiques Italienses du Moyen Age pp. 240 - 241.

(٢) نزهة المشتاق، ص١٠١.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٠ وأيضاً انظر ما سبق.

(4) cf. Amalfi Preducale P. 371.

ومن الناحية السياسية كان لمدينة أمالفي إدارة قائمة على نظام التشريع الروماني، الذي تم الاحتفاظ به منذ أيام الجمهوريات اليونانية(١). وفي الفترة المبكرة من تاريخها أثناء تبعيتها لدوقية نابلي - أي من الفترة ما بين (٥٩٦ - ٨٣٩م) - كان دوق نابلي هو الذي يحدد الشخص الذي يتولى رئاسة أمالفي - ويذكر المؤرخ الإيطالي مياهي برزا أن اللقب الذي كان يحمله رئيس أمالفي في هذه الفترة لم يكن معروفاً مثلما كان الحال أيضاً بالنسبة لمدن أخرى تابعة للبيزنطيين، ويرجح أنه (كونتا)، كان يختار من بين الأرستقراطية المحلية مثلما حدث بعد ذلك(٢).

وقد تغير هذا الوضع بعد أن استقلت المدينة عن دوقية نابلي(٣)، فمنذ حدوث الاستقلال في سبتمبر (٨٣٩م) حتى عام (٨٥٩م) كان رئيس أمالفي يحمل لقب بريفيتوري prefetturi ويتم انتخابه سنوياً - أي أن مدة رئاسته كانت محددة بعام واحد(٤) - وبهذا الاختيار الحر أكد الأمالفيون حقوقهم وحياة سياسية حرة، سواء في الداخل أو الخارج(٥)، وينفي المؤرخ متى كاميرا Matthew Camera الاعتقاد بأن التغيّر السياسي الناجم عن حركة الاستقلال هذه كان ذا طابع جمهوري، فلم تكن حكومة أمالفي بعد عام ٨٣٩م - في نظره - (حكومة جمهورية شعبية)، وينتهي إلى أن مساواة الأشخاص كانت أمام الله والقانون(٦).

والواقع أنه في الفترة التي كان يتولى فيها رؤساء أمالفي منصبهم بالانتخاب بواسطة مواطني المدينة، كان المناخ الديمقراطي هو السائد في الدولة، خصوصاً وأن

(1) cf. Sismondi, J. C. L. : Op. Cit P.221.

(2) cf Amalfi Prod cale P. 365.

(٣) عن كيفية حصول أمالفي على استقلالها انظر هذا الفصل.

(4) cf. Carei, Luigi : op. Cit P.31

(5) cf. Berza, M. : Op. cit P. 405.

(6) cf. Memorie Storico - Diplomatiche dell Antica citta educato d, Amalfi, Vo1. 1 P.86.

العامة شاركوا طبقة النبلاء في هذا الاختيار(١)، كما كانوا هم أنفسهم الذين يحددون الضرائب التي عليهم - أيضاً - أن يقوموا بدفعها من أجل صالح مدينتهم(٢)، وفي عام (٨٥٩م) ظهر مع لقب بريفيتوري لقب دوق ومن ثم أطلق على الدولة اسم (دوقية) Ducato(٣)، ويذكر فرانشيسكو بانسا Francesco Pansa أن انتخابه أصبح منذ هذا التاريخ لمدى الحياة على يد العامة والنبلاء من مدينتي أمالفي وأتراني Atrani(٤)، لذلك ابتداء من ذلك الوقت نجد قائمة زمنية لرؤساء الجمهورية الأمالفية(٥)، وظل الوضع على هذه الحال حتى عام (٨٩٧م)، إذ أصبح البريفتوريون والدوقات غير خاضعين لمبدأ الانتخاب في تولي مناصبهم، وأضحى الحكم وراثياً، وكان يعاون هؤلاء الحكام أبناؤهم بلقب Giudici، وقد أدى غياب الطابع الانتخابي إلى حجب العامة وحرمانهم نهائياً من المشاركة في حياة الدولة وتقرير مصيرها، ومن ثم اكتسبت الدولة الطابع الأرستقراطي(٦)، وبدأ رئيس أمالفي يتخذ لنفسه كل الألقاب الممكنة، مثل حكام البندقية، وخصوصاً الألقاب المأخوذة عن بيزنطة، كما أفضى التحول إلى نظام الوراثة إلى قيام نظام الأسر الحاكمة، وهو الوضع الذي بقيت عليه أمالفي منذ القرن العاشر حتى خضوعها للسيادة النورمانية(٧). وقد كان للنبلاء نفوذ سياسي كبير من خلال السلطات المخولة لهم في المسائل البحرية، والتدخل في شئون الدولة الأخرى(٨). وذلك عن طريق

(1) cf. Carci , Luigi : Op. cit P. 32.

(٢) ويضيف أن حصيلة الضرائب العامة كانت ترسل جميعها تقريباً إلى القسطنطينية كرمز للتبعية.

(3) Carci, Liugi : Op. cit P. 405.

(4) ef. Istoria dell, Antica Repnbli a dc Amalfi I. P.37

(٥) انظر هذه القائمة بالجداول الملحقة ص

Also : Berzo, M. : Op. Cit P.405

Carci , Luigi : Op. at PP. 33 - 35.

(6) cf - Ibid PP. 31 - 32.

(7) cf. Jorga, N. : Op. cit P. 60.

Also : Berza; M. : Op. cit P. 365 N. 3, 427 seq.

(8) cf. Carci, Luigi : Op. cit P. 32.

وجودهم في المجلس Curia الذي كان يتولى إدارة الجمهورية، وكذلك القضاء إذ أنه في بعض الأحيان كان بمثابة محكمة، وبالتالي كان أعضاؤه قضاة وإداريين في آن واحد(١). وتكشف وثائق أمالفي عن وجود هذا المجلس رغم عدم تطور نظم المدينة كثيراً، وذلك بسبب أهمية النشاطين البحري والتجاري بالنسبة لها، ومن ثم كانت لوائح القانون البحري الأمالفي Tavola di Amalfi (٢) هي الأساس في مسار نظم الأمالفيين(٣).

على أية حال فإن هذا المجلس كانت مهامه تتمثل في تدبير أسلوب الإدارة (الروتين الإداري)، كما عهد إليه بالإشراف على النواحي المالية والتجارة، والصناعة، وإصدار الأوامر الخاصة بتنفيذ الأعمال، وتنظيم عملية تموين المدينة، وتجهيز وإعداد الجيش في حالة الحرب(٤).

ولم يقتصر دور النبلاء على مباشرة الأمور السياسية والإدارية في المدينة بل تعداه إلى ممارسة التجارة، الأمر الذي يؤكده بولفيتو Bolivito بقوله : «إن نبلاء أمالفي احتفظوا ويحتفظون بنفس الميزة والعادة التي سادت لدى وجهاء البندقية، وجنوا، وفلورنسا، الذين سمح لهم بحكم طبيعة بلادهم أن يزاولوا التجارة دون النظر إلى العلاقة بين سبق هذه النبالة وممارسة هذا العمل، حتى وإن مارسه أشخاص من ضروب أخرى»(٥).

وفيما يتعلق بنشاط الأمالفيين، فإنه بحكم الظروف التي هيأها للمدينة الموقع الجغرافي - السالف الذكر - يأتي العمل التجاري والصناعات التي تخدمه في المقدمة،

(١) انظر مزيداً من التفاصيل عن هذا المجلس وصلاحياته والظروف التي مر بها على مدار التاريخ الأمالفي في العصور الوسطى في بحث موثق أفرده لهذا الغرض

R- Filangieri di Candida : I Curialis, di Amalfi; in Bollettino del Bibliofilo, ed Alfonso Miola, Roma 1970. PP. 277 - 282.

(٢) انظر الملحق رقم ص وهو ترجمة لهذا القانون من اللاتينية إلى العربية.

(3) cf. Filan ieri; R-C-: Op. cit P. 279, 282.

(4) cf. Pirenne, H. : Med-Cities P. 59, 206.

(5) Mario del Trippo & ALfons OLeone : Amalfi Medioevale Na li 1977. PP. 83 - 84.

يليه النشاط البحري (صيد - صناعة سفن - نقل) وأخيراً الزراعة، وذلك لضيق الرقعة الزراعية في أمالفي بسبب انحصارها بين البحر والجبال مما سبب بالتالي قلة الموارد الزراعية اللازمة لاحتياجات الحياة بالنسبة للأمالفيين فاتجهوا إلى تعويض هذ النقص عن طريق تقدمهم في مجال العمليات التجارية والمبادلات مع دول البحر المتوسط وشمال أوروبا. ورغم ذلك فقد كان قسم من سكان المدينة - منذ تاريخها المبكر - مُلاكاً للأراضي، يعيشون على ما تنتجه هذه الأراضي من زراعات، أو على إيراداتها إذا كانت واقعة خارج حدود مدينتهم، ويؤكد ذلك العديد من الوثائق التي تضمنتها (مجموعة النصوص الدبلوماسية الأمالفية)، التي تشير إلى نقل ملكيات مزارع للزيتون أو الكروم، أو حقوق استغلال هذه المزارع من أشخاص أو هيئات إلى آخرين غيرهم، وهؤلاء كانوا لا ينتمون إلى طبقة واحدة بل كان منهم النبلاء وأحياناً رجال الدين(١).

وقد حظيت الزراعة بقدر كبير من الاهتمام من جانب الأمالفيين، الذين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الصعاب التي فرضتها عليهم الطبيعة في هذا المجال بل حرصوا على الاحتفاظ بطابع الأصالة الذي امتازت به الزراعة الأمالفية كخطوة أولى، ثم اتجهوا على مدى القرنين الحادي عشر والثاني عشر إلى استثمار قدر من رؤوس أموالهم في خدمة قطاع الزراعة، مع نمو تجارة أمالفي وازدهارها. فظهرت الطواحين وانتشرت بتنوع الانتاج الزراعي كبداية لفترة تصنيع لهذه المنتجات(٢)، كما تقدم الأمالفيون في عمليات تجهيز الأرض للزراعة مثل تكسير وتسوية الأجزاء البارزة في

(1) cf. Codice Diplomatico Amalfitano, cura di R. Filangieri Vol - 1, Nopoli 1917, dos Passim.
dos I-11 PP. 1-4.
dos XXXV PP. 52 - 54.
dos XXXVL1 PP. 56 - 57.
dos XL1 PP. 62 - 64.
dos LV111 PP. 22 - 93.
(2) cf. Del Treppo & Leone : Op. Cit P. 46.

أماكن كثيرة من النطاق الساحلي مما جعل المجال أمامهم متاحا لإدخال زراعة الكروم، إلى جانب ذلك النظام الرائع للري الذي واكب نمو وازدياد الأراضي المزروعة بالفاكهة(١) وبين كل من ماريودي تريبو والفونس ليون. أهداف التوسع في مجال الزراعة في عدة نقاط تؤكد ارتباط ذلك بخدمة العمل التجاري وتتلخص هذه النقاط في :

أ- استثمار الأرض بغرض الحصول على عائد أو ربح تجاري كان مرتبطاً بحركة السوق سواء المحلي أو العالمي، وإمكانية توفير هذه المنتجات التي يراد الحصول على دخل من ورائها عن طريق تدعيم الزراعة.

ب- نظراً لصعوبة الإنجاز بشكل سريع فإن تشجيع الزراعات الجديدة كان ناجماً عن فكرة تحسين المكان والظروف التي يعيشها المواطن.

جـ- فلاحة الأرض قامت كبديل مماثل لأشكال أخرى من الاستثمار في القطاعين التجاري والصناعي.

د- وأخيراً، بعد أن تحقق ربط الزراعة بالتجارة أصبح ممكنا الانتقال من أشكال وأحجام ونوعية الاستثمارات الزراعية إلى مرتبة التركيز على الأرباح التجارية(٢).

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن بحرية أمالفي وتجارتها نجد أن هناك شواهد اجتهد المؤرخون في الاستدلال بها على أن الأمالفيين بدأوا نشاطهم في هذا المضمار منذ فترة مبكرة سابقة على القرن التاسع الميلادي وتستخلص هذه الشواهد من عدة ثوابت تاريخية هي :

(١) حظ الأمالفيين في أنهم كانوا تابعين للسيادة البيزنطية التي كانت تمثل حضارة مادية قوية ومن ثم كانت هذه السيادة عاملاً مساعداً بقدر كبير على تطوير ونمو التجارة البحرية، وفي هذه التجارة التي أنعشتها بيزنطة وجد الأمالفيون

---

(1) Ibid P.39.

(2) cf. Amalfi Medioevale P.39.

أيضاً طريقهم(١).

(٢) تجارة إيطاليا الجنوبية وصقلية مع إفريقيا البيزنطية في القرن السابع الميلادي، لابد وأن أمالفي لعبت دوراً بارزاً فيها(٢)، بحكم تبعيتها من الناحية المكانية لطرفها الأول ومن الناحية السياسية للطرف الثاني، خصوصاً إذا ما وضعنا في الاعتبار أن الظروف الجغرافية فرضت على الأمالفيين الاتجاه إلى العمل التجاري منذ تاريخهم المبكر، وبالتالي فإنه من الممكن أن يُنسب أيضاً لبحرية أمالفي التجارية وصول كميات الأقمشة والسلع والأحجار الثمينة ذات الأصل الشرقي إلى روما، وهو ما أشير إليه في سير بابوات القرن الثامن الميلادي(٣).

(٣) أحداث قصة الأمالفيين السالفة الذكر، والكشف الذي عثر عليه في راجوزه عن مصير أسلافهم الذين غرقوا بسفينتهم، من المحتمل أن تكون هذه القصة نُسجت في القرن الثامن مع بداية العمل البحري للأمالفيين في الأدرياتيك في نفس القرن، وكذلك ما ذكر عن تجارة العبيد التي كان يقوم بها اغريقيو (كمبانيا) بالرغم من احتجاج البابا هادريان الأول (٧٧٢ ـ ٧٩٥م) في عام (٧٧٦م) في خطاب بعث به إلى شارلمان(٤)، فمن الممكن إلى حد كبير أن الأمالفيين كانوا ضمن اغريقيي كمبانيا هؤلاء.

على أية حال فإنه لكي نكون أمام حقائق دقيقة وواضحة نستطيع أن ندعم بها هذه الاستنتاجات لابد أن نتتبع الأخبار المؤكدة عن الأمالفيين والتي ـ لسوء الحظ ـ ليست متوفرة قبل القرن التاسع الميلادي، ففي عام (٨١٢م) كانت المرة الأولى التي نواجه فيها بأخبار عن بحرية أمالفي. ويذكر مياهي برزا أنه من غير الضروري التفكير بأن هذه

(1) cf. Manfroni : Storia della Marina Italiana, Vol. 1, Livorno 1899, PP. 21 - 22.

(2) cf. Amari, M. Diplomi Arabi dell Archivio Fiorentina : Firenze 1867, Introduz. Also : Manfroni : Op. cit P. 25.

(3) cf. Hegd. W. : Histoire du Commerce de levant an Mayen - Aye Leipeig 1886, Vol. 1PP 94 - 95.

(4) Codex Caralinus, M. G. H. EP. 111 P 585 cf M. Berza P.372.

البحرية كانت تستعمل في النواحي الدفاعية فقط بل استخدمت أيضاً في الأغراض التجارية(١)، بقدر يفوق بالطبع الجانب الأول كما تشهد بذلك علاقات أمالفي خلال هذا القرن سواء مع العرب أو البيزنطيين أو غرب أوروبا(٢)، ورغم ما يذكره البعض من أن دوقية نابلي كان لها تجارة مع مصر منذ عام (٧٢٢م) مما يوحي بأن الأمالفيين كان لهم دور في هذه التجارة بحكم تبعيتهم لهذه الدوقية(٣)، إلا أن أول تأكيد وثائقي للنشاط التجاري الأمالفي تضمنته بنود معاهدة في عام (٨٣٦م). سنتعرض لها بالتفصيل في موضع تال.. هذه المعاهدة بقيت بنودها من ١ ـ ١٩ كاملة، أما الباقي حتى البند رقم ٤٩ فلم يبق منها إلا عناوين هذه البنود وأحدها بعنوان : (بأي طريقة يجب أن ينفذ الأمالفيون تجارتهم).

وهذا العنوان يدل على أن هذا البند تناول وضع التجارة الأمالفية فضلاً عن إشارات تضمنتها البنود من ٣ ـ ١٣ عن أمالفي من خلال معالجة الأمور التجارية بصفة عامة(٤).

ثم تلت هذه المعاهدة مناسبات أخرى ظهر فيها الأمالفيون بحارة وتجاراً ذوي خبرة وكفاءة في هذا المجال بحيث أنيط بهم في تلك المناسبات الدور الذي يتناسب وامكاناتهم: ففي صيف عام (٨٣٨م) تم نقل آثار القديس بارثلميو Barthlemeo على يد بحارة من المدينة، وهذا العمل لا يمكن تفسيره من الناحيتين الإقليمية والدينية فحسب، بل الواقع أن الجزيرة التي وجدت بها هذه الآثار كانت قد تعرضت منذ

(1) cf. Berza, M. : Op. Cit PP 371 - 372.

(٢) انظر التطورات التي مرت بها هذه العلاقات في موضع تال من هذ الفصل.

3) cf. Loez, R. S.: L, Jupartanza del Mondo.
Islamico Nella Vita Economica, Europa; IN L, Occidente el, Islam.
ell, Alto Medioevo, spoleto 1965, Tome 1. P. 45.

(4) cf. Del Trappe & Leone : Op. Cit P. 8.
Also : Berza; M. : Op. cit PP. 372 - 373.

فترة قريبة قبل هذا التاريخ لغارات المسلمين أثناء تحركات السفن العربية في هذه المنطقة(١). وإقدام هؤلاء الأمالفيين الذين هم تجار في الأصل ومواطنون لا يزالون تابعين لدوقية نابلي حتى ذلك الوقت، على القيام برحلة من هذا القبيل، ثم نجاحهم في أدائها دون أية مخاطر لدليل على العلاقات الطيبة مع العرب(٢). كما أنه أثناء اتفاق أهل سالرنو مع الأمالفيين على القيام بمهمة إرجاع سيكونولف الذي كان مطروداً في تارنت (تارنتم) ليخلف سيكار في عرش بنفنتو بعد وفاة هذا الأخير، فإن مواطني أمالفي الذين قاموا بتنفيذ هذه المهمة دخلوا تارنت في هيئة تجار عاديين، وفضلاً عن ذلك فإن معرفتهم بمعالم هذه المدينة تبين أن هذه الرحلة لم تكن الأولى بالنسبة لهم بل ترددوا عليها في مناسبات سابقة، وبالتأكيد لأغراض تجارية(٣).

وهكذا سار الأمالفيون قدماً منذ تاريخهم المبكر في مجال العمل البحري ورسخت لديهم مقومات هذا العمل بشكل جعلهم قادرين على توسيع دائرة نشاطهم في أكثر من اتجاه، في وقت كان فيه الاتصال بين شواطىء البحر المتوسط المختلفة أمراً محفوفاً بالمصاعب والأخطار، ويكفي دليلاً على تقدمهم في هذا الصدد وخبرتهم الفائقة بأمور الملاحة تلك القوانين البحرية المعروفة بـ (لوائح أمالفي)، والتي تعد أول قانون إيطالي للملاحة وضعته هذه المدينة(٤).

وقد حدد ليوجي شاركي خصائص النشاط التجاري الأمالفي في عدة نقاط هامة،

---

(1) Amari, M. : Storia dei Muslmani di Sicilia, Tome 1P. 414.

وتضيف أماري أن ذلك حدث في الفترة التي كان قد بدأ منها الغزو العربي لصقلية، حيث اتجه المسلمون إلى بذل كل ما في وسعهم للاستيلاء على المناطق المحيطة.

(2) cf. Amari, M. : J d em.

(3) cf. Berza, M. : Op. cit P. 373.

(4) cf. Carci, Laifi : Op. cit P.79.

يذكر أنه استخلصها بعد فحصه وتمحيصه لعدد من الدراسات والوثائق التي تمس هذا الموضوع، وتتمثل هذه النقاط في :

(١) أن النشاط التجاري الأمالفي لم يمارس داخل نطاق الجمهورية، وإنما كان يزاول بعيداً عن الوطن في الموانيء والأسواق الأجنبية.

(٢) أن الحكومة كانت تقوم بحماية هذا النشاط سياسياً وعسكرياً.

(٣) أن شعب أمالفي كان يربط تجارته بالتجارة البيزنطية مع اعطائها طابعا جديدا له الأصالة الإيطالية الخالصة.

(٤) أن هذه التجارة كانت مُسيَّرة وفقاً لقانون إيطالي جديد سنّه الأمالفيون وطبق في جميع موانيء البحر المتوسط، مما ساعد على امتداد وانتشار الحضارة الإيطالية خارج حدودها بفضل هؤلاء التجار.

(٥) وأخيراً، فإن القوة البحرية الأمالفية لم تكن قصيرة العمر أو سريعة الزوال - كما كان يعتقد - لكنها دامت طويلاً حتى بعد انتهاء الحكم السياسي للأمالفيين. ولقد مارست هذه السيادة في العصور الوسطى بمظاهر ساطعة تدل على الرفاهية، والحياة الخصبة، وشعور رفيع بالانتماء إلى الوطن(١).

تلك هي الظروف الجغرافية والسياسية والاقتصادية التي أثرت في تكوين جمهورية أمالفي، وكان لها أثرها بالتالي في تشكيل علاقات الأمالفيين بالمسلمين في حوض البحر المتوسط بصفة عامة، ومسلمي مصر والشام - موضوع هذه الدراسة - بصفة خاصة، ومن السهل إدراك هذه المؤثرات في ثنايا معالجة موضوع هذه العلاقات، وهو أمر سيتعرض الباحث بالإشارة إليه في مواضع لعبت هذ الظروف دوراً كبيراً في تشكيل أحداثها أو تطوراتها.

---

(1) cf. Le Repabbliche Marinare Amalfi P.13.

ويرتبط بهذه النواحي التطورات التاريخية التي مر بها الأمالفيون حتى أقاموا هذه الجمهورية البحرية التجارية وجعلوا منها قوة لعبت دوراً في مجال العلاقات بين الشرق والغرب حققت من خلاله فوائد اقتصادية وسياسية بعيدة المدى مما أسهم كثيراً في ازدهارهم وتفوقهم البحري والتجاري، خصوصاً في سنوات الاستقلال وأصبحوا مشهورين بثرائهم لدى العالم المعاصر لهم آنذاك.

والبدايات التاريخية المبكرة لأمالفي غامضة بشكل معتم كما اكتنف هذا الغموض فترات مختلفة من تاريخها، لأسباب وتفسيرات تناولها الباحث بالتفصيل في دراسة المصادر(١)، فمن غير المعروف في أي وقت تم انشاء هذه المدينة؟ أو متى وصلت إليها المسيحية؟ لكن الافتراض معقول بأن ذلك حدث مبكراً إذا ما وضع في الاعتبار سهولة الاتصال مع الشرق خلال هذه الحقبة(٢) من ناحية، وتبوء أمالفي مكان الصدارة الدينية في نهاية القرن السادس الميلادي تحت زعامة البابا جريجوري الأول (٥٩٠ - ٦٠٤) من ناحية أخرى، ثم تقدم المدينة السريع الذي أحرزته في ذلك الوقت حضارياً ودينياً في مؤسساتها الناشئة من ناحية ثالثة(٣).

وأول أخبار تاريخية عن أمالفي كمدينة ومركز لأسقفية مسيحية تضمنها خطاب للبابا جريجوري الأول بعث به في يناير(٥٩٦)م إلى انتيميوس المندوب البابوي في كمبانيا يأمره فيه بأن يضم إلى صفوفهم أو يُعيِّن في الدير بريمن أسقف أمالفي الذي كان قد ترك مقر أسقفيته وهام متجولاً بسبب الخطر الناجم عن اللمبارديين في ذلك الوقت(٤). ويتضح في ثنايا هذا الخطاب أن أمالفي كانت تابعة للإمبراطور البيزنطي، الذي لا زالت أجزاء من الجنوب الإيطالي في حوزته بعد ضياع بعضها على

(١) انظر المقدمة .

2) cf. Ernesto Buonauiti : Op. cit P.379.

(3) c.f. Camera, M. : Op. cit Vol. 1 P.7

(4) cf. Berza, M. : Op. cit P. 352

أيدي اللمبارديين، خصوصاً بعد استيلاء هؤلاء الأخيرين على بنفنتو عام (٥٧٠)(١).

وتنفيذاً لرغبتهم في فتح الطريق أمامهم إلى البحر، تقدم هؤلاء اللمبارديون لمهاجمة نابلي في ديسمبر (٥٨١م)، ثم كرروا هجومهم عليها بمساعدة دوق سبوليتو في عام (٥٩٢م) ولم يحالفهم الحظ في كلتا المحاولتين، وقد هدد الخطر اللمباردي أمالفي في يناير (٥٩٦م) حينما استولى هؤلاء الغزاة على نوشير حيث أصبحت الحدود التي تقدموا إليها على مسافة قريبة (عشرين كيلومتراً تقريباً) من المدينة، وتمثل خطرهم أكثر من أن قصدهم إليها كان وشيكاً كمنفذ على البحر الذي يرغبون في الوصول إليه، إلا أنهم لم يتحقق لهم الاستيلاء على أمالفي لا في ذلك الوقت ولابعد ذلك، حيث تشير التواريخ وعلى مدى قرنين من الزمان إلى أن المدينة ظلت جزءاً من إيطاليا البيزنطية بصفة عامة وجزءاً من دوقية نابلي بشكل خاص(٢).

وخطاب آخر من البابا هادريان الأول في أواخر القرن الثامن يقدم لنا مرة أخرى أخباراً عن أمالفي من خلال استعراض هذا الخطاب للموقف بالنسبة للخطر اللمباردي، فقد تغير الوضع لصالح لمباردي بنفنتو الذين نقلوا عاصمتهم إلى سالرنو، التي كانوا قد استولوا عليها كي يحققوا لبلادهم نمواً وانتشاراً بحرياً وتجارياً كبيراً، لكن ذلك لم يكن كافياً للوصول إلى هذه الغاية، فعادوا إلى سياستهم القديمة الخاصة

= وقد أشار إلى أن نص خطاب البابا جريجوري الأول هذا ورد في أما عن الخطر اللمباردي المشار إليه فقد حدث بتدفق جموعهم على إيطاليا في ربيع ٥٦٨م تحت زعامة ملكهم اليوين Alioin حيث تركز الدفاع عن إيطاليا ضمن هذا الخطر في المدن المحصنة، بينما عملت الإمبراطورية على التصدي له من خلال إعادة تنظيم الإدارة الإمبراطورية في إيطاليا، على أساس إقامة نظام الدوقيات في روما وبيروجيا، ونابلي وكالابريا وليجوريا، بحيث تخضع كلها للنائب الإمبراطوري في رفنا،

انظر : سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١ ط٧ ص ١٤٠ -١٤٢.

(٢) عن تأسيس دوقية بنفنتو والمناقشات التي دارت حول ذلك انظر :

Schipa, M. : Una Data Controversa, in A. S. P. N., Vo1. X, 1885 PP. 750 - 760.

(3) cf. Berza, M. : Op. cit P. 352.

بالوصول إلى البحر والاستيلاء على خليجي سالرنو ونابلي، وذلك من خلال عدة هجمات قام بها أمير بنفنتو اركى الثاني (أخذ الدوق لقب أمير كأقصى تمثيل لحرية لمباردي) ضد دوقية نابلي ما بين عامي (٧٨٠ - ٧٨٥م) وأحد هذه الهجمات كان المقصود بها مدينة أمالفي، ويروي قصة هذا الهجوم خطاب هادريان السالف الذكر إلى شارلمان في عامي (٧٨١ - ٧٨٦م)، حيث يذكر أن الجيش البنفنتي أشعل النار في المناطق المجاورة للمدينة، وخرّب كل ما كان يقابله في طريقه، ثم شن هجومه بعد ذلك على أمالفي ذاتها(١).

لكن الأمالفيين وراء أسوار مدينتهم قاوموا الحصار حتى وصول المساعدات من دوق نابلي، وانتهى الأمر بانسحاب لمباردي بنفنتو، تاركين كثيرا من الموتى والأسرى، من بينهم نبلاء من أهالي نابلي(٢)، وبدت آثار معاناة الأمالفيين في بعض المواقف من جراء الهجمات العنيفة المتكررة، لكن الصلح الذي وقع بين أركى الثاني ودوقية نابلي حقق الهدوء للأمالفيين، و قد سجل البابا هادريان الأول في خطاب آخر إلى شارلمان عام (٧٨٨م) الاستعدادات التي أبداها كل من الأمالفيين والنابوليتان والسورنتيني قبل توقيع

(1) cf. Bognetti, Yian Piero : La Funzione di Amalfi
nella Formazione di un diritto comunede Medioevo
Estratte dal 1o Vo1. degh atti delle manjfestazione
Aulturali Pro Tabala d, Amalpha, Nopoli 1934 PP 10 -11.
Also: Berza, M. : Op. cit PP. 353 - 354.
Codex Caralinas ; no 78; M. g. H. E. 111 P. 610.
cf. Hadriani Ipapae Epistolae in I. H. Y. F. Tome V PP. 569 - 570.
(2) cf. Schipa, Mo : Il Mezzagiornod, Jtalia Prima Della
Monarchia, Bari 1923, P.39.
Also : Camera, M. : Op. cit Vo1 . P. 70.
Yay, J. : L, Jtalie Meridionale et I, Empire, Byzantin depuis I, avenement de Basile I er Jusqu
ala prise de Bari par les
Normands; Paris 1904. P. 33.

هذا الصلح من أجل تسديد ضربة للمبارد(١).

ثم بدأت الحرب من جديد أواخر القرن الثامن واستمرت حتى منتصف القرن التاسع، وقد ازدادت خطورة هذا الصراع في عهد أمارة سيكار (٨٣٢ - ٨٣٩م) ونتائجه في هذه المرة كان له أهميته الكبرى بالنسبة لأمالفي(٢)، فقد ورث هذا الأمير البنفنتي عن أبيه السياسة العدوانية ضد دوقية نابلي، وضرب عليها الحصار مرتين في عامي (٨٣٥ و٨٣٦م)، لكنه في المرة الثانية أجبر على طرح فكرة الاستيلاء على نابلي جانباً بعد أن علم بقدوم المساعدة التي أرسلها مسلمو بالرمو إلى دوق نابلي تلبية لاستغاثته بهم، وانتهى الأمر بتوقيع معاهدة سلام بين نابلي وأمير بنفنتو اللمباردي مدتها خمس سنوات في يوليو (٨٣٦م)، روعي في بنودها المصالح التجارية الأمالفية(٣).

ولم ينتظر سيكار حتى مرور هذه السنوات الخمس فقام بحملة أخرى ضد دوقية نابلي، وكانت ضربته هذه المرة موجهة بشكل مباشر ضد أمالفي وتحقق لها النجاح، فسقطت المدينة تحت سيطرته وبقيت تابعة للمباردي بنفنتو حتى وفاته(٤)، وكان بذلك أول أمير لمباردي نجح في إخضاع أمالفي لسلطانه، ويعزي المؤرخ سيسموندي ذلك النجاح

(1) Codes Caerolinuis, Op. cit n-8.
(2) cf. Berza, Mo. : Op. cit PP. 354 - 355.
Hadriani I Papae Epistolae in R. H. Y. F.
Tome V; Paris 1869 PP. 572 - 573.
(3) cf. Yay ; J.: Op. cit PP. 41 - 42.
Berza, M. : Op. cit PP. 354 - 355.
Dd Treppo & Leone : Op. Cit P.8.
(4) cf. Berza, M. : Op. cit P.356.
Also : Camera, M. : Op. cit Tome 1, P.78.
وتضيف تاريخ أعمال النورمان في فرنسا، أن هجمات سيكار ضد دوقية نابلي كانت رهيبة وقاسية مما اضطر مواطنيها إلى طلب العون أيضاً من معاصريهم الفرنجة.
cf - Ohronico de gestes Normannorumin francia dano Receil des Historiens des yaules et de la France Tome V11 N. E. Paris 1870. P. 205.

إلى الانقسام الذي ساد أمالفي بسبب المنازعات الداخلية مما أضعفها وجعلها لا تصمد طويلاً في المقاومة أمام جيوش أمير بنفنتو(١). ويضيف بعض المؤرخين إلى رغبة البنفنتيين في الحصول على منفذ على البحر كسبب لإعلان الحرب على أمالفي سبباً آخر هو أن سيكار سواء لإرضاء نزعاته الشخصية أو للتكفير عن سيئاته تولد لديه حرص شديد على جمع آثار القديسين كي يزين بها كاتدرائية بنفنتو، فبعد أن أجبر النابوليتان على التخلي له عن بقايا القديس جانفيير Janvier ونهب من جزر ليباري Lipari آثار القديس بارثلميو، أعلن الحرب على مدينة أمالفي للاستيلاء على آثار القديسة تريفومينا Santa Triphomena راعية المدينة(٢).

على أية حال فإن سيكار بعد أن أصبح سيداً على أمالفي نهب كل ما هو مقدس أو ثمين، كما أجبر الأمالفيين على أن يتبعوه إلى سالرنو حتى يختلطوا ويذوبوا في شعبه إلى الأبد عن طريق التزاوج مع اللمباردين، وأعطاهم نفس حقوق مواطنيه(٣)، لكن سياسته في هذا الصدد لم يقدر لها النجاح إذ سرعان ما اغتيل على يد أعدائه في عام (٨٣٩م)، وأعلن أهالي مدينة بنفنت رادالشيز Radalchise خازنه خلفاً له(٤). فانتهز الأمالفيون الذين كان سيكار قد أخذهم معه لتحقيق عنصر الاختلاط والمزاوجة فرصة انشغال أهالي سالرنو بموسم الحصاد وبالوضع الناجم عن وفاة سيكار وأسرعوا إلى الميناء، وحمّلوا السفن التي وجدوها راسية أمامهم بآثار المعابد والقصور التي عثروا عليها في طريقهم لتعويض النهب الذي حاق بمدينتهم أمالفي، التي عندما وصلوا إليها

---

(1) cf. Histoire des Republiques Jtaliens du Mayen Age PP. 233 -234.

(2) cf. Sismondi, J. C. L. ; Op. Cit Jdem.

Also : Berza, M. : Op. cit P.357.

Codice Diplomatico Amalfitano, 1 doc. no XXX1 PP. 46 -47 & Parisim.

(3) Sis mondi, J. C. L. : Op- Cit P. 234.

Also : Berza, M. : Op. cit Jdem.

(4) Bernard the Monk : A Journey to the Holy Places and Babylon, cf. John Wilinson : Jerusalim.

رفعوا عنها التحصينات الحربية التي كان أمير بنفنت قد وضعها(١). وبموت سيكار في عام ٨٣٩م تحرر أهالي أمالفي من التبعية للمبارد وكذلك من تبعيتهم لدوقية نابلي في آن واحد، وبدأوا يحكمون أنفسهم كجمهورية مستقلة(٢).

ففي الفترة ما بين ٥٩٦ ـ ٨٣٩م كان يشار في المصادر التاريخية المختلفة إلى الأمالفيين على أنهم تابعون لدوقية نابلي، على سبيل المثال في خطابات البابا هادريان الأول سالفة الذكر كانوا يعرفون بأنهم (أمالفيو دوقية نابلي) Amaltitoni Ducati Nea-politap (٣) وقد كان الخطر اللمباردي منشأ هذه التبعية، إذ جعل الأمالفيين في حاجة دائمة إلى المساعدة أو النجدات الحربية التي كانت تأتيهم بين الحين والآخر من دوق نابلي لإنقاذهم من هذا الخطر(٤).

وظهرت شواهد هذه التبعية في مناسبات عدة، نذكر منها معاهدة الرابع من يوليو (٨٣٦م) بين دوق نابلي وأمير بنفنت، حيث تضمنت هذه المعاهدة بنوداً خاصة بالأمالفيين وتجارتهم رغم عدم اشتراك هؤلاء الأخرين في توقيع الاتفاق مما يؤكد أيضاً أهمية أمالفي بالنسبة لدوقية نابلي(٥)، كما كان دوق نابلي يضم إلى قيادته فرقة من الأمالفيين في حالة الحرب ويتوسط للمدينة لدى النائب الامبراطوري من أجل الدفاع عنها في وقت الخطر(٦).

على أية حال انتهت مقومات هذه التبعية لدوقية نابلي باغتيال سيكار عام (٨٣٩م)، حيث وقعت إمارته فريسة للحروب الأهلية والانقسامات، وأسهم الأمالفيون بدور في هذه

---

(1) cf. Xismondi; J. C. L. : Op. cit P.235.

(2) cf. Jbid Jdem.

(3) Codex Carolinns op cet P 610

وهذا اللقب تمسك بذكره المؤرخ متى كاميرا في تاريخه لأمالفي في الفترة السابقة على تاريخ استقلالها انظر:

Mamaric Storico = Diplomatiche D. Amalfi, 1 P. 70.

(4) Y. Berza, M. : 10 P. cit P.364.

(5) Berza, M. : Op. cit P.364 , 372.

(6) cf. Ibid P. 365.

الخلافات من خلال إنضمامهم إلى جانب أهالي سالرنو لمساعدة طرف ضد الآخر(١).

وقد ساعدت هذه الأوضاع على زوال الخطر اللمباردي بالنسبة للجنوب الإيطالي، وكان على أمالفي أن تتفرغ لشئونها الخاصة وتطوير تجارتها وبحريتها، وهو ما استطاعت تحقيقه في غضون سني عصور الاستقلال(٢).

تلك هي الخطوط التاريخية الرئيسة التي أمكننا استخلاصها من التواريخ المختلفة المعاصرة والحديثة عن ظهور أمالفي على مسرح الأحداث ومقومات وجودها كمدينة حتى استقلالها عن دوقية نابلي عام ٨٣٩م، وهي ضرورية للتعريف بالجمهورية التي هي أحد طرفي العلاقات موضوع البحث، وأيضاً لإلقاء الضوء على هذه المقومات التي كانت لدى الأمالفيين وتطورت عبر الزمن لتجعل منهم قوة بحرية تجارية تمخر عباب البحر المتوسط في اتجاهات مختلفة، وتقيم علاقات على مستوى عال مع أكبر قوتين فيه هما : المسلمون والدولة البيزنطية، على أساس من مصلحة الجمهورية الخاصة ،دون أن تغرق نفسها في الأوضاع السياسية القائمة بين القوتين، وإن كانت مصالحها التجارية قد تأثرت في بعض الأحيان من جراء ذلك كثيراً.

وفضلاً عن ذلك فإن الظروف التي واكبت تطور نشاط الأمالفيين في حوض البحر المتوسط كان لها أثرها في تشكيل علاقات الجمهورية الأمالفية مع العالم الخارجي سواء البيزنطي أو الإسلامي أو الأوربي الغربي.

فالأوضاع التي سادت غرب أوربا كان لها أثرها في تطور أمالفي وظهورها كقوة بحرية وتجارية منتعشة منذ وقت مبكر، كما هيأت للأمالفيين فرصة الاستفادة من ظروف هذه المناطق كمصادر منتجة لسلع هامة تحتاجها مناطق أخرى، ثم الوقوف على ما ينقصها من الضروريات لتدبيرها من مواقع انتاجها التي تتعامل أمالفي معها.

(1) Siomondi, J. C. L. : Op cit PP.234 - 238.
(2) cf. Berza, M. : Op. cit P.356.
Also : Camera, M. : Op. cit Vo P. 1 P.77.

وكذلك كان الحال بالنسبة للعالم الإسلامي، فانقسامه إلى خلافتين متنافستين (العباسية والفاطمية)، وقيام ممالك مستقلة في جهات متفرقة منه أدى إلى تنوع سياسة هذه الدول الإسلامية في موقفها أو علاقاتها بالأجانب ومنهم الأمالفيون، وهذا الاختلاف كان له أثره في إفساح المجال لهؤلاء التجار ومن على شاكلتهم كي يستفيدوا من كل ما ينجم عن هذا الوضع لصالحهم الخاص في مجال علاقاتهم مع (دار الإسلام) وخصوصاً في مصر والشام اللتين بقيتا طوال الفترة (موضوع البحث) تابعتين للخلافة الفاطمية الشيعية المناهضة للخلافة العباسية السنية، والتي امتازت باتباعها سياسة متحررة إزاء الأجانب، وتشجيع كافة النواحي التي تخدم الجانب الاقتصادي، وهذا بالتالي كان له أثر كبير في تطور العلاقات الأمالفية مع مسلمي مصر والشام وهو ما يمكن تلمسه في ثنايا هذا البحث.

وبالنسبة للدولة البيزنطية كان لها دور هي الأخرى في مسار هذه العلاقات ويتمثل هذا الدور من خلال عدة نقاط :

١- تبعية أمالفي لبيزنطة منذ نجاح جستنيان في إرجاع هذه المناطق إلى حوزة الإمبراطورية، وقد توقفت جدوى هذه التبعية على حال بيزنطة من حيث القوة والضعف، فكان الأباطرة الأقوياء يتدخلون في تحديد سياسة أمالفي وغيرها من المدن التابعة لهم في شبه الجزيرة الإيطالية إزاء المسلمين وخصوصاً هؤلاء الذين على اتصال سياسي وحضاري بهم في مصر والشام.

٢- حِرْصُ الإمالفيين على جعل هذه التبعية موئلاً للاستفادة من وضع التجارة البيزنطية التي بلغت ذروتها إبّان القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وأيضاً من مركز القسطنطينية التجاري بين الشرق والغرب، خصوصاً وأنهم كالبنادقة تمتعوا بامتيازات كان من الصعب حصولهم عليها إلا من خلال هذه التبعية.

٣- احتفاظ بيزنطة بالسيادة على بعض المدن الهامة في شمال الشام كأنطاكية

وحلب ـ لفترة من الوقت ـ أتاح الفرصة لأمالفي ـ كتابع أو حليف تجاري لبيزنطة ـ أن تدعم مركزها التجاري في هذه المدن وتقيم بها منشآت تخدم هذا الغرض ولعبت دوراً هاماً في العلاقات مع المسلمين حكام مصر والشام في هذه الفترة وأيضاً بعد أن استردها المسلمون، وكذلك في ظل الأحوال التي كانت عليها خلال العصر الصليبي في زمن لاحق.

٤ـ في ظل هذا الوضع فإن الأمالفيين استفادوا أيضاً من معاهدات الصلح التي كانت توقع بين الدولة البيزنطية والمسلمين والتي كانت تتضمن بنوداً تحدد أسس التعامل بين الطرفين في المسائل التجارية أو تقدم امتيازات للرعايا البيزنطيين، فهذه وتلك كانت تزيد من معاملاتهم مع المسلمين ـ سواء كوسطاء تجاريين أو كممثلين للتجارة البيزنطية. هذا فضلاً عن تمتعهم بالحماية البيزنطية في عصر نشطت فيه بحرية بيزنطة في حوض البحر المتوسط، مما أمّن جانبهم في الحركة والتعامل مع موانيء هذا البحر الهامة.

ومما تجدر ملاحظته أن الأمالفيين ـ كتجار ـ إذا كانوا قد حرصوا على الاستفادة من مزايا تبعيتهم لبيزنطة، فإنهم كثيراً ما تخلوا عن سياسة الدولة البيزنطية إذا وجدوا فيها إضرارا بمصالحهم الخاصة، ومثال ذلك (التحريم) الذي فرضه بعض أباطرة بيزنطة على التعامل في بعض السلع الاستراتيجية الهامة كالخشب والحديد أو تحريم التعامل كلية مع المسلمين في أوقات الحرب القائمة بين الطرفين الإسلامي والبيزنطي، فإن أمالفي ـ وكذلك البندقية ـ كانت لا تلتزم بهذه القيود وتستمر في التعامل مع المسلمين سواء سراً خوفاً على فقدان الامتيازات المخصصة لهم في الإمبراطورية، أو بشكل سافر إذا ما وجدوا أن الظروف مهيأة أمامهم لأن يضربوا عرض الحائط بنداءات الإمبراطور البيزنطي، مثلما فعلوا في أكثر من مناسبة لنداءات البابوية الخاصة بإيقاف تجارة العبيد.

وهكذا غدا من الضروري التعرض للظروف السياسية والاقتصادية الخاصة بكل من :

غرب أوربا وخاصة إيطاليا الجنوبية وأمالفي، والدولة البيزنطية، والمسلمين من الزاوية التي أثرت فيها هذه الظروف في علاقات أمالفي بمسلمي مصر والشام.

فعندما بدأ الإسلام يتوسع ويمتد خارج الجزيرة العربية وعندما وصلت طلائع جيوشه إلى حدود الدولة البيزنطية، وجدت نفسها أمام عالم روماني لاتيني زادته المسيحية سعة وعمقاً وإيغالاً في الطابع اللاتيني وحضارته، ولم تكن الدولة الرومانية ذات عناية خاصة بالبحرية التجارية ولم تكن الأجزاء الغربية تنتج محصولات أو مصنوعات تصدر إلى الخارج في كميات تستدعي العناية والتنظيم، بل كانت إيطاليا الرومانية تعتمد على ما يرد إليها من الخارج من المحصولات والمصنوعات اعتماداً عظيماً ومن ثم كان معظم اهتمام أهل موانيها بإعداد ما يستطيعون المبادلة عليه من الأشياء - كالخشب والحديد والقصدير والفراء - ليحمله التجار المقبلون من بعيد مقابل ما يأتون به من قمح وزيت ونسيج وعطور وبخور وبردي، وكلها منتجات إفريقية أو شرقية، كان تجار المشرق يحملونها إلى ثغور الغرب وقد قام بعبء هذه الملاحة البحرية أهل سواحل الشام، وهم المعروفون في نصوص ذلك العصر بالسوريين، فقد كانوا حتى منتصف القرن السابع الميلادي حملة النصيب الأكبر من عبء التجارة في البحر المتوسط، وكانت لهم جاليات متاجرة في كل موانيء هذا البحر وفي الكثير من البلاد الهامة في الداخل، وشاركهم في هذه التجارة البحرية البيزنطيون واليهود وجماعات من الأفارقة أسمتهم المراجع (تجار ما وراء البحر) Transmarini Negocia tares، وبفضل هذه العناصر ظل النشاط التجاري قائماً في البحر الأبيض إلى نهاية القرن السابع الميلادي(١).

وقد اتجهت الدولة الإسلامية نحو البحر المتوسط غداة قيامها بعد أن وضعت قدما ثابتة في سوريا ومصر وسيطرت على موانيهما، التي كانت أحفل ثغور هذا البحر

(١) حسين مؤنس (دكتور) المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الرابع، العدد الأول مايو ١٩٥١م ص. ٥٠.

بالتجارة والسفن وأكثر حيوية ونشاطاً ودخل في خدمة المسلمين هذا الشعب الذي كان يجمع بين يديه زمام جانب عظيم من النشاط التجاري فيه(١)، وانتهى هذا الاتجاه إلى شواطئه بتحول الدولة الإسلامية إلى دولة بحر متوسط طوال العصر الأموي(٢).

وتغيّرت هذه الحال بانتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين إذا انتقلت الدولة الإسلامية من عالم البحر المتوسط إلى عالم آسيوي يختلف عنه من كل ناحية، وأهملت الدولة أملاكها الغربية فانفصل الأندلس والمغرب الأقصى، وتنازلت عن المغرب الأوسط وإفريقية لبني الأغلب لقاء قدر معين من المال، وعهدت بأمور مصر والشام إلى ولاة مهمتهم الوحيدة هي الالتزام بأداء المال المستحق على البلدين، وأهملت شواطىء الشام واقترب البيزنطيون من حدودها الشمالية شيئاً فشيئاً وانتهى الأمر باستيلائهم - كما سنرى - على أنطاكية وطرابلس، وعاد جانب كبير من تجارة الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط إلى أيدي البيزنطيين بالتدريج(٣).

أما المغرب فقد خفت يد المشرق عليه، فانفتح باب البحر أمام أهل إفريقية من جديد، واشتد النشاط على سواحل إفريقية، ذلك الاشتداد الذي بلغ ذروته في فتح صقلية ومغازاة جنوبي إيطاليا(٤). وفي هذا النشاط ظهر دور الأغالبة الذي يعد اللبنات الأولى لعلاقاتهم مع المسلمين، والأساس الذي وضعوه لأنفسهم في مسيرة هذه العلاقات وراعوا فيه مصالحهم التجارية من ناحية، ثم واجبهم إزاء الكنيسة من ناحية أخرى(٥).

وفي مجال هذه العلاقات الأولى بزغ اسم أبوالأغلب إبراهيم بن عبدالله ابن الأغلب، الذي انحصرت أعماله الأولى في نطاق البحر، فسيّر سفائنه تجوب عرض البحار

(١) المرجع السابق : ص٦٤ - ٦٥.
(٢) المرجع السابق : ص٦٥ - ٦٩.
(٣) المرجع السابق ص٨٥ - ٨٦.
(٤) المرجع السابق :

(5) cf. Berza, M. : Op. cit Passim.

المحيطة بجزيرة صقلية توطئة للإغارة على البلاد الإيطالية، ومحاولة فتحها لمهاجمة القارة الأوروبية من الوسط، وبدأ مشروعه هذا بإرسال أسطول إلى كالابريا (قلورية) في عام (٨٣٧م/٢٢٣هـ) حيث نزل الجند الإسلامي في جنوب إيطاليا وسجل صفحة من أغرب صفحات التاريخ الإسلامي بالأرض الأوروبية(١).

وقد سنحت الفرصة لابن الأغلب لتحقيق غرضه والتدخل في سياسة البلاد الإيطالية، حينما أرسل أندرو دوق نابلي الرسل إلى بالرمو (بالرمة) يستنجد به ضد أمير بنفنت للمباردي فأنجدهم أبو الأغلب بفرقة من الجند الإسلامي اشتركت مع قوات نابلي وإمالفي في محاربة إمارة بنفنت، مما اضطر هذه الإمارة الأخيرة إلى أن تجنح للسلم وتقبل شروط الصلح، وأصبح المسلمون يومئذ حلفاء لمملكة نابلي(٢)، ورأى رجال هذه المملكة ومن بينهم الأمالفيون ما للمسلمين من قيمة في ميدان العلم والعمران على مهارتهم في ميدان الحرب والطعان، فانفتحت في وجوه الرواد المسلمين أبواب هذه المملكة وهم يحملون معهم رايات المدنية والعلوم والفنون، وكان ذلك هو حجر الأساس في تكوين عصر النهضة بأوروبا(٣).

وهذه العلاقات الطيبة مرجعها في نظر المؤرخ مياهي برزا أن الإمالفيين لعبوا دوراً في نهاية القرن الثامن في تجارة العبيد مع العرب(٤). هذه التجارة التي بقيت قائمة بتدخل الإمالفيين فيها، الأمر الذي تؤكده بنود معاهدة عام ٨٣٦م(٥).

على أية حال تكررت فرص التدخل في جنوب إيطاليا بالنسبة للمسلمين فحينما

---

(١) لوط، فرديناند : غارات البربر، ترجمة أحمد توفيق المدني في كتابه المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، ص ١٤٥.

(2) cf. Musra, Yiosie : L, Dmirato di Bari 847 - 871. Bari 1978, P. 16.

أيضاً : فرديناند لوط : غارات البربر، ف٢ ترجمة أحمد توفيق المدني المرجع السابق ص١٤٥.

(٣) أحمد توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص ٧١ - ٧٢.

(4) Ama fi Pred. cale P. 373.

(5) cf. Capitulare Sicrdi Princip is cum Andrea Duce Neapolis, in B. Copasso : Moumenta ad Neapolitani Ducatus Histariam Pertinentia, Vo1. 11, Napoli 1892.

انقسمت المملكة اللمباردية بعد اغتيال سيكار إلى إمارتي بنفت وسالرنو اتجه كل من المتصارعين إلى الاستعانة بهم ضد خصمه، ومن هذا القبيل استنجاد الأمير رادالشيز البنيفاتي بالمسلمين ضد خصمه الأمير سيكونولف السالرني(١).

وفي هذا الصراع بين الأميرين اللمبارديين لا نجد الأمالفيين في صفوف إمارة سالرنو، بل على النقيض من ذلك هناك أخبار تشير إلى أنهم كان لهم في هذه الفترة علاقات خاصة مع أمير بنفنتو حتى نهاية عام (٨٤٠م)(٢)، ووجود علاقات من هذا القبيل للمدينة مع الأمير الذي استنجد بالمسلمين وانعدامها بالنسبة لخصمه لدليل يضاف إلى غيره من الأدلة على أن الأمالفيين حرصوا منذ بداية اتصالهم بالمسلمين على قيام نوع من العلاقات الطيبة معهم يضمن لهم الحفاظ على مصالحهم التجارية في الموانيء والمدن الإسلامية الهامة. هذا في الوقت الذي حرصوا فيه أيضاً على الاحتفاظ بهذا النوع من العلاقات، مع جميع الأطراف ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، مما يوفر لهم حرية الحركة في جميع الأماكن لممارسة أعمال التجارة وبشكل كانوا فيه محببين وذوو حظوة لدى حكام هذه البلاد، فعدم انضمام الأمالفيين في صفوف القتال إلى جانب أمير ضد الآخر جعل الأميرين (رادالشيز وسيكونولف) ينظران إليهم على أنهم (أصدقاء) دائمين وتم التعبير عن هذا الشعور أثناء عودة آثار القديسة تروفيمينا (راعية أمالفي) في صيف عام (٨٤٠م) من بنفنت إلى أمالفي حيث مرت بسالرنو واستقبلت بتكريم مهيب من جانب الاكليركيين والعامة في هذه المدينة ووصلوا بها إلى البحر، حيث حملت في سفينة إلى أمالفي، وهناك زينت شوارع المدينة بأقمشة من الحرير لا يمكن للأمالفيين الحصول عليها إلا من العرب أو البيزنطيين(٣).

= PP. 147 - 156 cf. musca Giosue 10 P. cit Jdem.

أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ١٤٦ وأيضاً :

(1) Ilid Idem
(2) Berza, M. : Op. cit P.377.
(3) cf. Berza, M. : Op. cit P.374, n.I, 378.

وفي ظروف حرجة أمليت على الأمالفيين، أو أن مصالحهم اقتضت ذلك، كان عليهم أن ينخرطوا في صراع أو حرب ضد المسلمين وحدث ذلك في مناسبات معدودة عندما اشتد الخطر الإسلامي في الفترة ما بين عامي (٨٤٠ - ٨٤٦م / ٢٢٥ - ٢٣١هـ) وهدد إقليم نابلي وتارنت وباري، وحقق المسلمون انتصاراً على الأسطول البيزنطي عام (٨٤٥م/٢٣٠هـ) ثم استمروا في توجيه ضربات قوية ضد الشاطيء الإيطالي(١)، ورغم ذلك فإنه في وسط هذه المخاطر نجد أن النابوليتان والأمالفيين سرعان ما يغيرون موقفهم ويتحالفون مع المسلمين في حصار مسينا مما أدى إلى سقوطها في عام (٨٤٣م/٢٢٩هـ)(٢). ثم يعودون في مواجهة خطر المسلمين الذي عم السواحل الإيطالية إلى الاستجابة لنداء سرجيو دوق نابلي، الذي عمد إلى تجميع قوات الجنوب لمجابهة المسلمين، وانضم إلى الأمالفيين في هذا التحالف الجايتان والسورنيتي مما اضطر المسلمين، إلى الانسحاب من بونزا وليكوسا وأنقذ ساحل كمبانيا من هذا الهجوم(٣).

ولم يدم الهدوء طويلاً لأن المسلمين الذين هزموا على يد دوق نابلي وحلفائه الأمالفيين والجايتان والسورنتيني، عادوا مرة أخرى بتعزيزات إلى البحر التيراني قاصدين روما هذه المرة، فوصلوا أوستي في الثالث والعشرين من أغسطس (٨٤٦م/٢٥ ذي الحجة ٢٣١هـ)، حيث انضم إليهم هناك اسطول عربي آخر من إفريقيا(٤)، وعندما وجدوا المدينة محصنة أغاروا على ضواحيها وعاثوا فيها نهباً وتخريباً، وتعرض لذلك التخريب كنيستي القديس بطرس والقديس بولس، اللتين كانتا تقعان خارج أسوار المدينة،

(1) cf. Amari, M. Op. cit tome I PP 448 seq & 492 seq.

(2) cf. Muśca, Giosue : Op, cit P. 17

(3) cf. Amari, M. Op-cit tome I PP. 504 - 508.

Yay, J, Op. cit PP. 55 - 56.

Muser, Yiosue : Op. cit P. 17

(4) y. Vita sergi 11 , c. XI ved-Duchesma 11 P. 99 M-Berza ap . 379, Amari, M. 10P cit 1 P. 506.

ووصلوا بعد ذلك إلى جاديليانو وإلى ضواحي مونت كاسينو حيث حال من تقدمهم ارتفاع منسوب المياه في أحد الأنهار فلم يتمكنوا من عبوره(١)، فاتجهوا على الفور إلى حصار مدينة جابيتا (غطة) في سبتمبر من نفس العام (المحرم ٢٣٢هـ)(٢)، فتدخلت القوات البحرية لكل من نابلي وأمالفي لإنقاذ المدينة بقيادة قيصر الأول ابن الدوق سرجيو الذي تقدم واحتل الميناء بأسطوله الأمالفي النابلي، ليحول دون وصول إمدادات لجيش المسلمين المحاصرين للمدينة، بينما نزلت فرق أمالفية نابوليتانية إلى البر لتشتبك مع القوات الإسلامية من أجل إنقاذ الجيش الفرنجي(٣)، ويقرر المؤرخ مباهي برزا أنه لولا تدخل بحريتي نابلي وأمالفي ضد هذا الهجوم الإسلامي لتمكن المسلمون من إنشاء قاعدة أخرى لهم في هذه المنطقة مثلما حدث في كل من تارنتي وباري(٤).

وقد ظهرت قيمة أسطول مدن كمبانيا (أمالفي - نابلي - جابيتا) بشكل أكثر وضوحاً بعد ذلك بثلاث سنوات عندما تعرضت روما لخطر جسيم من جانب المسلمين واختص بذكر أحداث هذه الواقعة مصدر جدير بالثقة عن حياة ليو الرابع، حيث وردت أخبارها بالتفصيل في تقرير بعث به هذا البابا إلى الإمبراطور لوثر وإبنه الملك(٥)، ففي عام (٨٤٩م) بمجرد وصول الأنباء بأن عمارة إسلامية ضخمة في طريقها إلى روما أسرع الأمالفيون والنابوليتان والجايبتان بقيادة قيصر بن سرجيو للدفاع عن هذه المدينة

(1) Ibid PP. 506-507, Comera, M-iop-cit 1 P.102.

(2) Y. Berza, M-1 Op. - cit P.379.

(3) Johannis Gesta Epis coporum Neapolitanorum, M-G.H. SS P / 443 cf. Berza 10 P cit P.38 n. 1

ويوكد ذلك تلك الفقرة من ذلك النص :

cuncti terge votentibus volidiss mo occidebontur;
et nusi cesarius, filuas Sergu Ducis, qui nevigus
Neapolitonarum et Amalittanarun veuerat litoreun
cun eis cocpiss et, nullatenuo a perquende recedebant

(4) Amalfi Preducale P. 381.

(5) Vita Pabae in liber Potificalis ed.
Duchsane , t. 11 PP. 117 - 119 . M. Berza : Op - cit P.381 M.6.

لكسب تأييد البابوية من ناحية، خصوصاً وأن هذا النبأ أثار الرعب والحزن في نفوس الرومان وخاصة البابا ليو الرابع (٨٤٧ ـ ٨٥٥م)، ولتأمين حرية الملاحة ومصالحهم التجارية في البحر التيراني من ناحية أخرى، هذا فضلا عن المشاعر المسيحية لدى مواطني هذه المدن وخصوصاً الأمالفيين الذين عرفوا بحماسهم لدينهم من خلال أعمالهم وتوسعهم في إقامة المنشآت الدينية(١).

وقد وصلت قوات كل من أمالفي ونابلي وجايتا إلى أوستي قبل وصول الأسطول الإسلامي(٢)، وفي هذه الأثناء أسرع البابا ليو الرابع إلى هناك حيث أقام صلاة في كنسية القديس أوريا S. Aurea وبارك هؤلاء المدافعين المخلصين، حتى يزدادوا شجاعة في حربهم ضد الأعداء، وكانت تلك هي المناسبة التي ألقى فيها البابا ليو الرابع صلاته المشهورة على الأمالفيين والنابوليتان والجايتان وأصبحت هذه الصلاة ذكرى مجيدة بالنسبة لمواطني أمالفي ونابلي وجايتيا الذين هبوا لنصرة الديانة الكاثوليكية(٣).

وعلى كل فإنه عند ظهور المسلمين على شواطيء أوستيا بدأ الأسطول المشترك في التحرك للاشتباك معهم ومهاجمتهم ولاح النصر في جانب الأمالفيين وحلفائهم، ثم تأكد لهم بشكل نهائي بهبوب ريح عاتية حطمت سفن المسلمين وهؤلاء الذين وقعوا في

---

(1) Amari , M. : 10 P . cit Tome 1 P. 507.
Sehipa, M. : Ducats di Napoli p. 133
Comera, M. : Op-cit Tome 1 P. 103.
(2) rchempetri Casse is Monchi, Historia longbordarum
Apnd Muratorium, Tome 11 Saiptorum Rerum talicaum, R. H. Y. F. Tome 11 P. 157.
(3) Deus, cujus de tera B. Petrum ombulantem in fluctibus
me mergeretut erexit atque B-Paulumtretio naufraganten de prpfundo pelago liberaritt; exandi nos propitius, et concede, ut amborum meritis horum fidelium vestorum brachia contra inimicassanctae Ecclesiae tuae dimicantia omnipotenti dexera tva corroborentur et comoles cant, ut de percepto triumphs nomen sanctum tuon in cunts gentibus ppareat Gloriosum Per doninum nostrem etc. cf. Vita Leonia Iv in Annales Eccles T 11, P. 381, M. Camera : IP. 103 n. 2 Also : Camera, M. : OP. cit Tome 1 P. 103.

الأسر سخرهم البابا في بناء أسوار حول الفاتيكان في المنطقة التي سميت فيما بعد باسمه وهي مدينة ليونيناه(١).

ويرى بعض المؤرخين أن اجتماع أساطيل أمالفي ونابلي وجايتا في هذه المعركة بدافع من تشابه المصالح والاهتمامات يعتبر أول اتحاد بحري إيطالي ظهر فيه الأمالفيون كحلفاء وليس كتابعين لدوقية نابلي(٢).

ويذكر المؤرخ ليوجي شاركي Luigi Carci ان اشتراك الأمالفيين في معركة أوستي وحصولهم من البابوية على لقب (المدافعين عن العقيدة) كان مرجعه التقاء المصالح والاهتمامات الأمالفية والمصالح البابوية، فالمسلمون في هجومهم على روما كانوا يسعون إلى تحقيق هدفين في أن واحد وهما : أولاً : تحطيم وإضعاف قوة الكنيسة الكاثوليكية.

ثانياً : استكمال السيادة في مجال التجارة وإلحاق الضرر بحرية الحركة التجارية، وبحرية الملاحة في البحر التيراني. لذلك كان من الحكمة أن يتحالف البابا وحكومة أمالفي لمواجهة الخطر المشترك(٣).

على أية حال فإن العمليات الحربية للأمالفيين ضد المسلمين لم تتوقف بعد معركة أوستي بل استمروا في العمل على مواجهة الخطر الإسلامي الذي يهدد مصالحهم في البحر التيراني وعلى السواحل الإيطالية(٤).

ففي الحرب التي دارت رحاها تحت أسوار كابوا في الثامن من مايو عام (٨٥٩م/غرة صفر ٢٤٥هـ) (في رأي آخر سبتمبر ٨٥٩م) أرسل ماورو Mauro فرقة

(1) cf. Ibid Idem.
Also : Berza, M. 10 P. cit P.382.
(2) ef - Schipa, M. - : op cit P.68.
Also : Berza, M. : op cit P. 409-410.
(3) cf. Le Repubbliche Marinare Amalfi PP 41-42.
(4) cf. Carci Luigi : op. cit P. 43.

أمالفية للانضمام إلى جيش نابلي المشترك في هذه الحرب(١)، رغم أن أهالي كابوا كانوا في مركز متفوق وأطلق سراح مارينو Morino بريفتور (رئيس) أمالفي السابق. ولكن مارينو لم يستطع العودة إلى مدينته لأنه في يناير (٨٦٠م) كان ماورو السالف الذكر قد شغل منصبه(٢).

ولقد عاد مارينو إلى حكم أمالفي لجهوده الحربية الناجحة ضد المسلمين في عهد لودلف الثاني، الذي جعل إيطاليا الجنوبية موضع اهتمامه منذ أن كان ملكاً على إيطاليا بسبب الحاجة الدائمة إلى القيام بهجمات عنيفة ضد المسلمين(٣)، وحضور لودلف هذا وإقامته في إيطاليا الجنوبية قبل الاستيلاء على باري في نهاية عام (٨٧٠م) يعتبر حدثاً هاماً بالنسبة للتاريخ الأمالفي، فلم يأخذ تقابل أسطول أمالفي مع معاوني الدوق سرجيو الثاني من المسلمين شكل صراع مسيحي إسلامي، بل كان مجرد خدمة تمت للودلف، ويمكن أن تكون أيضاً إجراءً انتقامياً من جانب مارينو ضد أعدائه القدامى في نابلي(٤).

وبالنسبة للعلاقات السلمية بين أمالفي والمسلمين فإنها قطعت بالتأكيد أثناء حملات ٨٤٦ ـ ٨٤٩، ولا يعرف متى استؤنفت هذه العلاقات مرة أخرى ـ على أية حال فقد واكب السنوات التي شغل فيها الأمالفيون بشكل مستمر جهود لودلف الثاني الخاصة باتباع سياسة عدائية ضد المسلمين، وهو أمر مؤسف في نظر المؤرخ مياهي برزا(٥)، إلا أن

---

(1) cf. Historia Longbardorum in R. H. G. F. Tome V11 P. 157.
Also : Comera, M. op-cit Tome I P. 105.
(2) cf. Berza, M. : op cit p 387.

عن اتصالات لودلف الخاصة بإيطاليا انظر :

Gas quet, V. : L, Empire Byzantin et la Monarchie Franque, Patris 1888. P.249 seq
(3) cf. Berza, M. : Op cit Idem.
(4) Amalfi Preducale P. 390.

(٥) عن تفاصيل هذا الحصار وحجم القوات الإسلامية التي قامت به انظر :
Historia Longbardarum in R. H. F. Tome 11P. 157.

مواطني أمالفي كان لزاماً عليهم ألا يتخلوا عن تقديم مساعداتهم في مجال خدمة مما أضحى قضية عامة بالنسبة للجنوب الإيطالي، وهو العمل على التصدي لهجمات المسلمين ومحاولة إجلائهم عن هذه المنطقة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وقد استغل الأمالفيون فرصة احتفاظهم بجانب من العلاقات الطيبة مع المسلمين لصالح هذه القضية، ويتبيّن لنا ذلك من موقف أحد الأمالفيين الذي ضيّع عنصر المفاجأة على قوات المسلمين التي كانت تتجهز لحصار سالرنو(١).

والمعروف من وجهة النظر الحربية - أن هذا العنصر من أكبر العوامل المساعدة على تحقيق النصر في وقت قصير. فقد بلغ أهل سالرنو أن هناك تجهيزات لحصار مدينتهم يتم إعدادها في القيروان وذلك على يد تاجر أمالفي يدعى فلورو كان يتاجر في ذلك الإقليم(٢)، والملاحظ أن علاقات أمالفي مع المسلمين كانت مركزة في مجال العمل التجاري ولم تشكل أي خطر على شواطيء البحر التيراني كالعلاقات التي كانت بين دوق نابلي والمسلمين حوالي ذلك الوقت وغلب عليها الطابع الحربي والسياسي، فأمالفي المدينة التجارية الرفيعة الشأن كان لابد وأن يكون لعلاقاتها مع المسلمين شكل مختلف عن تلك الخاصة بكل من لمباردي ونابلي، اللتين كانتا في حاجة إلى المساعدة من أجل أغراضهم التوسعية الإقليمية، وأيضاً من أجل الدفاع عن حريتهم وممتلكاتهم، لذلك فإننا لا نجد أثراً للتعاون السياسي بالنسبة لأمالفي مثلما كان الحال بالنسبة لهاتين الإمارتين(٣).

وهذه العلاقات الودية بين أمالفي والمسلمين كانت عرضة للتغيير الذي تمليه الضرورة، فكرد فعل لسقوط باري في يد المسيحيين، أتى مسلمو القيروان في خريف عام

(١) عن تفاصيل الحصار وحجم القوات الإسلامية التي قامت به أنظر:

Historia Longbar Dorum Longbardor In R. H. F. Tmne 2 p. 157

(2) Cromica Salermitane C.110 - 111 cf. M. Berza op cit P. 390 n. 1.

(3) Cf. Berza, M. : Op. Cit P. 390 & N.2.

(٨٧١م/٢٥٧هـ) وحاصروا سالرنو(١)، وكان على مارينو بريفتور أمالفي أن يقدم المساعدة لهذه المدينة التي تربطه بها على الأقل صلة الجوار، وإذا لم تكن هذه المساعدة إمداداً بالسلاح فعلى الأقل بوسائل أخرى مساوية في الأهمية. وحقيقة الأمر أنه بعد عدة شهور من الحصار كانت المؤن والأقوات في سالرنو على وشك النفاذ، وهذا يعني إجبار المدينة على الاستسلام، فوجد مارينو وسيلة يقدم بها مساعدته وهي إرسال المؤن للمحاصرين (أهل سالرنو)، الذين لم يعد أميرهم عدواً له بعد ذلك بعد أن ارتبطا سوياً بصلة الصداقة والمصاهرة(٢).

ورغم أنه لم يكن لدينا أية أخبار عن هجوم مباشر من جانب المسلمين ضد أمالفي فالخطر الإسلامي كان يهدد الإقليم بأكمله من خلال انتشار القوات الإسلامية فيه، والأكثر خطورة هو أن يرى الأمالفيون سالرنو وقد تحولت إلى معقل إسلامي مما يجعلنا نقتنع بفكرة أن المساعدة التي قدمها مارينو إلى جوفيريو أمير سالرنو لم تكن مجرد تعزية أو مؤازرة لجار أو قريب في ضائقة بل كانت تمثل قطعا للعلاقات مع المسلمين وهو ما يلحق الضرر كثيراً بمصالح أمالفي التجارية، والدليل تستخلصه من خطاب صادر في نهاية عام (٨٧٢م)، أو في بداية العام التالي من البابا الجديد يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢م)، إلى مارينو بريفتور أمالفي وإلى مساعده في الحكم بلكاري Pulcari(٣)، ففي هذا الخطاب كان يوحنا الثامن، الذي عمل خلال فترة بابويته على حماية إيطاليا ضد المسلمين، يطلب من الأمالفيين تحقيق النصر على الأسطول الإسلامي، وعندما هرب أربعون مسلما من المواجهة البحرية، كان على رجال مارينو

(1) cf. Historia Longbardarum Op. Cit Jdem.
Also : Amari, M. : Op. cit Tome 1 p. 526.
(2) cf. Berza, M. : Op.cit. p.391.
(3) Johannis V111 Papac EPP, M. Y. H. EP. Karoliniacvi
V, Frgmenta Registri; no. 5, P. 276 df. M-Berza P. 391 & M-3.

الأمالفيين ومعهم جنود تابعين للبابوية، البحث عن هؤلاء المسلمين في المخابيء التي لجأوا إليها في جبل شيركو Circco، ويظهر في ثنايا خطاب البابا إلى مارينو وبلكاري اللذين كانا حديثي العهد بخدمة القضية المسيحية، أنه كان على يقين من امكانية الاعتماد على مساعدة الأمالفيين، والاحتمال كبير أن يكونوا قد استجابوا لندائه(١). وفي خطاب آخر يرجع إلى هذه الفترة أرسله نفس البابا إلى رئيس جابيتا ويدعى دوسيبيل Docibile. يذكر أن الأمالفيين خلصوا دوسيبيل هذا من أيدي المسلمين(٢)، لكن لا نعرف إذا كان ذلك قد تم من خلال صدام بحري أم تدخل سلمي حدث بينما كان مارينو لا يزال على علاقات طيبة مع المسلمين. وتاريخ هذه الواقعة غير محدد لكن حدوثها تم في فترة قريبة من ذلك الوقت استناداً على تاريخ كتابة خطاب البابا السالف الذكر(٣)، الذي كتب عندما كانت جابيتا (غيطة) على أحسن حال مع المسلمين لدرجة أن البابا اضطر إلى إصدار قرار الحرمان ضد رئيسهاI.Ypate(٤) , ومن غير الممكن تحديد إلى متى ظل انضمام الأمالفيين إلى غيرهم من المسيحيين في الصراع ضد المسلمين، والمرجح أنه ليس قبل رحيل لودلف الثاني عن إيطاليا الجنوبية في عام (٨٧٣م). وبحلول عام (٨٧٥م) كان السلام قد عم لأنه في ذلك الوقت أيضاً كانت نابلي وسالرنو وكابوا في صداقة مع المسلمين(٥).

في ذلك الوقت أقيل مارينو عن حكم أمالفى وظل بولكاري وحده على رأس إدارة

---

(1) cf. Yay, J. : Op. Cit P.115.

(2) Johannis Degivili cxcommunication Fragm-no.4 Op cit. cf. M-Berza Jdem.

(3) Tu .. vilis homunculus et vix a Saracenis Amalfitannorum miseratione ad periculum ut credimus ... Caietanorum redemptus ch. M. Berza : Op. Cit P. 391 n-7.

(4) Ibid Jdem.

(٥) يستنتج ذلك مما ذكر عن الأوضاع في هذين العامين ٨٧٣، ٨٧٥م انظر :

Coniglio, Yiuseppe : Amalfi e il Commercis Amalfitans nel Medioevo, in Nowva Rivista STarica Supp - 1944 - 1945 (Napali) P. 101.

المدينة(١)، وهو الذي استلم خطاب يوحنا الثامن الذي أرسل في بداية عام (٨٧٥م) إلى النابوليتان والسالرنيين(٢) يأمرهم برفض مبدأ الصلح مع المسلمين، ورغم أن مندوبي البابا الأسقف دوناتودي أوستيا والقس ايوجين Eugene قاما بإعلان القرار البابوي في مراكز إيطاليا الجنوبية فإن ذلك لم يكن له أية نتيجة تذكر، فقد أبرمت أمالفي ومدن بحرية أخرى اتفاقاً (شكليا) هذا العام مع المسلمين(٣)، ونجم عن هذا الاتفاق قيام علاقات صداقة قوية سمحت لتجار أمالفي بالملاحة والتجارة في كل البحر المتوسط مع إفريقيا ومصر والشام(٤)، وقد تبين للمؤرخ ليوجي شاركي سبب هذا الاتفاق في أن المسلمين بعد فشلهم في بلوغ السيادة على البحر التيراني بقوة السلاح حاولوا إبرام معاهدة تحالف على أساس تجاري مع عدة مدن إيطالية، وشارك الأمالفيون في هذه المعاهدة اعتقاداً منهم بفائدتها أو جدواها بالنسبة لإهتماماتهم ومصالحهم التجارية(٥).

على أية حال، فبعد وفاة لودلف الثاني في أغسطس (٨٧٥م) كان على البابا أن يتولى بنفسه مسألة الصراع المسيحي ضد المسلمين وأن يعمل على بسط سلطانه على جميع مقاطعات إيطاليا الجنوبية حتى يستطيع أن يعرقل قيام أي اتفاق مع المسلمين، لكن هذه المحاولات من جانب البابوية كسابقتها باءت بالفشل، فأمالفي وغيرها من مدن الجنوب أبقت على صلاتها مع المسلمين، وأكثر من ذلك كانت تتعاون معهم، فإن لم يكن ذلك

---

(1) cf, Chronici Amalphitani Fragminta, ed . L. A. Muatari; Antiquitates Jtalicae medu Aivi; Mediolam 1718, e.g.
Camera, M. : Op - Cit 1; P. 113.
(2) Johamis V111 Papae Op - Cit Frag. Reg. no 53.
(3) cf - Jaffe, P. : Regesta Pontifivum Romanorum, 2-ed.
Coniglio, Y. : Jdem.
Also Coniglio, Yiuseppe : op -Cit Jdem.
(4) cf. Jbid Jdem.
(5) cf. Le repubbliche Marinaer Amalfi P. 43.
Also : Pansa, Franceseo : Op. Cit Tome 1 P.33.

حدث في العام نفسه فقد تم حدوثه بالفعل في العام التالي (٨٧٦م) أثناء نهب شواطيء الإمارة البابوية، فقد وجد المسلمون لأنفسهم ملجأ أميناً في ميناء أمالفي، أما سكان هذه المدينة فقد كانوا يقاسمون هؤلاء المسلمين فيما يحصلون عليه من غنائم وأسلاب من جراء هجماتهم على الأمارة البابوية، وأشار إلى ذلك بمرارة وأسى البابا يوحنا الثامن في خطاب له يقول فيه إن الأمالفيين قدموا المساعدات للمسلمين وسهلوا لهم سبل الغزو(١).

وفي عام (٨٧٦م) رحل يوحنا الثامن في اتجاه الجنوب الإيطالي كي يتعامل مع حكام المدن هناك على الطبيعة، لعله يستطيع أن ينفذ سياسته الخاصة بالعلاقات مع المسلمين(٢)، ولم تسفر هذه الرحلة عن نتائج سوى أن سالرنو وكابوا قطعا علاقات الصداقة مع المسلمين(٣)، ومن المحتمل أن قطع أمالفي أيضاً لهذه العلاقات حدث في نفس الوقت(٢)، لأنه في أكتوبر من نفس العام كان البابا على يقين من أنه يمكنه الاعتماد على بلكاري بريفتور أمالفي الذي وصفه بأنه (رجل قوي العزيمة) Strenuissimus vir(٤)، وفي أبريل عام (٨٧٧م) عقد مؤتمر في تابيتي Taetto ضم رؤساء أمالفي ونابلي وجابيتا وكابوا. وقد نوقش في هذا المؤتمر القرار الخاص بحاجة بريفتيور أمالفي

(1) cf. Johannis V111 Papae Op - Cit Per - ep - no. 217.

M. Berza P. 393 n-2 - sed Timare indicu der bastpastio nequ propter iusiurandam litora nostra defendere, sed patius depridaer diabolicoiam iuri subiectus permitis et in anime tue perditionem consentis oves pritiosp Christi Cruore adquisitas duci Capives (e) Pro sabute anime tue ac pro defins, ione totius chris tianitatis, que le cum paganis pactum habente quattidie depredatur at que in diram ducitur eapitivitatem.

(2) cf - Lapatre, V. : L Europe et la Saint - Siege a l, epoque Cotilingi enne ; I : Le Pape Jean V111, Parigi, 1895, PP- 305 - 306

Also : Schipa, M. : Principato di Salerno P-130

(3) cf. Labatre, V. : Op. Cit P. 346.

(4) cf. Johannis V111 Popae Op. Cit Op. No 3, M. Berza P. 393.

لعشرة آلاف مانكوس Mancosi للدفاع عن شواطيء الدولة البابوية، فيما بين المدينة القديمة وترابيتي Traetto ضد المسلمين، وما أسفر عنه الاتفاق على هذا القرار أصبح له صفة النفاذ مع نهاية هذا العام، وكان ممثلي البابا في هذا المؤتمر هما : حنا رئيس دير فارفا Forfa وانستاسيو رئيس ديرسان سلفاتور رياتينو(١)، وهذان الشخصان يذكر عنهما متى كاميرا أنهما من أصل أمالفي(٢)، وقد رأى البعض أن البابا أراد بمبلغ العشرة آلاف مانكوس هذه إبعاد أمالفي عن التحالف مع المسلمين(٣).

ويبدو أن أسلوب الدبلوماسية الذي سلكه البابا حنا الثامن مع الأمالفيين لم يؤتِ ثماره المرجوة، إذ أنه بعد عامين من هذا المؤتمر أرسل خطاباً في سبتمبر (٨٧٩م) شديد اللهجة إلى بلكاري بريفتيور أمالفي وإلى بطرس أسقف المدينة حدد فيه آخر مهلة لفصم عُرى العلاقات بشكل نهائي مع المسلمين، وهو أوائل ديسمبر من نفس العام، وقد حوى هذا الخطاب تهديداً بأنه إذا لم تمتثل كل من أمالفي ونابلي وجايتيا لأوامر البابا النهائية هذه المرة سيقعون تحت طائلة اللعنة والحرمان(٤).

وهذا الخطاب الدائري كان يتضمن ملحقاً خاصاً ببلكاري، وهو الذي أشير إليه في الحاشية السابقة مما يدل على أهمية أمالفي - في نظر البابوية - كعنصر مسيحي لعب دوراً هاماً في مجال العلاقات مع المسلمين، ومن ثم كان على البابا كي يضمن لسياسته النجاح أن يركز على عملية إقناعهم بالعدول عن سياستهم إزاء المسلمين بصفة عامة، لكن هذه السياسة هي الأخرى لم تلق نجاحاً يذكر لدى الأمالفيين، فليس فقط في مسألة وراثة حكم كابوا يظهر عدم اكتراث بلكاري بمتابعة اهتمامات البابا، بل ظهر عدم اهتمامه أيضاً بما حواه خطاب البابا من تهديدات عن طريق إصراره على استمرار

(1) cf - Berza, M : 0p - Cit P. 395.
(2) cf - Berza, M : 0p - Cit P. 395.
(3) cf. Memarie Storico - diplomatiche dell, Antica Citta eduatod Amalfi Toue 1 P. 115, 117.
(4) Conighio, Yiuseppe : Op - Cit P.101.

علاقات أمالفى مع المسلمين، وكان موقفه في هذا الصدد واضحاً ومتشدداً بحيث لم يجعل البابا يتريث حتى آخر ديسمبر وهو موعد انتهاء المهلة المعلومة للجميع(١)، فاستبدل الوعد بالوعيد، خصوصاً وأن الحرمان واللعنة كان معناها مقاطعة أو إغلاق كل منابع التجارة الخاصة بالدولة البابوية في وجه الأمالفيين(٢).

وفي نفس الوقت حرص البابا على ألا يذهب بعيداً في تهديده، بل فضّل عنصر الإقناع والتركيز عليه، فلكي يستحث بلكاري على الاستجابة لرغبته ذكر له أن الاخرين (يقصد نابلي وجاييتا ـ بأجمعهم لديهم الاستعداد للإصغاء إلى المرام الوحيد الذي من الممكن أن يطلب للمرة الثانية وهو (إبقاء الأمالفيين غير حلفاء مع الكفار) ـ يقصد المسلمين ـ(٣)، أي أن المدن الأخرى امتثلت لرغبة البابا وبالتالي حري بأمالفى أن تذعن لرأي الأغلبية.

ورغم ما ذكره مياهي برزا من أنه ليس لديه معلومات عما ترتب على كل هذه الجهود بالنسبة لأمالفي(٤)، فإن ليوجي شاركي يقرر أن المدينة تعرضت للحرمان من جانب الكنيسة، ومنع أسقف أمالفى المواطنين من مباشرة حقوقهم الكنسية والصلوات إلى أن اضطرت حكومة أمالفى ـ كرد فعل لهذا الموقف ـ أن تجعل نفسها بمعزل عن التحالف

---

(1) Joffe, P. : Regesta Pontificum Romanarum
2 a ed. , 1; 1888 NO 3308 P - 414 anno 879 : Petro Ipiscope et Pulcari Praefectoris et Omnibus Sacer Sacerdotibus ac clericis atque unverso populo Amalfitane Givitatis, Si a Saracenis discesserint haec proitit : dalimus vobis nune etper singulas annes, sicut inter nas statutum fuit, decem milia mancos orwn argenti, et isto presenti anno danms vobis pro benedictione supra mille mancasos et telonenm, quod in portu nostro dare debetis, vobis conce dimus. Si non discesoerint, fore ut a Dominico, Tegato suo ; Abipsoque er ezcommumicentun et anathematizentur, conighio, Y. : Op. Cit PP. 101 - 102 n-2.

(٢) انظر نص الخطاب في الحاشية السابقة وتفاصيل أخرى في :
Berza, M. : Op. Cit PP. 398 - 399
(3) cf. Berza, M. : Op. Cit P - 400 & n -4.
(4) ilid PP. 400 - 401.

مع المسلمين، وكي تظهر حسن نواياها وخضوعها الفعلي للبابا أشركت أسقف المدينة في الحكم مع رئيسها(١).

أما تعهدات الدوق الأسقف اثاسيو دي نابلى للبابا بقطع علاقاته مع العرب، والتي سجلت في خطاب كتب في ديسمبر (٨٧٩م) فلم تكن إلا نوعا من الإغراء والنفاق، إذ أنه وعد بقطع علاقاته مع المسلمين بصرف النظر عن قرار الأمالفيين أو موقفهم، فذلك لم يكن له أية أهمية وأنه من السهل - من وجهة نظره - ضربهم وإذلالهم(٢). ورغم هذه الوعود فإن اثاسيو بدلاً من أن يقطع علاقاته بالعرب ازداد ارتباطاً بهم(٣)، فاغتاظ البابا كثيراً من هذه التصرفات خصوصاً وقد ضاع منه أي أمل في تنفيذ مطالبه، ومن ثم أصدر قرار الحرمان واللعنة ضد اثاسيو في شهر أبريل (٨٨٠م)(٤).

ورغم ما قرره ليوجي شاركي سلفاً من أن أمالفي تعرضت للحرمان فإن مياهي برزا استناداً إلى الخطابات والمراسيم البابوية ينفي بشكل قاطع أن ذلك قد حدث إزاء سياسة بلكاري بريفيتور أمالفي في سنوات حكمه الأخيرة. فبالنسبة لهذا العام (٨٨٠م) لم يبق في السجلات البابوية سوى ستة عشر خطاباً، أحدهم خاص بإيطاليا الجنوبية، وهذه جميعها لم تتضمن أخباراً مفيدة بالنسبة لأمالفي، هذا فضلاً عن أن التواريخ لم تسد النقص الموجود في السجلات ومن ثم ينتهي إلى أنه علينا أن نتجاهل العلاقات المتبادلة بين يوحنا الثامن ومدينة أمالفى في آخر سنى بابويته(٥).

---

(1) Jbid Jdem

(2) ef. Le Repubbliche Marinare amalfi P. 43.

Amalfi e il Commercio amalfitano nel Medioevo P. 101.

(3) quia, so vos fedus Cum saracinis non habueritis, nil Domino inwante de amalfitanorum Perfidia Curabimus, quas videlicet gladio Poterilmno speritali Persequi et facile humiliare.

ef. Berza, M. : Op. Cit P. 401 n.2.

(٤) فيما يتعلق بسياسة اثاسيو خلال هذه الفترة انظر :

SEHIPA, m -`: Ducato di Napali P. 191 seq gay, J - : cit PP. 126 - 127.

(5) cf. Johamnis VI1 Papae Op, Cit Opp no1

P. 247, M. Berza Jdem n - 5.

على أية حال فإنه في أبريل عام (٨٨١م) رفع قرار الحرمان عن اتناسيو دوق وأسقف نابلي لاقتناع البابا في ذلك الوقت بأن الهوة واسعة بين الوعد والفعل، وكان هذا الحرمان قد أعلن إلى جميع الأساقفة ومن بينهم أسقف أمالفي بحكم انتمائه إلى الكنيسة(١)، ولا جدال في أن الروح التجارية لدى الأمالفيين ساعدتهم على تحقيق أقصى فائدة من وراء بابا كان يتطلع إلى مجرد إشارة ليتحول من جانب الحرمان واللعنات إلى الوعد الحسن، لعدم وجود النية لديه في التشدد من أجل تنفيذ أهدافه(٢)، أو أن ظروف البابوية ذاتها كانت لا تسمح بانتهاج هذه السياسة ضد حكام الغرب الكاثوليكي بصفة عامة في ذلك الوقت. ولا يعرف إذا كان القرار الذي اتخذ في مؤتمر ترابيني السالف الذكر والخاص بمسئولية أمالفي الدفاعية عن شاطيء الدولة البابوية ضد المسلمين قد أخذ طريقه إلى التنفيذ، أو ما إذا كان بلكاري قد حقق عملاً إيجابياً بالنسبة للقضية المسيحية؟ وإذا كان ذلك قد حدث بالفعل، فمن المرجح أنه قد حدث بالقدر الذي يُرضي البابا مع استمرار الاستفادة من العلاقات المثمرة مع المسلمين، والواضح في هذا الصدد والذي تؤكده التواريخ، هو أن أمالفي قبل وفاة يوحنا الثامن في ديسمبر ٨٨٢م لعبت دوراً في الصراع ضد المسلمين وفي نفس الوقت كان لدى مواطنيها الاستعداد للتفاوض مع هؤلاء الجيران(٣).

على أية حال، فإنه بموت بلكاري ووصول مانسوتي فوسيليز إلى حكم أمالفي في الثامن عشر من يوليو ٨٩٧م(٤)، يمكن أن نقرر أنه بدأ عصر جديد في تاريخ أمالفي،

---

(١) انظر ما سبق، وأيضاً :

Amalfi Preducale P. 401

وعن هذه الخطابات انظر :

Johannis v111 papae op. cit PP. no 251 - 266.

(2) cf. Ibid no 279 Ad ommibus episcopes gaietam Neapolim cabuam Berolasium et Amalfim Beneventum et Salernum afaribus of Berza, M-PP. 401 - 402. n.1

(3) cf. Berza, M. : Op - cit P.402.

(4) Ibid PP. 402 - 403.

حيث لا نجد أخباراً عن تدخل أمالفي في شؤون السياسة العامة لإيطاليا الجنوبية - كما كان الوضع قبل ذلك - هذا فضلاً عن أن هذه المنطقة كانت بيزنطة قد تمكنت من استعادتها بقيادة الأباطرة المقدونيين خلال هذه الفترة(١).

ولعلنا ندرك من خلال العرض التاريخي السابق هذه الحرية في الحركة بالنسبة للأمالفيين وهو الأمر الذي ظهر واضحاً في علاقاتهم الخارجية(٢)، والتوافق الذي حدث بين أمالفي ونابلي بعد تاريخ الاستقلال لم يكن نابعاً عن تبعية تمس استقلال أمالفي هذا، وإنما كان التقاء بين الدولتين في الاهتمامات من حيث النظر إلى هجمات المسلمين في البحر التيراني على أنها تشكل خطراً يهدد حرية الملاحة في هذا البحر وهو أمر ذو قيمة كبيرة بالنسبة لأمالفي كما كان بالنسبة لنابلي، وكذلك كان رد الفعل إزاء الخطر الإسلامي بالنسبة لإقليم كبانيا بأكمله(٣).

وإذا كانت العلاقات بين أمالفي من ناحية وممالك الغرب الأوروبي المجاورة والبابوية من ناحية أخرى كان لها أثرها وتأثيرها على العلاقات الأمالفية الإسلامية على النحو الذي بيناه من قبل فإن هناك جانباً هاماً يتحتم علينا أن نرى من خلاله بأي وسيلة سارت العلاقات بين أمالفي والدولة البيزنطية في وقت استمرت فيه هذه الأخيرة في حالة حرب تكاد تكون دائمة مع المسلمين تخللتها فترات هدنة واتفاقيات سلام قصيرة الأمد، ومن ثم فإن موقف بيزنطة من جنوب إيطاليا ومن أمالفي بصفة خاصة، والدور الذي

---

(١) تذكر التواريخ الأمالفية

Gromica Amalfitana

أنه بعد بلكاري كان سابقاً على مانسوني شخص آخر يدعى مارينو انتهت خدمته في وظيفة الرئاسة بوقوعه أسيراً في أيدي السوريين في حرب بحرية ولا تضيف هذه التواريخ شيئاً عن سبب هذه الحرب مع السورنتيني وما ترتب على ذلك بالنسبة للأمالفيين.

Postea Marinus filus Leonis, filii Marini .. cf Camera, M. : Op Cit P. 123.

Also : Berza, M. : Op. cit P. 405. n.4.

(٢) انظر الصفحات التالية وأيضاً :

Gay : I. : Op. Cit P. 15 z seq.

(3) cf. Berza, M. : Op. Cit P.405.

لعبه الأمالفيون في تجارة القسطنطينية كوسطاء بين الشرق والغرب عبر بيزنطة، كل ذلك يجعل الارتباط وثيقاً بين التعرف على الأحوال العامة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وبين موضوع علاقات أمالفي بالمسلمين في مصر والشام بصفة خاصة، بحكم الاتصالات الواسعة في المجالين السياسي والتجاري بين هؤلاء الأخيرين وبيزنطة عبر صلة الجوار، وذلك من حيث الخصائص البارزة التي تخدم هذا الموضوع الأخير.

على أية حال، فإنه رغم ضياع بعض أملاك البيزنطيين خلال الأزمات التي تعرضت لها الإمبراطورية بصفة عامة، فإن الأباطرة البيزنطيين كانوا حريصين على استعادة هذه الأملاك لسلطانهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإن تطلب الأمر منهم الدخول في صراع، سواء ضد قوى الغرب الأوربي أو المسلمين.

وفي جميع الأحوال يمكن القول أنه بالنسبة لأمالفي ـ موضوع هذه الدراسة ـ فقد ظلت في فلك التبعية للإمبراطور البيزنطي ـ سواء أكانت إسمية أم فعلية ـ لأنها كانت ضمن الموانيء المنعزلة والمواقع المحصنة على طول الشاطيء التي ظلت بيزنطة محتفظة بها، وكذلك لأنها كانت من المدن التي استطاعت أن تتصدى للغزو اللمباردي وتحول دونه، فبقيت على وضعها القديم كملاذ للحضارة الرومانية في وقت لم تستطع بيزنطة أن تفعل شيئاً من أجل الدفاع عنها سوى أن ترسل دوق او اكزرك Exarch أو نبيل، بلقب يؤكد تبعية هذه المناطق لسيده الإمبراطور دون أن تصحبه أية قوات بيزنطية.

وقد كان مواطنو هذه المدن يطلبون الأموال والجند لإصلاح تحصيناتهم والدفاع عنهم، بينما كان الأباطرة على النقيض من ذلك يطالبون بأن أموال إيطاليا يجب أن ترسل إلى القسطنطينية، وبعد منازعات وجدت الحكومة البيزنطية أنه من الحكمة التخلي عن هذه المسألة، وغضت بصرها عن قيام حرية احتقرتها، لكن هذه الحرية التي حصلت عليها تلك المدن كانت مفيدة بالنسبة للدفاع عن هذه الممتلكات البعيدة عن الإدارة المركزية للإمبراطورية، والتي رأسها حكام رشحهم مواطنو هذه المدن أنفسهم وأصبحوا

معترفاً بهم كودائع للسلطة الإمبراطورية، وسمح لهم القيام بتدبير أمور ماليتهم الخاصة وقواتهم المحارية، بشرط ألا يطلب شيئاً من الأباطرة الذين كانوا قانعين بأن يروا أسماءهم في مقدمة أي عمل، وصورتهم على العملة دون التدقيق على أي من مقومات التبعية، لذلك لم تمس تبعية أمالفي لبيزنطة استقلال الأمالفيين بأي حال من الأحوال(١)، ويؤكد ذلك الغرض الذي ينطوي عليه احتفاظ أمالفي بهذه التبعية المؤرخ ليوجي شاركي، إذ يذكر أن هذه الجمهورية كانت تظهر إذعانا وانقيادا للإمبراطورية البيزنطية، لكنه كان خضوعا اسميا وغير فعّال، لكن اعترفت به أمالفي من أجل منافع سياسية واقتصادية وتجارية بهدف تأمين التجار والملاحين (الأمالفيين) وتسهيل استقبالهم في الموانيء الأجنبية(٢).

وقد تأثر النفوذ البيزنطي في إيطاليا بما كانت عليه الإمبراطورية من القوة أو الضعف، ففي عصر الأباطرة الأيسوريين الذين شغلوا أنفسهم بالحركة اللأيقونية اضمحل وضع بيزنطة القوى الذي كان لها في الغرب، كما أن سياسة هؤلاء الأباطرة الدينية عجّلت بفصل بيزنطة عن الغرب(٣)، وقد استفاد من هذا الوضع ليتوبراند Lintprand أحد الملوك اللمبارديين (٧١٢ ـ ٧٤٣) بالاستحواذ على بعض الممتلكات البيزنطية هناك كرافنا، واخضاع بعض الدوقات المستقلين وبخاصة دوقي سبوليتو وبنفنتو(٤)، كما ترتب على هذا الوضع أيضاً تتابع الحوادث التي قادت من تأسيس الدولة البابوية إلى التتويج الإمبراطوري لشارلمان(٥).

(1) cf. Berza, n. : Op. Cit P.409.

(2) cf. Francesco Bertolini : Op. Cit PP. 23 - 24.

(3) cf. Le Repnbbliche Marinare Amalfi P.31.

(4) cf. Ostre corsky, Gearge : history of the By antine State, trans, From the derman by Joan Hassey, new

(5) Jersey 1957 P. 193. cf. Francesco Bertolini : Op. Cit P.18.
Also Cam. Med. Hist. 1 p. 159, 221-222.

وكذلك ل. م. هارتمان : الدولة والامبراطورية ص١١٧ -١١٨ ج٣.

وتنحصر أهمية سياسة أباطرة بيزنطة، بالنسبة لموضوع البحث، في أمرين: أحدهما موقف بيزنطة من وضع أملاكها في إيطاليا إزاء المسلمين.

والثاني : علاقات الدولة البيزنطية بالمسلمين في مصر والشام بحكم صلة الجوار بينهما على الحدود، والتصارع على السيادة في البحر المتوسط.

وظهر هذا الأمر جلياً في عصر الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث (٨٤٢ ـ ٨٦٧م)، الذي تابع الحرب مع العرب في هذين الميدانين بطاقة عظيمة، ففي عامي (٨٥٣ ـ ٨٥٦م/٢٣٩ ـ ٢٤٢هـ) ظهر الأسطول البيزنطي مراراً أمام شواطيء مصر عند دمياط، انتقاماً من المصريين الذين كانوا يقدمون المساعدة لحكام كريت، وقد نهب الميناء المصري وأعمل الحرق فيه، وكانت النتيجة الفورية لهذا الهجوم البيزنطي هو أن المصريين بدأوا في بناء أسطولهم ووضع لبنات قوة بحرية وصلت إلى أوجها في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري في ظل الخلافة الفاطمية(١).

أما في الغرب فإن جهود البيزنطيين لم تحل دون غزو جزيرة صقلية، التي لم يبق فيها إلا مدينتا سيراكوز وطمبرمين، وأيضاً لم توقف تقدم العرب في جنوب إيطاليا(٢)، إلا أنه مع تقدم الدولة البيزنطية من خلال استقرار أمورها في الداخل وقلة تعرضها لأخطار خارجية أخرى، استطاعت أن تستعيد شيئاً فشيئاً سيادتها في الجنوب الإيطالي، وقد يسر لها هذه المهمة الأخطار التي أحدقت بالمدن الإيطالية من جانب المسلمين وجعلت هذه المدن في حاجة إلى الاستنجاد ببيزنطة(٣).

ومنذ أن حال الأسطول الإمبراطوري دون هجمات العرب على شاطيء دالماشيا، ورفع الحصار عن راجوزة في عام (٨٦٧م/٢٥٣هـ)، تدخل البيزنطيون في جنوب إيطاليا، وقد خطط الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧ ـ ٨٨٦م) بنفسه لعمل مشترك مع إمبراطور الغرب

(1) cf. Ostrogorsky, G. : Op. Cit P. 193
(2) cf. Ibid. Op.197, 201.
(3) Ibid P. 201

لويس الثاني والبابوية ضد تقدم المسلمين، ولم يسفر هذا التحالف عن نتيجة سوى أن لويس الثاني أخذ باري في عام (٨٧١) وعاد البيزنطيون فارغي اليد(١).

وبعد ذلك على مدى ما يزيد على نصف قرن شغل البيزنطيون بالحرب مع سيمون حاكم البلغار، وانحصر نشاطهم في القيام بإجراءات دفاعية، وإعطاء الأولوية للدبلوماسية من أجل الحفاظ على السلام مع البلاد الإسلامية(٢)، وما أن فرغوا من مشاغلهم هذه حتى بدأوا هجماتهم على شمال الشام مستغلين ظروف الضعف التي انتابت الخلافة العباسية في ذلك الوقت، ففي عام (٩٣٤م/٣٢٢هـ) استهل القائد البيزنطي حنا كوركواز نشاطه الحربي ضد شمال الشام(٣)، ووقع عبء الدفاع عن هذه المناطق على عاتق الحمدانيين الذين كانت قوتهم في تزايد. وللتصدي لخطر هذه القوة الناشئة اضطر البيزنطيون إلى الدخول في علاقات صداقة مع خلافة بغداد ومع الإخشيديين في مصر(٤).

ورغم أن بيزنطة استطاعت أن تحرز تقدماً على الحدود مع المسلمين في الشرق، إلا أن الموقف سرعان ما تبدل إلى جانب سيف الدولة الحمداني ، وظل النصر حليفه حتى عام ٩٥٧م/٣٤٦هـ، حيث كان نقفور فوكاس قد احتل مكان أبيه برداس كقائد للجيش البيزنطي فاستعادت بيزنطة موقف المبادأة(٥) وتمكن نقفور هذا من إعادة كريت إلى الإمبراطورية في عام ٩٦١م/ ٣٥٠هـ(٦)، ثم استسلمت له حلب، عاصمة سيف الدولة، في العام التالي بعد حصار ثقيل، وقد فتح انتصاره على الحمدانيين الطريق لتقدم أكثر

(1) Ibid P. 209
(2) Ibid P. 210
(3) cf. Gay, I. : Op. Cit P. 132 H.
Also : Ostrogarsky, C. : Op. Cit P. 244.
(4) cf. Ibid Idem.
(5) Ibid P.245
(6) Ibid P.250

بالنسبة لبيزنطة في الشرق(١).

وفي السادس عشر من أغسطس عام (٩٦٣م/٢٣ رجب ٣٥٢هـ) توج نقفور فوكاس إمبراطوراً على بيزنطة(٢)، وقد استأنف حروبه وتقدمه في شمال الشام بحيث أصبح في مقدوره الوقوف تحت أسوار أنطاكية في اكتوبر (٩٦٦م/ ذي القعدة ٣٥٥هـ) لكنه سرعان ما أجبر على العودة، ولم يظهر في هذه المناطق مرة أخرى حتى عام (٩٦٨م)، حيث توغل في اتجاه الجنوب على طول الشاطيء أخذا مدينة بعد أخرى ثم تحول ثانية ضد أنطاكية، التي نجح قائدها في الاستيلاء عليها في الثامن والعشرين من أكتوبر (٩٦٩م/٨ محرم ٣٥٩هـ)(٣)، وبعد ذلك بعدة شهور سقطت حلب هي الأخرى، وكان أميرها مجبراً على توقيع سلام ذليل مع بيزنطة(٤)، وبذلك ضم جزءاً من شمال الشام إلى الإمبراطورية شمل أنطاكية أهم مدنه، وجزءاً آخر ضم حلب اعترف بالسيادة البيزنطية، وأصبح أمير حلب فصلاً بيزنطياً ورعاياه غير المسيحيين يدفعون الجزية الإمبراطورية(٥).

هذه الفترة من التوسع القوي للإمبراطورية البيزنطية شهدت أيضاً انتعاش إمبراطورية الغرب، ومن ثم عاد التنافس بين الإمبراطوريتين إلى الظهور، فكلا القوتين كان لهما اهتمامات في جنوب ايطاليا، ففي الغرب توج أوتو الكبير (٩٦٢ - ٩٧٣م) إمبراطورا في روما قبل اعتلاء نقفور فوكاس العرش بعام، وأدخل في نطاق تبعيته أجزاء من ايطاليا، وقد رغب أوتو هذا في أن يجعل كل إيطاليا خاضعة لسلطانه، ورأى أنه من الأفضل أن يسلك جانب المسالمة في تحقيق أغراضه بالنسبة للأملاك البيزنطية

(1) Ibid PP.251 - 252

(2) cf. chronique de matthew d, Edesse, R. H. c doc Arm.Tome I P.4.

(3) cf. Ibid P.5.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص ١٦٣ - ١٦٩

ايضا : يحيى بن سعيد الأنطاكي ج١ ص ١٣٤

(5) cf. Ostrogorsky, G. : 10 p-cit PP. 257-258.

في جنوب إيطاليا، فأرسل في عام (٩٦٨م) سفارة إلى القسطنطينية أملاً في الوصول إلى اتفاق ودي يتمكن عن طريقه من امتلاك هذه الأجزاء التي لم تخضع بعد لسلطانه - ومن بينها أمالفي -، لذلك فإن مبعوثه ليتبراند الكريموني Liutprand Bishop af Cremona الذي زار العاصمة البيزنطية قبل ذلك (عام٩٤٩م)، في عهد قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) كمبعوث أيضاً لبرنجر الثاني Berengar II كان يطوى معه للحكومة البيزنطية خطة تحالف زواج بين ابن أوتو الأول وإحدى أخوات الأمراء الإمبراطوريين الصغرى، وبائنة هذا الزواج كانت ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في جنوب إيطاليا(١)، ورفض هذا العرض من جانب بيزنطة بشكل ساخر فقد شعر الإمبراطور البيزنطي أن مصالح إمبراطوريته ووضعها اضيرا من جراء الأحداث التي وقعت في الغرب منذ فترة وجيزة، فأوتو حصل على التاج الإمبراطوري وجعل نفسه سيدا على روما وعلى الكنيسة الرومانية، لدرجة أن أقدامه كانت راسخة في معظم ايطاليا ، كما أنه تحالف مع أميري كابوا وبنفنتو اتباع بيزنطة، وتجرأ على مهاجمة الممتلكات البيزنطية في باري(٢).

كل هذه الاوضاع كانت مغيظة للإمبراطور البيزنطي، الذي بعد نجاحه في هجماته ضد مسلمي الشرق ، كان أكثر إدراكاً لقوته وأهميته. فأساء معاملة ليتبراند مبعوث أوتو وأهانه ، وفرض عليه أن يصغى إلى قصص مؤداها أن سيده أوتوليس بإمبراطور ولا روماني، لكنه مجرد ملك بربري وبالتالي فإنه من المستبعد الزواج بين ابن حاكم بربري وأميرة إمبراطورية ولدت في أرجوان(٣).

ويرتبط بهذه النواحي السياسية الخاصة بموقف بيزنطة من كل المسلمين وإمبراطورية الغرب، وجنوب إيطاليا، الوضع التجاري للدولة البيزنطية بصفة عامة

(1) Ae. Liutprand, Report of his Mission to constantineple in select historical Documents of the Mi ddle Ages, trans 8 ed. Er nest F. Henderson, London 1892 PP. 441-442.
(2) Liutprands Report. Op. Cit PP.443-444, 454.
(3) cf. Ibid p. 449.

فقد هيأ هذا الوضع لأمالفي أكثر من غيرها - وكذلك للبندقية - أن يتبوأ مكان الصدارة كوسطاء تجاريين وأصحاب امتيازات تجارية في سلع انفردت بانتاجها بيزنطة، ومن ثم ورثا مكانة الدولة البيزنطية التجارية في فترة تالية.

فقد بلغت التجارة البيزنطية زروتها إبّان القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وكانت سفن بيزنطة تقوم بتجارة ساحلية، أما تجارة الشرق الاقصى والأعشاب الهندية، فكانت إما أن ترد عبر بلاد الفرس وأرمينية إلى طرابيزون ، أو تسير على الخليج الفارسي حتى بغداد ثم تنطلق شمالاً الى نفس المرفأ(١). وبعد استرداد البيزنطيين لأنطاكية وجه قدر معين من التجارة الشرقية عن طريق حلب إلى أنطاكية وإلى اللاذقية على البحر(٢). وفي الحين ذاته كانت التجارة الشمالية في تقدم مستمر حيث كان الخزر وجيرانهم يجلبون فراء السهوب ورقيقها وسمكها المجفف الى خيرصون ببلاد القرم أو تحملها السفن الروسية من الدنيبر إلى القسطنطينية(٣). على أن كهرمان البلطيق وفراء أوربا الوسطى ومعادنها كانت تجد طريقها إلى سالونيك، فتنشرها سفن الروم إلى كل مكان(٤).

وكان موقع القسطنطينية عند ملتقى الطرق العالمية التجارية هو الذي منحها أيام رخائها العظيمة ، فقد كانت مركزاً تجارياً كبيراً تفد اليه جموع التجار بتجاراتهم من كل حدب وصوب. وتمتعت أمالفي في هذه المدينة بامتيازات في وقت كانت عمليات الإتجار فيها وحتى الإقامة محددة بقيود صعبة. ويذكر ليتوبراندا كريمونا في

(١) المسعودي : مروج الذهب ج١.

(٢) رانسيمان، ستيفن الحضارة البيزنطية ص ١٩٩.

(3) cf. Vasiliev : The Economic Relations Between Byzantium and Ancient Russia, In J. E. B. H. Vol iv Q. 314

(٤) رانسيمان، ستيفن المرجع السابق، نفس المكان.

تقرير رحلته إليها أنه وجد في القسطنطينية جالية أمالفية كثيرة العدد ساوت في عددها المقيمين الدائمين هناك من الرومان الجاتيتان مجتمعين(١). ووجود هذه الجالية يعني بالتأكيد قيام علاقات وصلات تجارية واسعة النطاق، ودليل كبير على الاستمالة المرنة من جانب البيزنطيين للأمالفيين، بحيث أنهم إلى جانب النشاط التجاري لعبوا دوراً سياسياً وحربياً في بيزنطة، فقد كان هؤلاء الأمالفيون بمثابة مساعدة فاعلة لقسطنطين السابع حينما أقيل رومانوس الأول ليكابينوس على يد اولاده(٢). كما كان من بينهم جماعة أمالفية محاربة في صفوف جيش نقفور فوكاس(٣)، وأشرف على الجالية الأمالفية (مقيم دائم) بالمدينة في القسطنطينية(٤).

ورغم الامتيازات الخاصة التي حصل عليها الإيطاليون ـ الأمالفيون والبنادقة ـ فإنه لم يكن يجوز لأية سفينة أن تعبر المضايق دون دفع الرسوم المستحقة عليها(٥)، وكانت صادرات الامبراطورية تحت رقابة وضبط محكمين ... وهناك أنواع بعينها من الأقمشة لم تكن لتنزل إلى السوق بتاتاً وكان الأمر قاصراً على إرسالها إلى الخارج كهدايا تقدم بين حين وآخر إلى البلاطات الملكية الأجنبية. وقد حاول ليتوبراند الكريموني تهريب بعضا من الحرير من القسطنطينية، فكان جزاؤه أن صادرت السلطات الجمركية الحرير كله(٦).

وقد كان على والي المدينة الإشراف على التجار الأجانب إشرافاً دقيقاً. فكان عليهم

---

(1) cf. Liutprand,s Report op. cit pp.464-465.

(٢) عن إقالة رومانوس ليكابينوس انظر :

Ramband, A.i Lempire grec an xsiecle : Constantin Prophyro gente, paris 1870 P.20 seq.

(3) Litutprand,s Report. Op. Cit P.464.

(٤) رانسيمان، ستيفن المرجع السابق ص ٢٠٠.

(5) cf. Bury, J-1 The Eastern Roman Empire PP. 217-219.

(6) cf. Liutprand,s Report op-cit pp. 468 -469

أن يقدموا أنفسهم إلى ديوانه عند وصولهم، ولا يجوز لهم الإقامة بالمدينة إلا ثلاثة أشهر. وكل بضاعة يتركونها لتباع بعد هذه الفترة يتولى الوالي بيعها عنهم ، ثم يحتفظ بالمال عنده حتى السنة التالية. وكانت مشترياتهم تراقب من السلطات بكل عناية للتحقق من أنهم لم يخالفوا لوائح الجمارك(١).

وفي ظل هذه القيود المفروضة على التجارة البيزنطية حصل الأمالفيون على امتيازات خاصة وعلى إعفاء من العشور الدخولية، في مقابل ارتباطهم ببيزنطه من ناحية وما يؤدونه لها من خدمات سياسية من ناحية أخرى(٢). وقد استفاد تجار أمالفي من هذه الامتيازات كثيراً، ربما لدرجة أنهم كانوا يحصلون عن طريقها على البضائع والسلع التي تحتكر الدولة عملية الاتجار فيها أو الممنوع تصديرها بشكل نهائي، الأمر الذي تؤكده إشارات في التواريخ عن فضل الأمالفيين في جلب مثل هذه السلع الى الغرب وهو ما سنذكره في حينه(٣).

وفضلاً عن ذلك فان أمالفي بقيت مركزا للحضارة البيزنطية وترتب على ذلك أن هذه المدينة لم تتوقف عن السير في فلك القسطنطينية عبر المياه ، فكانت على حد تعبير هنري بيرين من الرعايا لجاذبية مدينة عظمى تطورت تحت تأثيرها(٤)، ومن السهل إدراك مدى استفادة أمالفي من التحالف مع عالم يختلف عن أوربا الغربية. فلهذا التحالف ليست أمالفي مدينة بالازدهار التجاري فحسب بل تعلمت ايضاً من بيزنطة المثل العليا للحضارة في ميادين الأعمال التجارية وأساليب التعامل، وكذلك في التنظيمين السياسي والإداري(٥).

---

(١) كتاب والي المدينة ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، مجلة كلية الأداب جامعة القاهرة المجد ١٩ ج١ مايو ١٩٥٧ ص ١٥٤-١٥٧

(٢) رانسيمان، ستيفن المرجع السابق ص ٢٠٥.

(3) cf. Liutprand,s Report Op. cit P. 469.

(4) cf. Pirenne, H.:Med.Cities PP.83.84 88

(5) Ibid P. 85, 88

نعود مرة أخرى إلى متابعة تطور علاقات أمالفي بالمسلمين في جزر البحر المتوسط وشمال إفريقيا والمشرق لما لهذه العلاقات من أهمية في تبيان سبل التعامل التي كانت قائمة في هذه الفترة الأولى بين الأمالفيين والمسلمين بصفة عامة، وكذلك التعرف على جذور العلاقات مع الشمال الإفريقي، ثم تطورها مع الفاطميين الذين اقاموا دولتهم الأولى في هذه الجهات، قبل أن يذهبوا لإقامة خلافة قوية في مصر والشام، عاصرت الفترة موضوع البحث شطراً كبيراً منها. فهذه العلاقات الأمالفية الإسلامية كان لابد وأن تمر عبر مراحل التطور السابقة حتى تصل إلى الوضع الذي حظيت به أمالفي سواء في علاقاتها مع حكام مصر والشام أو في شهرة مراكزها التجارية ومنشآتها الواقعة في هذين البلدين.

وفي هذا الصدد يلاحظ أن الأمالفيين بعد الهجوم الإسلامي ضد سالرنو كان موقفهم من القضية المسيحية معدوماً ، واتجهوا منذ ذلك الحين إلى توطيد أواصر الصداقة مع المسلمين. فلا بالنصح ولا بالتهديد ولا بالأموال التي حصلوا عليها، كل ذلك لم يجعل بلكاري، الذي شهد عصره تطور أمالفي الاقتصادي، يقوم بأي حركة لنصرة القضية المسيحية على حساب مصالح أمالفي واهتماماتها التجارية وعرض مدينته بأسرها للحرمان، بسبب هذا الموقف مما يبين مقدار عظمة الاهتمامات الخاصة في هذا المجال(١). فقد تعامل الأمالفيون بموجب عقد وضعوا في موازينه الاهتمامات التي كانت تربطهم بالمسلمين من ناحية، وواجبهم إزاء المسيحيين وإزاء الجانب المتفق معه منهم والأهمية الخاصة بتسويق تجارتهم في الدولة البابوية من ناحية أخرى وكثيراً ما كانت الكفة الأولى هي الراجحة بالنسبة لهم(٢).

وقد عبر عن هذه السياسة عهد مانسوكتي فوسيلز الذي تميز بنمط جديد للعلاقات مع

(1) cf. Berza. M. : Op. Cit. P.426.

(2) Ibid Idem.

المسلمين. فالحملة العنيفة لأمير القيروان إبراهيم بن أحمد في كالابريا (قلورية) في عام (٩٨٢م - ٢٠٩هـ) وتقدمه حتى كوسنزا أثارت الرعب في كل إيطاليا الجنوبية فأرسلت اليه عدة مدن مندوبيها من أجل التفاوض(١)، وكان من بين هذه المدن أمالفي وسالرنو ونابلي على أساس أنها أكثر مدن الجنوب الإيطالي عرضة لخطر هذا الغزو(٢). وعلى أية حال لم تسفر هذه الحملة عن أية نتائج بسبب وفاة قائدها(٣). لكن نتيجة للإحساس الناجم عن تجدد الخطر العربي تشكل تحالف صغير ضد المسلمين وفي هذه الظروف اختفت مستعمرة اجريبول Agropoli دون معرفة متى وكيف، لكن المؤرخ م.شيبا يقرر أن ذلك تم على يد جوماريو الثاني بمساعدة الأمالفيين(٤)، ثم تكرر هذا الحدث ضد مستعمرة جارجليانو، فشكل الأمالفيون والنابوليتان أهالي كابوا تحالفا ضد هذا الموقع تحت إمرة كونت كابوا اتينولف Atenalfo. وفي يونيو عام (٢٠٩م - رجب ٢٩٠هـ)، قام هؤلاء الحلفاء بحصار جارجليانو، فباغتهم المسلمون أثناء الليل بمساعدة جايتا وأجبروهم على الانسحاب ثم طاردوهم حتى الجسر الذي عبروا عليه، فاستدار لهم الأمالفيون وحلفاؤهم وقاوموهم مقاومة أجبرتهم على التراجع، وانتهت الحملة دون نتيجة تذكر(٥)، ورغم ذلك فإن اشتراك القوات الأمالفية في هذا التحالف ضد المسلمين لم يؤثر كثيراً فيما يبدو على علاقاتهم التجارية مع هؤلاء الاخيرين سواء في شمال إفريقيا أو

(1) cf. Amari, M. : Op. Cit. 11 P.3. seq.

أماري، ميشيل : المكتبة العربية الصقلية ج١ ص٣٩٢

(2) cf. G. gay,I. :Op. Cit. P.157.

Berza. M. : Op. Cit. P.428.

(3) Ibid Idem

(4) cf. Mezzo Giorno d. I talia P. 104.

(5) cf. Amari, M. : Op. Cit 11 P.163.

Also : Fedele, P. : La Battaglia del Garig Liana

dell, Anno 915 ed i monummenti che la ricordano, in Arch - della R - Soc - Romana - di st - Patria XX11, 1899 P.185.

المشرق حيث مصر والشام. وما يمكن أن يكون قد حدث هو فترة مقاطعة قصيرة الأمد استؤنفت بعدها هذه العلاقات مما يقلل من أهمية جانب الحرب مع المسلمين بالنسبة لمصالح أمالفي الاقتصادية والتجارية.

على أية حال بينما كانت علاقات أمالفي بالمسلمين في تلك الفترة قد تطورت على هذا النحو، كان الوضع السياسي للمسلمين في شمال إفريقيا وجزيرة صقلية وجنوب إيطاليا قد أخذ يتغير بانتقال مقاليد الحكم من يد الاغالبة والأسر الأخرى الى أيدي الفاطميين الذي توطدت في ظلهم بدرجة أكثر العلاقات الأمالفية الإسلامية في هذه المنطقة ثم في مصر والشام لانتهاجهم سياسة أكثر تحرراً إزاء الأجانب من ناحية، وتشجيعهم مختلف التطورات في المجالات الاقتصادية من ناحية أخرى.

فبعد أن مهد أبو عبدالله الشيعي الأمور في المغرب للشيعة الفاطميين واجتذاب الأتباع لمذهبهم خصوصاً بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب وولاية زيادة الله بن الأغلب الذي شغل عن أحوال البلاد باللهو واللعب، قَدِم عبيدالله المهدي من سليمة بأرض حمص إلى المغرب مارا بمصر، متستراً في زي التجار(1)، وبعد عدة وقائع وحروب زال ملك بني الأغلب من إفريقيا وملك بني مدرار في سجلماسة، وملك المهدي جميع ذلك، وقسم أعمال إفريقيا ودون الدواوين وجبى الأموال واستقرت قدمه ودانت له أهل البلاد وباشر الأمور بنفسه(2).

وكان ابتداء الدولة الفاطمية في إفريقيا عام (٩٠٩م - ٢٩٦هـ) بخلافة المهدي أبي محمد عبيدالله، الذي قام ببناء المهدية على ساحل البحر في الثاني عشر من (مايو

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا، تحقيق جمال الشيال، دار الفكر العربي ١٩٤٨ ص ٧٤ - ٨١ أيضاً : تاريخ القضاعي، مخطوط ورقة ٤٧.

(٢) المقريزي : المصدر السابق ص ٨٩ - ٩٧.

أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٦٦-٦٧.

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر القسم الأول المجلد الرابع،

دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨م ص٧٦-٧٨.

٦١٩م - ٥ ذي القعده ٣٠٣هـ) واتخذها قاعده لسلطان الفاطميين هناك لحصانتها(١)، وقد أصبحت المهدية أقوى مركز بحري إسلامي للعمليات البحرية في حوض البحر المتوسط، وقام هذا البلد بعبء الكفاح ضد النصرانية، ومنه خرجت أقوى الحملات الإسلامية على جنوب إيطاليا(٢).

هذا فضلاً عن أن الفاطميين ورثوا عن الأغالبة تركة بحرية هائلة حافظوا عليها وحرصوا على تنميتها(٣)، مما جعلهم قوة بحرية لها وزنها في غربي البحر المتوسط في ذلك الوقت، وكان في مقدورها الاتصال والتعامل مع القوى المختلفة في هذه المنطقة وكذلك الحفاظ على الأملاك التي ورثوها عن الأغالبة في جنوبي ايطاليا وصقلية(٤)، فقد استولى الفاطميون على مالطة وكالابريا عن طريق مؤيديهم من البربر، كما استولوا على صقلية اثر فتنة ضد واليها الأغلبي(٥)، حيث أدرك خلفاؤهم أهمية هذه الجزيرة في الجهاد الذي جعلوه دعامة من دعائم العقيدة الإسلامية الشيعية(٦).

وإبّان هذا الصدام بين الفاطميين من ناحية، وبين البيزنطيين الذين أخذوا يعملون من اجل استعادة مكانتهم في جنوبي إيطاليا أو نصراني الغرب اللاتيني من ناحية اخرى، كان موقف الأمالفيين مغايراً لما كان عليه الحال من قبل بدرجة أكبر ازداد حرصهم على الاحتفاظ بجانب العلاقات الطيبة مع الفاطميين. ففي أغسطس عام (٩١٥م - صفر٣٠٢هـ) امتنع الأمالفيون عن الإنضمام أو المشاركة بأي عمل في تحالف ضم كل

---

(١) أبو الفدا : المصدر السابق ص ٦٧، ٧٢

القضاعي : المصدر السابق ورقة ٤٧

ابن الراهب : تاريخه، بيروت ١٩٠٣م ص٧٨، .

(٢) حسين مونس : المرجع السابق ص ١٠٤.

(٣) إبراهيم العدوي، الأساطيل الغربية في البحر الأبيض المتوسط، القاهرة ص١١٥-١١٦.

(٤) المرجع السابق ص١١٧-١٢١

(٥) أبو الفدا : المصدر السابق ج٢ ص٧٠

(٦) عبدالمنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ١٧٥ - ١٧٦.

قوات إيطاليا الجنوبية. وكان المحرض على قيام هذا التحالف نيقولا بيشنجلي Nicola Picingli الراعي الإمبراطوري البيزنطي (Patrizio) بتعضيد من البابا(١).

هذه الحملة الناجحة التي أسفرت عن تدمير المركز العربي في جاريجليانو كان الأمالفيون هم الوحيدين من سكان إيطاليا الجنوبية الذين لم يلعبوا دورا فيها، مما يؤكد استمرار علاقات الصداقة مع الفاطميين الحكام الجدد لهذه المناطق.

ويذكر المؤرخ مياهي برزا أن هذه العلاقات كانت ذات نمط مختلف تماماً عما كانت عليه الحال في عهد بلكاري حاكم المدينة عندما كانت موانيء الساحل الكمباني في مأمن من القراصنة (يقصد المسلمين)(٢)، ونفس بريفيتور أمالفي الذي امتنع عن القيام بأي دور ضد المسلمين في معركة جاريجليانو، إبنه وخليفته مانسوني فولسيز تسلم من نيقولا الستيكي بطريرك القسطنطينية رطلاً من الذهب كي يستمر في تحرير الأسرى المسيحيين من أيدي هؤلاء المسلمين(٣)، مما يدل على أن الأمالفيين كانوا ايضاً مقربين من الحكام المسلمين بالقدر الذي مكنهم من القيام بدور الوساطة في هذا الصدد.

ويظهر ذلك بوضوح في ثنايا ما حدث أثناء الحملة الإسلامية عام (٩٢٨م - ٣١٦هـ) ضد سالرنو ونابلي. إذ أن هاتين المدينتين اضطرتا إلى الحصول على السلام بالمال والعطايا السخية(٤)، بينما لم تعان أمالفي من أي أضرار جانبية من جراء هذه الحملة

(1) cf. Berza. M. : Op. Cit. P.428.
Also : Fedele, P. : Op. cit PP. 188-189.
Fedele, P. : La battaglia del Gariglione dell anno 915 ed i mon menti che la ricordono, in Arch - de - Ila R- Soc - Romama dist. Patria, XX11 1899.
(2) cf. Amalfi Preducale PP.428-429
(3) cf. Camera, M. : Op. Cit. 1 P.127.
Also : Gay, 1. : Op. Cit. P.250.
Berza. M. : Op. Cit. P.429.
(4) cf. Schipa, M. : Mezzogiarne d. talia P. 104

مع أن ثراء هذه المدينة المعروف عنها كان مدعاة لجذب الغزاة اليها(١).

وإذا كان ذلك هو موقف أمالفي والحال بالنسبة لها أيضاً في حملات الفاطميين التي كانت ضد مناطق مجاورة لهذه المدينة وعلى مقربة منها، فإن هذا الموقف ظل هو السائد أيضاً بالنسبة لحملات أخرى كتلك التي قام بها الفاطميون ضد جنوه في عام (٩٣٥م- ٣٢٣هـ)، حيث فتحوا هذه المدينة وأوقعوا بأهلها السبي "وعظم صنع الله في شأنها"، وكذلك كان الحال بالنسبة لسردينيا (سرادنية) أثناء مرورهم بها "فأثخنوا فيها وأوقعو بأهلها"(٢).

والأكثر من ذلك، فإنه في الوقائع والأحداث التالية بين البيزنطيين والفاطميين في غربي البحر المتوسط. فإننا لانجد ما يشير من قريب أو بعيد أن الأمالفيين تحالفوا أو لعبوا دوراً لصالح البيزنطيين ضد الفاطميين بحكم احتفاظهم بالتبعية لبيزنطه وذلك حينما اتجه البيزنطيين إلى القيام بعدة محاولات لاستعادة ما ضاع من أملاكهم في جنوب إيطاليا وصقليه وخصوصاً في عهد الإمبراطور نقفور فوكاس(٣).

وهكذا أبقى الأمالفيون على علاقات الصداقة مع الفاطميين حفاظاً على مصالحهم التجارية في شمال إفريقيا وفي غربي البحر المتوسط ووسطه وقد قُيِّض لأهل هذه المدينة الإيطالية من جراء سياستهم هذه أن يتسع مجال نشاطهم في ظل هذه الصداقة، ليشمل شرقي البحر المتوسط أيضاً متمثلاً في مصر والشام، فالخلفاء العبيديون وهم منشغلون بتثبيت دعائم سلطانهم في المغرب كانت أنظارهم وقلوبهم متجهة الى الشرق معبِّرين عن مشاعرهم هذه في خطب لهم(٤)، وقد عملوا على تحقيق هذه الرغبة من

(1) Berza. M. : Op. Cit. P.429.

(٢) أبوالفدا : المصدر السابق ج٢ ص ٨٨، المقريزي المصدر السابق ص١٠٨

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٥، ١١-١٢

ابراهيم العدوي : المرجع السابق ص ١١٧ - ١١٨

(٤) ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسائل : نشره وعلق عليه على بهجت، القاهرة ط١ ١٩٠٥ ص ٨٤-٨٥

الناحية العملية كلما سنحت لهم الفرصة، ففي عام (٩١٣م - ٣٠١هـ)، "جهّز المهدي العساكر من إفريقيا مع ولده أبي القاسم إلى مصر"، فساروا إلى الإسكندرية والفيوم وضيقوا على أهلها إلى أن جاء مؤنسا الخادم من قبل الخليفة العباسي "فحاربهم واجلاهم عن مصر(١)، وتكررت هذه المحاولة من جانب الفاطميين في العام التالي (٩١٤م-٣٠٢هـ) دون جدوى(٢)، ثم أعادو محاولاتهم بشكل مكثف وبقوات من البر والبحر في عام ٩١٨م - ٣٠٦هـ تحت إمرة أبي القاسم بن المهدي الذي وصل إلى الإسكندرية ودخلها ثم توجه جنوباً فدخل الجيزة وملك الأشمونين وكثيراً من الصعيد ورغم تقدم الجيش الفاطمي على هذا النحو إلا أن الأمر انتهى بهزيمته على يد مؤنس الخادم ايضاً بعد عدة وقعات. كما وقع فيهم الوباء والغلاء فمات كثير منهم ورجع من بقي إلى إفريقيا وفيهم القائم(٣).

وخلال هذه الفترة كانت دولة الطولونيين (٨٦٨ - ٩٠٥م- ٢٥٤ - ٢٩٢هـ) قد أصابها الوهن فعادت مصر والشام إلى الخلافة العباسية. وظل الحال على ذلك ثلاثون عاماً حتى نجح محمدين طغج الإخشيدي من الانفراد بهما وأقام الدولة الاخشيدية (٩٣٥ - ٩٦٩م- ٣٢٣ - ٣٥٧هـ)(٤).

وقد شهد عهد الإخشيديين نشاطاً هائلاً في تجارة الشرق، ذلك أن نشاط التجار العرب والفرس واليهود الذي كان قائماً في البحر الأحمر زمن الطولونيين ازداد واتسع

(١) اتعاظ الحنفا : ص٩٨-٩٩، ابن خلدون ق١ م٤ ص ٧٨
أبو الفدا : المختصر ج٢ ص٧٣-٧٤
القضاعي ورقة ٤٧ ٤٨
(٢) اتعاظ الحنفا ص٩٩ - ١٠٠، القضاعي ورقة ٤٨
(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج٨ ص ٤٢، اتعاظ الحنفا ص١٠٣ - ١٠٤
(٤) السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات بمصر ج١ ص١٠-١١
ابو الفدا : المصدر السابق ج٢ ص٨٨.

نطاقة في ذلك العهد، ولم يتأثر وضع هؤلاء التجار بتغير واجهة الحكم في البلاد(١)، كما وفد على مصر أيضاً بعض تجار الشام اليهود وقاموا بدور هام في تجارة المرور بين مصر والشرق وكوّن بعضهم ثروات طائلة من وراء هذه التجارة(٢)، وخير دليل على ازدهار تجارة مصرفي ذلك العهد ما أورده المقريزي عن ازدحام أسواق الفسطاط بحاصلات تجارة الشرق(٣)، وما ذكره "إبن زولاق" في تاريخه عن حادث الحريق الذي شب في أحد هذه الأسواق، ففي وصفه لهذا الحادث تأكيد لما ذهب اليه المقريزي في هذا الصدد(٤).

وكانت الدولة البيزنطية برغم سوء علاقاتها مع مصر بحاجة إلى المصنوعات المصرية الممتازة التي تنتجها مصانع تنيس ودمياط، ويقبل عليها الأباطرة لتزيين قصورهم. واحتلت المنسوجات المصرية مكانة مرموقة في أسواق القسطنطينية حيث كان المصريون يجلبون الفراء الوارد من بلاد الروس. وكان بالفسطاط حي يقيم فيه تجار الروم(٥)، وقد جرت مراسلات في عام (٩٣٧م - ٣٢٥هـ) بين الإخشيد وإمبراطور الدولة البيزنطية(٦)، ترتب عليها تسهيلات مُنحت للتجار التابعين لبيزنطة، وكان من بين هؤلاء تجار من الأمالفيين وأهل البندقية الذين كانوا يتخذون من العاصمة الإمبراطورية قاعدة يوجهون منها نشاطهم في كل اتجاه ممكن(٧)، وذلك كرعايا تابعين لبيزنطة يجري عليهم ما يجري على تجار الروم في المعاهدات المبرمة، عن طريق حرصهم على الاستفادة من هذه

(١) سيدة الكاشف مصر في عصر الإخشيديين، ط٢ القاهرة ١٩٧٠م ص٢٩٣ ستانلي لينبول : سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين القاهرة ١٩٥٠، ص٩٧

(٢) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر، القاهرة ١٩٧٦، ص٧٩.

(٣) الخطط، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ج١ ص ٣٣٠ -٣٣٣.

(٤) انظر عطية القوصي : المرجع السابق ص٨٠

(٥) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج٤ ط١ القاهرة ١٩٦٧م ص٤٠٨.

(٦) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج١ ط١٦٩. القلقشندي صبح الأعشى ج٧ ص١٣

(7) cf. Cam. Econ. Hist. of Europe, Vo1 111 p. 61

التبعية واحتفاظهم بلقب "المواطنين البيزنطيين" Sudditi di Bisanzio(١).

ولم يكن الأمالفيون في هذا الصدد حديثي عهد بالتجارة في مصر والشام إذ أن التواريخ تشير إلى وجود جالية أمالفية في أنطاكية منذ القرن التاسع، وأن ماورو الأمالفي كان قساً لهذه المدينة قبل أن يتولى مقاليد الحكم فيها في النصف الثاني من القرن التاسع(٢)، ورغم ذلك فإن وليام هايد يدعو إلى الحذر وعدم الافراط في التفاؤل بأن ذلك كان دليلا على قيام تجارة متقدمة لأمالفي في هذه المنطقة(٣)، وعلى كل فإنه يمكن القول إن الأمالفيين تاجروا مع مصر والشام وخبروا أحوال هذه البلاد قبل مجيء الفاطميين اليها. ومن المعقول جداً أن يكونوا قد بدأوا هذا النشاط في القرن التاسع اذا ما تذكرنا أن مدينة نابلي (وقت أن كان الأمالفيون تابعين لها)، كان لها تجارة مع مصر منذ القرن الثامن ـ كما سبقت الاشارة ـ وإذا ما وضعنا في الاعتبار أيضاً تجارتهم عبر الدولة البيزنطية سواء كتجار بيزنطيين أو مستقلين بأنفسهم فإن الطريق كان ممهداً بالنسبة لهم كي يتسع نشاطهم من خلال علاقاتهم مع الفاطميين، قبل قدوم هؤلاء الأخيرين إلى مصر والشام خصوصا وأن لديهم خبرة سابقة بأحوال التجارة في هذين البلدين. على أية حال استغل الفاطميون في شمال إفريقيا فرصة وفاة كافور الإخشيدي واضطراب الأحوال في مصر(٤)، فأرسلوا قواتهم بقيادة القائد جوهر الذي نجح في دخول مصر في يوليو ٩٦٩م شعبان ٣٥٨هـ حيث"أقيمت الدعوة للمعز وزالت دعوة بني العباس" من على منابرها(٥).

---

(1) cf. Berza, M. : Op - cit P - 411, 41, 435.

(2) cf. Chroie - Amalph - Op - Cit C. G. Dominus Sergins filwo donini Petri Comitis, Filbi Mauri Vivaru Antiochem. M. Berza P.374.

(3) cf. Histoire du Commerce de Levant an Mayen Age, Tome I P. 107 n.2

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٥، أبوالفدا ج٢ ص١١٣، ١١٥ السيوطي : المصدر السابق حسن المحاضرة ج١ ص١٣، ابن خلدون ق١ م٤ ص٩٩

(٥) عن تفاصيل الفتح الفاطمي لمصر انظر :
اتعاظ الحنفا ص١٣٦ - ١٤١ أبو الفدا ج٢ ص١١٥

وبعد أن فتح الفاطميون مصر وثبتوا أقدامهم فيها كان لابد أن يتطلعوا لمد دعوتهم إلى البلاد الشامية وضمها إلى حكمهم وهو أمر تمليه الظروف السياسية والأسباب الاستراتيجية إلى جانب أن توحيد مصر والشام تحت حكومة واحدة كانت ظاهرة تاريخية تكررت في العصور السابقة(١)، فأرسلت القوات الفاطمية بقيادة جعفر بن فلاح للقيام بهذه المهمة، فتمكن من الاستيلاء على الرملة وطبرية ودمشق في (نوفمبر ٩٦٩م - محرم ٣٥٩هـ)(٢)، ثم امتد النفوذ الفاطمي بعد ذلك إلى حلب وحمص(٣).

وقد تعرض النفوذ الفاطمي في الشام لأخطار القرامطة والبيزنطيين وجرت حروب ووقعات بين الفاطميين وأعدائهم انتهت بنجاح الفاطميين في القضاء على مقاومة الإخشيديين والقرامطة واستمالة عدد من القبائل العربية الضاربة هناك(٤)، وبعقد معاهدة صلح مؤقتة مع البيزنطيين في عام (٩٨٧م - ٣٧٧هـ) مدتها سبع سنوات(٥).

وفيما يتعلق بمساعي الفاطميين إلى إتمام سيطرتهم على بلاد الشام، فقد حاولوا الاستيلاء على أنطاكية عام (٩٨٠م - ٣٧٠هـ)، لكن فشلت محاولاتهم(٦)، بينما نجحوا في استرداد اللاذقية التي كانت قد أعلنت تبعيتها للإمبراطور باسيل الثاني(٧)، وحاول

(١) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي، اسكندرية ١٩٦٦ ص٦٢

(٢) ابن الأثير ك الكامل ج٧ ص٣٠ - ٣٢، القضاعي ورقة ٥١ - ٥٢
اتعاظ الحنفا ص ١٦٨- ١٧٨، ابن خلدون ق١ م٤ ص١٠٠ - ١٠٢

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص١٧٩
وفيها اصطلح قرعوية - مولى سيف الدولة بن حمدان - متولي حلب وأبو المعالي شريف بن سيف الدولة، فخطب له قرعوية بحلب وخطبا جميعاً للإمام المعز بحلب وحمص.

(٤) ابن خلدون ق١ م٤ ص١٠٣ -١١٤، أبو الفدا : ج٢ ص ١١٩ - ١٢٠
القضاعي ورقة ٥١ -٥٣، السيوطي: حسن المحاضرة ج١ ص١٤

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٥١ -١٥٢

(٦) يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ١٦١

(٧) المصدر السابق ص١٦١ -١٦٣

الفاطميون الاستيلاء على حلب عام (٩٨٣م ـ ٣٧٣هـ)، غير أن ذلك لم يتحقق لهم(١)، إلا عندما اعترف سعد الدولة الحمداني بالسيادة الفاطمية ليتخلص من تبعيته للبيزنطيين لذلك سرعان ما تجدد الصراع مع هؤلاء الاخيرين بعد أن تعرضت أملاكهم في الشام لخطر التقدم الفاطمي وظل هذا الصراع قائماً تتخلله فترات هدنة أو معاهدات صلح وعلاقات تجارية إلى أن تلاشى نفوذ كل من الفاطميين والبيزنطيين من الشام كلية(٢).

وما يمكن استنتاجه من تفاصيل هذه الأحداث هو أن الفاطميين بسطوا سلطانهم على معظم الشام بعد أن تم لهم القضاء على مقاومة المناوئين.

وامتد حكمهم إلى شمال الشام بعد أن نجحوا في مد سلطانهم على كثير من المدن والمراكز الساحلية حتى مدينة طرابلس(٣)، ومن ثم أصبحوا على اتصال مباشر بالبيزنطيين الذين ظلوا محتفظين بالسيطرة على بعض المدن الهامة في شمال الشام، وقد عبر عن الوجود الفاطمي في هذه المناطق ومجاهدة هؤلاء الفاطميين للبيزنطيين الإمبراطور البيزنطي حنا تزيمسكسي (الشميشق) (٩٦٩ ـ ٩٧٦م) في خطابه عن حملته على الشام إلى الملك الأرميني أشوط الثالث إذ يذكر أن المقاومة الرئيسية التي صادفها في فلسطين جاءت من جانب "الأفارقة الملاعين" يقصد القوات الفاطمية، كما ذكر أن القوات التي قاومته في طرابلس كانت قوات "افريقية" أي فاطمية ايضاً(٤)، وهذا الامتداد للحكم الفاطمي على المراكز الساحلية في الشام كان مسألة طبيعية بسبب قوة

(١) ابن القلانسي ك ذيل تاريخ دمشق ص٢٨ - ٢٩
يحيى بن سعيد الأنطاكي : ص١٦٣ - ١٦٤
(٢) انظر هذه العلاقات بالتفصيل في :
أحمد عبدالكريم سليمان : المسلمون والبيزنطيون ج١ ط القاهرة ١٩٨٢ ص ١٧٦ - ٢٠٨
(٣) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٢٥٤، ابن القلاسي : المصدر السابق ص١٠
(٤) انظر نص هذا الخطاب في :
chromigue de matther d,Edesse in R.H.E
doc. Armemieus, Tomel, pp.13 -21

البحرية الفاطمية في عهد المعز(١).

وخلاصة الأمر هو أن مصر والشام في الفترة موضوع البحث كانتا تابعتان للخلافة الفاطمية التي كان للأمالفيين علاقات معها قامت في شمال إفريقيا مما كان له أبعد الأثر في مسار هذه العلاقات في الفترة التالية. وإذا كانت بعض مدن الشام قد بقيت تابعة للسيادة البيزنطية فإن هذا الوضع لم يخلق أي مصاعب بالنسبة لأمالفي إذ أنها كانت من الناحية الإسمية لا تزال تابعة - كما تقدم - للإمبراطور البيزنطي، كما حظيت بوضع متقدم لدى البيزنطيين ظلت محتفظة به حتى خضوعها للنورمان في الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي.

ويضاف إلى ذلك أمر على جانب كبير من الأهمية وهو اهتمام الفاطميين بالتجارة والنشاط البحري. فقد تمكن هؤلاء "العلويون" من سيادة الحوض الشرقي للبحر المتوسط سيادة تامة امتنت أمواجه، فجرت السفن بالمتاجرة ما بين شواطئ الشام ومصر ونشطت الموانئ والثغور نشاطاً عظيماً، لم تبلغه في فترة ماضية، فاتسعت أنطاكية وطرابلس وعسقلان وتنيس اتساعاً كبيراً وعظمت تجارتها، كما تقدمت نتيجة لهذا النشاط البحري - صناعة السفن الاسلامية، ومن ثم زادت حاجتهم إلى خشب السفن الذي كان يأتيهم من أوربا عن طريق التجار الإيطاليين وخصوصاً البنادقة والأمالفيين. ويُعزى ذلك كله في نظر البعض إلى أن الفاطميين كانوا بطبعهم أصحاب عناية بالاقتصاد وشؤونه، وكانوا ذوي حرص على الصناعة، حتى لقد ضمت خزائنهم ما أحصى المقريزي بعضه في صفحات كثيرة من خططه وربما كان ذلك هو السر في ارتفاع أمر التجارة والتجار في عصرهم. فقد كانوا في سياستهم العامة أميل الى مصالحة البيزنطيين في موانئ الإسلام وبعض مدنه، ونجد تجار المسلمين يدخلون أراضي الدولة البيزنطية

(١) عن الأسطول الفاطمي في عهد المعز انظر :
المقريزي : الخطط ج٢ ص١٩٣

ويتاجرون معها في حرية تامة. أي أن الفترة الفاطمية تعتبر فترة الازدهار في النشاط البحري التجاري الإسلامي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط(١).

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق ص ١٠٥

الفصل الثاني

العلاقات بين أمالفي ومسلمي مصر والشام

﴿٩٩٦ - ١٠٧١م)/ ٣٨٦ - ٤٦٣هـ﴾

- العلاقات الأمالفية الفاطمية حتى عام ٩٩٦م - ٣٨٦هـ.

- رحلة ليو الأمالفي إلى مصر وأهميتها بالنسبة لموضوع العلاقات.

- وضع أمالفي السياسي والتجاري في بيزنطة وأثره على علاقاتها بمصر والشام.

- اشتراك الأمالفيين في مؤامرة حريق الأسطول الفاطمي عام ٩٩٦م - ٣٨٦هـ.

- تقييم لدور الأمالفيين وأثر ذلك على علاقاتهم بالمنطقة.

- أدلة تاريخية تؤكد استمرار علاقات أمالفي التجارية بمصر والشام.

- الموقف بالنسبة لأمالفي في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

- مساعي الأمالفيين لدى الخلافة الفاطمية للحصول على مقر لهم في بيت المقدس - دور المنشآت الأمالفية في العلاقات بين الطرفين.

- وثائق في الجنيزا تؤكد تردد الأمالفيين على مصر بغرض التجارة على فترات متقطعة.

- دليل على تبادل الخبرات والعمالة بين أمالفي والمسلمين في مصر والشام - والمؤثرات الناجمة عن ذلك بالنسبة للعلاقات بينهما.

إن تحديد عام (٩٩٦م ـ ٣٨٦هـ) كبداية للفترة الزمنية موضوع البحث لا يعني بالضرورة أن العلاقات بين أمالفي والمسلمين في مصر والشام بدأت فقط من هذا التاريخ. وإنما كما رأينا من خلال العرض التاريخي للتطورات السابقة على هذا التاريخ في الفصل الأول، أن هذه العلاقات بدأت في القرن التاسع الميلادي / الثالث الهجري(١)، وخصوصاً بعد ان استقلت أمالفي عن دوقية نابلي، ووضعت لنفسها سياسة خاصة في علاقاتها مع العالم الخارجي دون أن يؤثر في ذلك كثيراً تبعيتها للإمبراطورية البيزنطية التي كانت ـ كما هو معروف ـ تبعية اسمية ولم تشكل عقبة في طريق هذا الاستقلال بأي حال من الاحوال.

واتخاذ الباحث هذه السنة (٩٩٦م) نقطة للبداية يرجع إلى وجود دليل ثابت في المصادر العربية يؤكد وجود الأمالفيين في مصر مركز الخلافة المهيمنة على أمور مصر والشام في ذلك الوقت بأعداد كبيرة، وفضلاً عن ذلك، فإن هذا الدليل يشير إلى أن هولاء التجار الذين نعنيهم بالدراسة لم تقتصر علاقاتهم بهذه البلاد على التجارة بل تطرقوا أيضاً إلى المجال السياسي ولعبوا فيه دوراً لصالحهم، مستغلين الحرب القائمة بين أكبر قوتين بحريتين في البحر المتوسط هما : بيزنطة والفاطميون.

ومع ذلك لا يمكن إغفال تلك الإشارات التي ترجع إلى فترات سابقة على هذا التاريخ إذ أن أهميتها بالنسبة لموضوع البحث لا تقل أهمية عما يلي بداية التحديد الزمني له، ففضلاً عن أن هذه الاشارات التاريخية تعد جذوراً تطورت عنها العلاقات الأمالفية الاسلامية، فإننا كثيراً ما نسترشد بها في محاولاتنا لإماطة اللثام عن بعض الجوانب

(1) cf. Mas Latrie, De M. L. I. Tralites de paix et de Comme ce et Documentes Divers Coucernant les
Relaions des chretiens aves les Arabes de A frique Septentrionale au moyen Age, Paris 1866. p.11
Aalso : Camera, m. : Op cit 1 PP. 92 - 93

في هذه العلاقات اكتنفها الغموض بسبب ندرة الوثائق أو التواريخ، مشكلة أي باحث في موضوع من هذا القبيل.

والفترة الهامة في تاريخ هذه العلاقات والسابقة على عام (٩٩٦م)، والتي ينطبق عليها هذين الأمرين أكثر من غيرها تبدأ مع الفتح الفاطمي لمصر والشام، حيث ظهرت عوامل جديدة كان لها أثرها في تشكيل العلاقات بين الطرفين الأمالفي والفاطمي ثم تطورت هذه العلاقات لتصل الى أوجها مع بدايات القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، وتتمثل هذه العوامل بشكل عام في :

(١) التسامح الديني الذي امتازت به سياسة الخلفاء الفاطميين، فأطلقوا لأهل الذمة الحرية في شتى مظاهرها، بل وصل بهم الأمر إلى الاعتماد على أشخاص منهم، سواء كانو مسيحيين أم يهوداً في تسيير دفة الامور في دولتهم في المجالين السياسي والاقتصادي(١)، وقد ساعد ذلك كثيراً على ازدياد الارتباط مع الدول الاوربية وفي مقدمتها أمالفي التي كانت على صلات طيبة بهم قبل قدومهم إلى مصر، واستغل هؤلاء جميعاً هذه السياسة للإفادة منها في الميدان الاقتصادي، كما فتحت البلاد أبوابها للتجار والأجانب يفدون عليها من أوروبا والشرق حاملين سلعهم القيمة والنافعة.

(٢) قيام الدولة الجديدة كفل توافر عنصري الأمن والاستقرار في داخل البلاد، وهو عامل وثيق الصلة بالتقدم الاقتصادي، خصوصاً في مجال التجارة.

(٣) أصبحت مصر منذ ظهور خلافة الفاطميين فيها دولة مستقلة تمام الاستقلال،

---

(١) من هؤلاء على سبيل المثال عيسى بن نسطورس الذي رفعه الخليفة العزيز إلى كرسي الوزارة وهو نصراني، انظر : المقريزي : اتعاظ الحنفا ١٩٧ - ٣٠٠ أيضاً : حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر، القاهرة ١٩٣٢ ص ١٩٩ -٢٠٣ ومن اليهود يعقوب بن كلس الذي وصل هو الآخر إلى مرتبة الوزارة. وقد كان قبل مجيء الفاطميين إلى مصر وكيلاً للتجار ثم تولى تنظيم كافة الشئون والنظم المالية والإدارة والقانونية للدولة الفاطمية: انظر : المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٩٦ ، ١٩٨ - ١٩٩

أيضاً : نعيم زكي : دور اليهود في تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب، القاهرة ١٩٧١، ص ٤١ -٥٢ كذلك : حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ص٢٣٦

ولها حكومة ربطت مصلحتها بمصلحة البلاد، ورسمت لنفسها سياسة متشعبة النواحي، ومن ثم تستطيع أن تتخذ لنفسها الخطة التي تساعد على تنمية علاقاتها التجارية مع مختلف الدول. كما تستطيع هذه الحكومة المستقلة في مصر أن تضع لنفسها سياسة جمركية ثابتة، تمكنها من إنشاء العلاقات مع الدول التي ترجو من وراء الاتصال بها نفعاً، كأن تعمل على تخفيض الرسوم على التجارة مثلاً ،وغير ذلك مما لايتيسر لو كانت البلاد تابعة لغيرها كالخلافة العباسية فتضطر إلى مجاراة سياسة الدولة صاحبة السيادة عليها حتى ولو لم يكن لمصر في ذلك أدنى مصلحة(١).

ومن ناحية أخرى فإن الأمالفيين من خلال علاقاتهم المبكرة مع الفاطميين منذ أن أقام هؤلاء الاخيرون دولتهم في الشمال الافريقي، تمكنوا من أن يضعوا دعائم راسخة لهذه العلاقات، مؤداها السعي من أجل كسب ثقة قصر الخلافة ونيل الحظوة لدى رجاله. وقد عبر عن ذلك المؤرخ وليم هايد بقوله إن المناطق المجاورة لساحل شمال إفريقيا كانت من الناحية الطبيعية مركز جذب للأمالفيين، وأن علاقاتهم التي أقاموها مع المسلمين في هذه المناطق كانت استعدادا ممتازا أو تهيئة للعلاقات التي ربطتهم فيما بعد بأهالي مصر والشام(٢). وفضلاً عن ذلك تحققت للأمالفيين فوائد أخرى من جراء حرصهم على الاحتفاظ بجانب العلاقات الطيبة مع المسلمين، أهمها وصولهم إلى وضع سياسي واقتصادي متفوق في مصر والشام في وقت مبكر، لم تتعرض فيه للمنافسة من جانب المدن البحرية الاخرى سوى البندقية، والأكثر من ذلك أن الأمالفيين بفضل هذه السياسة تجنبوا التعرض لأخطار الهجمات الإسلامية التي كانت تحدث بين الحين والاخر على ساحل إيطاليا الجنوبية. فالبحر التيراني على حد تعبير المؤرخ الإيطالي أرماندو شتياريللا كان مفتوحاً بأكمله أمام السفن الفاطمية، فلماذا لم تحدث أي محاولة ضد

(١) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ط١ ، القاهرة ١٩٤٨م ص ٢١٢ -٢١٣

(2) cf. Histoire du Commerce de Levant, Vol. I P.99

المدينة الاكثر رخاءاً وانتعاشاً في ذلك البحر (يقصد أمالفي)، فمن المؤكد أن هذه المدينة كانت مثاراً للطمع من جانب اي حملة قادمة الى هذه المنطقة ولم يكن ذلك مكلفاً لمثل هذه الحملة او غيرها كي تستولى على أكثر مدن ساحل كمبانيا ثراءً. والاجابة تكمن في الواقع ليس في قوة التحصينات أو في حجم الأسطول الأمالفي، لان العرب هاجموا ما هو أعتى من ذلك، لكن السبب يكمن في العلاقات الطيبة والمحالفات الدائمة مع الفاطميين منذ أن كانوا في شمال إفريقيا(١)، الأمر الذي حدا بالمعاصرين المسيحيين إلى تسميتهم "بالحلفاء المقرّبين"(٢).

وواقع الأمر أن ذلك كان ينم عن سياسة واعية للأمالفيين انبثقت عن وضع الاهتمامات التجارية فوق أية اعتبارات اخرى، فحالة حرب أو حتى علاقات غير ودية مع العرب كانت تعود بالخسائر الفادحة على الملاحة الأمالفية وعلى التجارة، وبالتالي كان من الأفضل بالنسبة لهم جعل الصداقة مع المسلمين أسلوباً ضرورياً للحياة لا يمكن تجاهله أو تحاشيه، في الوقت الذي كان عليهم أيضاً الحفاظ على امتيازاتهم التجارية في الإمبراطورية البيزنطية والتي أعطتهم حرية في الحركة في عصر السيادة البحرية لبيزنطة بحيث كان في إمكان التجار الأمالفيين الوصول إلى كل من القسطنطينية وأنطاكية دون أن يتعرضوا لمضايقات أساطيل الغزو الاسلامي، كما كان في مقدورهم الوصول إلى مواني مصر والشام وهم في مأمن من الغارات أو الحصار التجاري الذي فرضته بيزنطة، والذي تعرض له التجار المسلمون وحدهم(٣).

---

(1) cf. The Relations of Amalfi with the Arab World Bafar the Crusades, in Speculum. Vo1. XL11, no 1. Tanuary 1967, P. 310

(2) cf. Lopez, R. S. : L,zmpartanza dell monde Tslamico nella ito Economica Europa dans I, Occidente el islam nell Alto
Medioevo, I. Spoleto 1965. P. 451

(٣) انظر : ارشيبالديوس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الابيض المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيس ، مراجعة شفيق غربال، القاهرة ١٩٦٠م ص ٣٣٧

وكانت المهمة الملقاة على عاتق الأمالفيين في مجال علاقاتهم الدبلوماسية هي أنه في الوقت الذي يسعون فيه إلى تحقيق أقصى استفادة من مركز الإمبراطورية البيزنطية التجاري، وكذلك مما كان للبيزنطيين من امتيازات لدى المسلمين حصلوا عليها في معاهداتهم مع حكام مصر والشام(١)، كان عليهم مراعاة عدم الإضرار بمصالحهم الخاصة لدى المسلمين من جراء تبعيتهم لبيزنطة. وقد استطاعوا بالفعل الاحتفاظ بوضعهم هذا لدى الطرفين البيزنطي والإسلامي، دون التورط في عمل عدائي ضد أي منهما، من شأنه أن يفصم هذه العلاقات، في وقت تكاد لا تتوقف فيه الحروب بين بيزنطة ومسلمي مصر والشام(٢)، لذلك يمكن إرجاع ثراء أمالفي خلال هذه الحقبة إلى أمور ثلاثة هي: امتيازاتها التجارية في الإمبراطورية البيزنطية، وشبه الاحتكار من جانبها في إيطاليا لبيع البضائع الشرقية ثم الاتصالات المباشرة مع الأسواق العربية، فعلى الرغم من أن التجارة مع العرب كانت جانبية في بداياتها إلا أنها كانت مربحة للغاية(٣)، وهذه الأمور يمكن أن نتلمسها بشكل واضح في العلاقات التجارية الأمالفية، على نحو يتناسب ومتغيرات الأوضاع السياسية والاقتصادية بالنسبة لكل من هذه الأطراف الثلاثة.

---

(١) على سبيل المثال: سلام عام ٩٦٦م بين القسطنطينية ومصر حقق للأمالفيين أقصى استفادة في مجال العمل البحري والتجاري

cf. Amari, M. : Storio di Musubmani, 11 PP.310-312

وأيضاً ماتلا ذلك من معاهدات مما نتنبه في مواضع تالية من هذا البحث.

Also : Bognette, gian piero : op-cit P.21

(٢) رفض الأمالفيين الامتثال لتهديدات ودعوات القائد البيزنطي في ايطاليا من أجل انضمام أمالفي إلى المدن الإيطالية الأخرى في حرب ضد المسلمين . ورغم الرفض من جانب موستالو الأول دوق أمالفي فانه حصل على لقب (نبيل امبراطوري) الذي كان قد واغرى به كي يشترك في هذه الحرب. أنظر :

Codece Diplom atico Anialfitanso 11 (19 July 922)

doc. no. 11 PP. 2-4.

Also: Camera, M. 10 P-Cit 1 P. 128

(3) Citarella, A. O. : Patterns in Medival Trade : the Commerce of Amalfi Befare the Crusades, in J. H. ,XXV111, 1968 PP. 532-533

وفي ظل هذه الأوضاع كانت كفة العلاقات مع الفاطميين هي الراجحة بالنسبة للأمالفيين وذلك منذ أن أقاموا خلافتهم في شمال إفريقيا، وكسب تجار أمالفي ثقة هؤلاء الحكام الجدد لهذه المنطقة واستفادوا من وراء ذلك كثيراً. ويرى المؤرخ كلود كاهن Claude Cahen أنه كان من الضروري بالنسبة للحكومة الفاطمية أن تعمل على جذب تجار مدينة أمالفي بائعي الخشب والحديد والأسلحة ومن ثم تمتعوا بوضع مناسب في شمال إفريقيا كان من الطبيعي أن يمتد إلى مصر والشام بمساعدة الحكام الجدد(١)، فالحملة على مصر تطلبت أعداد ضخمة من السفن والمعدات التي كان الأمالفيون قادرين على الإمداد بها، كما لم يكن مستبعداً اشتراك الأسطول الأمالفي بشكل مباشر في هذا الغزو(٢)، وهو ما يفسره وجود أعداد كبيرة من التجار والبحارة الأمالفيين في مصر عام ٩٩٦م(٣).

وهذا الوضع، الذي تؤكده استنتاجات الباحثين بأن الأمالفيين لعبوا دوراً من خلاله في فتح الفاطميين لمصر والشام جعل البعض منهم يؤرخ للنشاط التجاري الأمالفي في هذه المنطقة منذ حدوث هذا الغزو(٤)، فبالاضافة إلى هؤلاء الأمالفيين الذين أتو الى مصر مع طابور الفاتحين كي يستفيدوا من وضعهم المحبب لدى الخليفة الفاطمي(٥)، بدأ تجار المدينة في التردد بأعداد متزايدة على الأسواق المصرية - وهذا التغيير في

(1) cf. Un Texte Peu Counu Relatif au Coumerce Oriental d, Amalfi auxe Siecle, in A. S. P. N. Napoli, 1955 N. 3 P. 65

(2) Cahen, Clande : quelq ues Problemes Concernant L,Expansion au Haut Mayen Age, dans L,Occident el, S slam Nell, Alto medioevo, Tome I 2-8 Aprile 1964 Spolets 1965 P. 428

Also : Jdem : Un Text Pen ... P. 65.

(3) Citarella, A. O. : Op. Cit P.P. 545

Citarella, A. O. : The Relations of Amalfi P. 310

(4) Cahen Clande : Un Texte Pen ... PP. 65 -67.

(5) Citarella, A. O. : The Commerce of Amalfi P.545

العمليات التجارية إلى مصر تزايد خلال القرن الحادي عشر، بحيث غدت مصر في هذه الفترة - على حد تعبير ارماند شتاريللا - مكة بالنسبة لهؤلاء التجار(١).

وقد ساعد على ازدياد النشاط التجاري الأمالفي واتساع نطاق العلاقات بين أمالفي ومسلمي مصر والشام عدة عوامل، جعلت مصر - مركز حكومة هذين البلدين - نقطة مركزية لجذب تجارة البحر المتوسط في القرن الحادي عشر، ففضلاً عن الاوضاع الناجمة عن الفتح الفاطمي لمصر والشام والتي أشرنا إليها سلفا، كان لظروف وحقائق أخرى نتائج بالغة القيمة، وتتمثل هذه الظروف في :

(١) رغبة الفاطميين في اجتذاب التجارة الإيطالية إلى مصر والشام دون الحاجة إلى توقف هذه التجارة في تونس، لدى ولاتها المشكوك في ولائهم(٢)، وهو الأمر الذي ساعد عليه نهاية انتعاش تونس اقتصادياً بسبب الغزو المخرب الذي أصابها على يد قبائل بني هلال وسليم في منتصف القرن الحادي عشر(٣)، وأيضاً ظهور جهاد بحري مغربي في هذا القرن بالإضافة إلى العمليات الحربية للمسلمين والمتمركزة في إسبانيا والباليار وسردينيا، مما أدى إلى توجيه معظم التجارة الأمالفية إلى مصر والشام كبديل لهذه المنطقة(٤).

(٢) تحول تجارة المحيط الهندي من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر بسبب الاضطرابات السياسية التي حدثت في فارس والعراق(٥).

(1) Ibid P.533

(2) cf. Cahen clade : quel ques problemes .. P. 428

(3) cf. Citarella, A. O. : The commerce of Amalfe p.533

Also : Yoitein. S. D. : studies in Islamic Histoary and Jnstitutions, Leidin 1968. PP. 310- 311

(4) Cahen, clande : Op. cit P.429

(5) cf. Yoitein, S. D. : Op. cit PP. 344-345

Also : Yibb, A. R. : The Caliphate and the Arab states g. in K-m-setton (ed-) AHist of the crnsaeles : Philadelphia 1958, vo1 1 P. 96

Cahen, clande : Op. cit P. 428

(٣) أسعار التوابل والبضائع الشرقية الأخرى كانت منخفضة في مصر بقدر له اعتباره عن نظائرها في أسواق أخرى(١)، وهو ما سنعرض له بالتفصيل في الفصل الرابع.

(٤) تطلع الفاطميين إلى غزو العالم دينياً وسياسياً جعلت حضور التجار الجالبين للخشب والحديد والسلع الاستراتيجية الأخرى يقابل بترحيب كبير، مما شجع هؤلاء التجار على القدوم إلى أسواق مصر والشام، حيث اشتد الطلب على تجاراتهم(٢).

(٥) ازدياد عدد الحجاج الأوربيين القادمين إلى فلسطين مع بداية القرن الحادي عشر الميلادي إلى أضعاف ما كان عليه، ولم يعد الأمر قاصراً على الملوك والأفراد والنبلاء والفرسان، بل أصبحنا نشاهد سيلاً متدفقاً نحو الأماكن المقدسة من أفراد الطبقة الوسطى والعامة، بل لقد أسهم النساء بنصيب في هذا العمل، يدفعهن الصلاح والتقوى، وهو أمر لم يكن له نظير في عصر سابق(٣)، وكان معظم هؤلاء الحجاج يؤثرون طريق مصر والمرور بصحراء سيناء لما فيها من ذكريات دينية، فإذا ما أتوا الفريضة عادوا إلى أوطانهم يحملون آراءً وأفكاراً ومشاهدات، فضلاً عما كانوا ينقلونه من المنتجات الصناعية والزراعية وما فيها من الغلات التي كانت ترد عادة من أواسط قلب إفريقية ومن أراضي القارة الآسيوية(٤).

وهكذا تهيأت الظروف في كل من مصر والشام لتجعل من هذه المنطقة مركزاً لجذب التجار، وكذلك الحجاج الذين حرصوا بعد أداء مناسك الحج، على أن يعودوا إلى الغرب محملين بما استطاعوا أن يجلبوه معهم من سلع الشرق.

أما بالنسبة للأمالفيين فقد تكاتفت تلك العوامل لتوجيه تجار أمالفى إلى اتخاذ مصر

(1) cf. Heyd, W. : Op. cit P.385

(2) cf. Citarella, A. O. : The Commerce of Amalfi P.545-546

(٣) عن تطور حركة الحج والظروف التي مرت انظر :

Roussel, Romain : les Pelerinages : Paris 1956, P. 15 Seq.

(٤) راشد البرادي : المرجع السابق ص ٢١٠

والشام مجالاً رئيسياً لتجارتهم مع الشرق، فضلاً عن مكانتيهما الدينية والتي كانت ميداناً فسيحاً للأمالفيين استطاعوا أن يلعبوا فيه دوراً جعلهم في نظر المسيحيين الغربيين (رجالا مخلصين لعقيدتهم)، وذلك ببنائهم عدداً من المستشفيات والأديرة والكنائس في الأراضي المقدسة.

وعلى الرغم من كل هذه العوامل التي هيأت المجال لقيام علاقات بين أمالفي ومسلمي مصر والشام على نحو متطور واسع النطاق، وإجماع المؤرخين على ذلك المركز الذي حظيت به أمالفي بالنسبة لتجارة هذين البلدين، نجد الوثائق والتواريخ المعاصرة لدى الجانبين الأمالفي والفاطمي أغفلت - بقصد أو غير قصد - التطورات الخاصة بهذه العلاقات ،أو أعلى الأقل الاتفاقيات التي تحدد مسارها وهو أمر ضروري طالما وجدت علاقة من نوع معين بين طرفين يختلفان في الدين والجنس واللغة والثقافة، وكذلك في أسلوب الحياة، وهو الأمر الذي يحبذه المؤرخ ميشيل أماري (فالمهارة المهذبة للغة الدبلوماسية)، وأشكال الروتين التي استخدمت في إقرار المعاملات المالية الأكثر تعقيداً وتشابكاً ، والأعظم أهمية من ذلك الاحترام الدائم للرسوم الجمركية التي كانت سائدة من قبل، وكذلك العهود التي تشهد بقدم العلاقات الدبلوماسية بين عرب شمال إفريقيا والمدن البحرية الإيطالية في الفترة السابقة، كل ذلك يؤكد - في نظره - وجود معاهدات أبرمت بين العرب والمدن الإيطالية، مما يدعو إلى الاحتمال بأن الأرشيفات العربية، التي لم تصل إلى متناول الأيدي، من الممكن أن تقدم الأدلة الخاصة بهذه العلاقات(١)، ويزيد هذا الوضع صعوبة أن الوثائق الخاصة بالتجارة مع الشرق وإفريقيا في الآلاف من الوثائق الخاصة بحياة الأمالفيين حتى عام (١٢٠٠م) كانت نادرة(٢).

وقد بذلت المحاولات من جانب الباحثين المهتمين بهذا الموضوع للتغلب على هذه

(1) cf. I Diplomi Arabi del Regio Argio Archivio Florentino Firevze 1863, Jntro-p. XXVI.

(2) cf. Codirc Diplomatiro, Amalfitons, No1. I das. No1 CCXX

Also : Lopez. R.S. : L Jmpartanza .. Op. cit P.435 n-5

الصعاب عن طريق الاستعاضة عن هذا النقص في الوثائق بالإشارات الواردة في وثائق أخرى كوثائق جنيزا القاهرة أو الوثائق الدبلوماسية الخاصة بالأديرة أو في التواريخ المعاصرة لبلاد ومدن أخرى تأثر تاريخها بهذه العلاقات ولو بشكل غير مباشر - هذا فضلا عما يتوفر من أدلة مادية على قيام علاقات من هذا القبيل، تتمثل في وجود تجارات ومنتجات شرقية، وكذلك عملات في أسواق مدن إيطاليا الجنوبية خصوصاً تلك التي كان يتردد عليها الأمالفيون بما جلبوه من سلع مصر والشام، وأيضاً من أسواق روما وبافيا ، وهي أسواق كان يرتادها تجار مدينة كمبانيا(١).

وإذا انتقلنا إلى المستندات الوثائقية الخاصة بأمالفي فإنها كانت تتضمن إلى جانب المبايعات وعقود المبادلات والتنازلات وخلافه(٢) إشارات عن سفريات بحرية طويلة (فيما وراء البحار)، ورحلات أشخاص من النبلاء وغيرهم غابوا سنوات عديدة في رحلات عمل إلى الشرق ثم عادوا ببضائعهم لبيعها في إيطاليا وأسواق أوروبا التي كانوا يترددون عليها(٣).

وبالإضافة إلى ذلك وجدت وثائق أخرى متنوعة، من بينها وثيقة تعد ذات طابع خاص بين السجلات الأمالفية لأنها أسعفتنا بدليل يؤكد وجود الأمالفيين في مصر في الربع الأخير من القرن العاشر، ويتمثل هذا الدليل في رحلة أمالفي إلى مصر يدعى ليودي سرجيو دي ديريتي في عام (٩٧٨م)(٤)، وتشير الوثيقتان اللتان تضمنتا هذه الرحلة إلى توقيع بعض الأمالفيين اتفاقية تبادل في سالرنو واشترط في هذا العقد أنه لن يكون له صفة النفاذ والفعالية "إلا بعد رجوع أحد أطراف هذا الاتفاق الذي كان موجوداً في ذلك

(1) cf. Luzzatts, Y. : Storia Economica d,Jtalia : il Medioevo, Firenze 1963, P.99
(2) cf. Cod. Dip1. Amalfi, Vo1. 1 Passin
(3) cf. Camera, M. OP-Cit 1 P. 197
Also : Yalasse, Y. : Op. Cit P. 38 n.4

(٤) الإشارة إلى هذه الرحلة تضمنته وثيقتان في :
Codex Dipomatieus Gavensis, Vo1.1, das-no ccc-ccc1 PP. 114-115

الوقت في مصر" وهو ليو الأمالفي سالف الذكر(١)، ويذكر وليم هايد أن هذا العقد هو أقدم دليل تملكه عن (رحلات للأمالفيين في مصر من أجل الأعمال التجارية، مما يؤكد وجود مراكز تجارية أمالفية في ذلك الوقت في كل من مصر والإسكندرية(٢)، وعن طريق الافتراض المبني على سوابق تاريخية ثابتة حدد بعض الباحثين مسار رحلة ليو هذا بأنها كانت حتى الأسكندرية بطريق البحر، حيث أنزلت بضائعه التي بصحبته هناك ثم نقلت من الاسكندرية إلي القاهرة على ظهور الجمال، وبنفس الطريقة نقل بضائعه التي حصل عليها من القاهرة عائداً إلى أمالفي(٣).

وأسفار الأمالفيين في البحر المتوسط بغرض التجارة لم تكن قاصرة على إفريقيا الشمالية والموانيء البيزنطية، بل كثر ترددهم على موانيء الشام ومصر وأقاموا لأنفسهم مراكز في المدن الهامة، في هذين البلدين، خصوصاً وأنهما منذ القدم كانا مجالاً خصباً للعمل التجاري(٤). وإذا كانت رحلة ليو الأمالفي أول دليل يؤكد ذلك فإن ما أجمع عليه المؤرخون عن طريق الاستنتاج يرجع ببداية النشاط الأمالفي في هذه المناطق إلى ما هو

---

(1) cf. De Blasio : Series Principum Langbardarum Beneventanorum, App. 71 CXXXV11 in M. Berza : Op. Cit P.441

Also: Camera, M. Op-Cit 1 P. 196

(2) cf. Histoere du Commerce du Levant, 1 P.99

إلا أن هايد يذكر تاريخاً مخالفاً هو عام ٩٧٣م وهذا لا يتفق مع تاريخ الوثيقة التي يعنيها بالإشارة، ولا نعرف على أي دليل حدد هذا التاريخ، وقد تنبه إلى هذا الاختلاف في التواريخ المؤرخ مباهي برزا M. Berza الذي أكد صحة عام ٩٧٨م تاريخاً لهذه الرحلة

cf. Amalfi Preducale P. 441n-2

وهو ما أكده أيضاً كل من متى كاميرا، وكلود كاهن وكونجليو، أنظر : حاشية رقم (١) الصفحة التالية.

(3) cf. Camera, M.Op-Cit No1 P. 196

Also : Cahen, CLande : Op. Cit P.61

Coniglio, Y. Op. Cit P. 102 N.1

(٤) عن الأهمية الاقتصادية والتجارية بوجه خاص لكل من مصر والشام انظر :

المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٩م ص ٣٣، ١٨٠ - ١٨١، ١٩٣ - ٢٠٤

أبعد من ذلك، إلى القرن التاسع أو على الأقل مع قدوم الفاطميين إليها(١)، ففي ذلك الوقت ازدادت الرحلات البحرية التجارية للأمالفيين وكان الأسطول الأمالفي يمخر عباب البحر من أسبانيا إلى الشام حيث أنطاكية البيزنطية والمقر الثابت للجالية الأمالفية هناك، وفي هذه الرحلة الطويلة كانوا يترددون على شواطيء إفريقيا ومصر والموانى البيزنطية الهامة(٢).

على أية حال، كان للعلاقات البيزنطية الفاطمية خلال هذه الفترة تطوراتها التي أفضت إلى إدخال الأمالفيين ليلعبوا دوراً في هذا الصراع، وهو ما حدث في مناسبة تتعلق بمصر تأكد من خلالها وجود هؤلاء الأمالفيين في هذا البلد بأعداد كبيرة، هذا فضلاً عما أشير إليه سلفاً من أن الجيش البيزنطي في حروبه ضد المسلمين في الشام كانت به فرقة أمالفية، الأمر الذي أكده ليتوبراند أسقف كريمونا(٣).

وخلال هذ التطورات كان الوضع قد تطور أيضاً بالنسبة لكل من أمالفي والبندقية في الدولة البيزنطية، ففي عام (٩٩٣م) ظفرت المدينتان بامتيازات جمركية في القسطنطينية كانت على جانب كبير من الأهمية، جعلتهما التاجر المفضل لدى مدينة القرن الذهبي بحيث أصبح وضعهما التجاري هناك منذ ذلك التاريخ لا يمكن زعزعته أو منافسته، فلم تعد تطبق على أهل البندقية والأمالفيين تلك القيود القديمة التي كانت تفرض على التجار الأجانب وتحدد مدة إقامتهم في المدينة بل أقاموا في الأحياء الخاصة بهم داخل العاصمة البيزنطية، ووصل بهم الأمر إلى مايمكن اعتباره احتكاراً لجميع تجارة الغرب مع بيزنطة(٤)، وخير مثال على ذلك أن أهل الغرب الأوربي كان في إمكانهم الحصول

---

(1) cf. Lopez, R. S. : L, smpartanza - Op. Cit P.450 Also, Coniglio, Y. : Op. Cit P.101

(2) cf. Berza, M. : Op. at P. 444

Also : Coniflio, Y : Op. cit PP. 102 - 103 n.3

(٣) انظر ما سبق ص ٩٦

(4) cf. Heyd, W. : Op. Cit 1 P.56

ارشيبالدويس : المرجع السابق ص ٣٣٦

على المنسوجات الحريرية المحظور إخراجها من القسطنطينية من الأمالفيين دون غيرهم(١).

وقد توصل الأمالفيون أيضاً إلى وضع مماثل في مدينة أنطاكية البيزنطية، حيث كان لتجارهم هناك وضع خاص(٢)، وحيث كانت القوافل التجارية القادمة من فارس والعراق تتوقف أمام موانيء سوريا الشمالية لنقل بضائعهم إلى العاصمة الإمبراطورية(٣)، وفي ذلك الوقت نجح تجار أمالفي في حمل هذه البضائع، التي كانت تأتي إلى الشواطيء الشامية أو التي تصل إلى مصر وإلى أسواق الغرب مباشرة دون حاجة إلى المرور بالقسطنطينية(٤)، ما لم تكن إرسالية البضائع موجهة إليها أو إلى آسيا الوسطى(٥)، وبذلك توثقت علاقات الأمالفيين التجارية مع مصر والشام أكثر من ذي قبل، وبقدر تزايد في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر بازدياد نصيب كل من أمالفي والبندقية مع الشرق بصفة عامة(٦).

وإبّان هذا الوضع السائد لم يتوقف الصدام بين البيزنطيين والفاطميين خصوصاً عندما أراد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٩٧٥ ـ ٩٩٦م/٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ) الاستفادة من انشغال الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (٩٨٦ ـ ١٠٢٥) على الجبهة البلغارية، لإدخال كل من حلب وأنطاكية في دائرة النفوذ الفاطمي في الشام(٧)، ولم يتحقق له ذلك،

---

(1) cf. Lopez. R. S. : The Silk Jndustry of the Byjantine Empire, in Speculum, XX, 1945 PP. 40 -41

(2) cf. Coniglio, G. ; Op. Cit PP. 102-103 n-3

أيضاً : ديل شارل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص

(3) cf. Cahen, Claude : qulques Probleme Op. Cit P. 427

(4) I Bid Jdem

ايضاً : أرشيبالدلويس : المرجع السابق ص ٣٣٧

(5) Cahen, Clande : Op. Cit Jdem

(٦) أرشيبالدلويس : المرجع السابق ص ٣٤٢-٣٤٣

(٧) انظر : ابن القلانسي ص ٢٩ - ٣١، ٣٨ -٣٩ الأنطاكي، يحيى بن سعيد : ج١ ص ١٧٥

إذ أن باسيل الثاني عندما علم بأن الفاطميين أوقعوا الهزيمة بالقائد الإمبراطوري في أنطاكية عام ٩٩٤م/٣٨٤هـ انتقل بنفسه إلى الشرق وظهر تحت أسوار حلب في العام التالي، حيث نجح في حمايتها من استيلاء الفاطميين عليها، كما استولى على عدة معاقل فاطمية أخرى(١).

وهذا النجاح كان مؤقتاً ومرهوناً بفترة بقاء باسيل الثاني في الأراضي الشامية، فما أن عاد الإمبراطور إلى بلاده حتى تم الصلح بين الخليفة الفاطمي وبين أبي الفضائل سعيد الدولة حاكم حلب سنة ٩٩٥م/٣٨٥هـ(٢)، وبعده صمم الخليفة على الانتقام من البيزنطيين الذين هاجموا الأراضي التابعة له في بلاد الشام، فأمر بإنشاء أسطول بحري، في حين استعد هو للزحف براً(٣).

فقد أمر العزيز وزيره القبطي عيسى بن نسطورس بتشييد أسطول يسير معه بمسيرة في البحر إلى طرابلس، لمهاجمة الأملاك البيزنطية في الشام، فجمع ابن نسطورس الأخشاب من سائر النواحي، وأنشأ الأسطول في دار الصناعة بمصر، ونقل إليه جميع معدات الحرب والأسلحة، وعزم على تسييره بعد صلاة الجمعة الموافق الرابع من (مايو ٩٩٦م/ثاني عشر ربيع الآخر ٣٨٦هـ)، لكن قبل وقت الرحيل اشتعلت النيران في الأسطول وأحرقت ست عشرة سفينة - واتهم في تنفيذ هذا الحادث المدبر الروم الأمالفيون - أي التابعين لبيزنطة - (الواردين بالبضائع إلى مصر)، فانقض عليهم (العامة والمغاربة) وقتلوا منهم مائة وستين رجلاً، ونهبوا دار مانك الذي في الرفائيين

---

(1) cf. Chronique de Michel Le Syrien : Op. Cit PP 133-135.

الأنطاكي، يحيى بن سعيد : ص١٧٦، ابن القلانس ص٤٣

Also : Ostroforsky, Y. : Op. Cit P. 273

(٢) ابن ظافر الأزوي، جمال الدين أبو الحسن : أخبار الدول المنقطعة مخطوط بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٨٩٠ تاريخ ورقة ٢٣

(٣) الأنطاكي، يحيى بن سعيد : ص ١٧٨ ابن القلانس ص ٤٤

بمصر، وكان فيها مال عظيم لهؤلاء الروم لأنهم كانوا نازلين فيها(١).

لكن السلطات الفاطمية على الرغم مما وقع بأسطولها من خسائر فادحة بادرت لإيقاف أعمال الانتقام والنهب التي قام بها الأهالي ضد الأمالفيين، وفي ذلك يقول يحيى بن سعيد الأنطاكي :

«وركب ابن نسطورس وقت النهبة ونزل إلى مصر وتقدم بكف الأذية عن الروم والمنع من معارضتهم، ونودي في البلد بأن يرد كل واحد من النهابة جميع ما أخذه، فرد البعض من ذلك، وأحضر من سلم من تجار الروم من القتل، ودفع لكل واحد منهم ما اعترفه. وقبض على ثلاثة وستين رجلاً من النهابة واعتقلوا، وأمر العزيز بالله بإطلاق ثلثهم، وضرب ثلثهم، وقتل ثلثهم(٢).

وقد ترجم المؤرخ كلود كاهن نص يحيى بن سعيد إلى الفرنسية كدليل على تجارة أمالفي في الشرق في القرن العاشر الميلادي، ثم أورد رواية أخرى لهذا النص، نقلاً عن المسيحي الذي أعطى مزيداً من التفاصيل التي بينت الدور الرئيسي للأمالفيين في هذه المؤامرة(٣)، ونقل هذه التفاصيل أو بعضها عن المسيحي المؤرخ تقي الدين المقريزي(٤)، لذلك فقد آثرنا إيراد روايته بأكملها من قبيل الاستشهاد بما يحقق الفائدة بالنسبة لموضوع البحث، يقول المقريزي : «إن النار وقعت في الأسطول وقت صلاة الجمعة لست بقين من شهر (ربيع الآخر ٣٨٦هـ /١٦ مايو٩٩٦م). فأحرقت خمس عشاريات، وأتت على جميع مافي الأسطول من العدة والسلاح حتى لم يبق منه سوى ستة مراكب فارغة لاشيء فيها، واتهم الروم النصارى والأمالفيين، وكانوا يقيمون بدار (مانك) بجوار دار

---

(١) الأنطاكي، يحيى بن سعيد : ج١ ص ١٧٨

Also : Cahen, Claude : Un Texte Pen .. P. 62

(٢) تاريخ ج١ ص ١٧٨ - ١٧٩

(3) cf. Cahen, chaude : Un Texte Peu Connu Relatif au Commerce Orientald Amalfi, Op. Cit PP. 62-63

(٤) انظر المسيحي : أخبار مصر، القاهرة ١٩٨٠م ص١٠

الصناعة بالمقس، فهجم عليهم المصريون ونهبوا أمتعتهم وقتلوا منهم مائة وسبعة رجال، وطرحوا جثثهم في الطرقات، وأخذوا من بقي من الأمالفيين فحبس في دار صناعة المقس، واعترفوا بأنهم الذين أحرقوا الأسطول - بإيعاز من الإمبراطور باسيل - وأنه ذهب في النهب ما يقرب من تسعين ألف دينار كانوا للأمالفيين بدار مانك، فطاف أصحاب الشرطة في الأسواق، بناءً على أمر الخليفة المعز ونادوا برد ما نهب من دار مانك للأمالفيين والتوعد لمن ظهر عنده شيء»(١).

واتخاذ الأمالفيين كعملاء لبيزنطة في تنفيذ حادث من هذا القبيل على جانب كبير من الخطورة، وأمر مثير للعجب، فكيف لمواطني هذه الجمهورية البحرية التجارية أن يضحوا بمصالحهم، التي حرصوا عليها زمناً طويلاً - في مصر والشام بهذا القدر من السهولة، ويعرضوا أنفسهم لأعمال انتقامية كان من المكن أن يفقدوا من جرائها تجاراتهم ووضعهم المتميز لدى الخلفاء الفاطميين، التفسير الذي يمكن أن نجيب به على هذه التساؤلات هو أن الامتيازات المشار إليها سلفاً والتي حصل عليها الأمالفيون في الإمبراطورية البيزنطية قبل هذا الحادث بأعوام قليلة، وربما تلتها امتيازات أخرى لم تشر إليها التواريخ لسريتها، كان لها دور كحافز لإقبال الأمالفيين على هذا العمل، فضلاً عن أن هؤلاء التجار - ومعهم البنادقة - كانوا هم الجالبين للأخشاب التي تصنع منها السفن في مصر، والتي لأهميتها كثيراً ما اتخذ أباطرة بيزنطة سلاح المقاطعة بالنسبة لهذه السلعة الاستراتيجية، كوسيلة للحد من قوة البحرية الفاطمية المزدهرة والمناوئة للبحرية البيزنطية في ذلك الحين، ومن قبيل ذلك الإجراءات التي قام بها الأباطرة حنا تزيمسكس، باسيل الثاني، وقسطنطين الثامن من أجل الحظر على أمالفي والبندقية بعدم توريد الخشب والحديد إلى الدولة الفاطمية(٢)، الأمر الذي هدد صناعة

---

(١) المقريزي : الخطط، ج٢ ص١٩٥ - ١٩٦

(٢) انظر : القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا، النسخة المصورة عن الطبعة الأميرية، ج٣ ص٤٤١
Also : Ostrogorsky, Y. : Op. Cit 258

السفن الحربية والتجارية في مصر، وجعل الوضع صعباً أمام الوزير عيسى بن نسطورس في أثناء تدبيره المقادير اللازمة لبناء أسطول جديد(١)، مما اضطره إلى جمع الأخشاب من كل الجهات وقام بقلع "أصوار كبار كانت مسقفة على دار الضرب بمصر بجانب دار الشرطة، وفي البيمارستان الذي في سوق الحمام ونشروا جميعها، لتصنع منها مراكب هذا الأسطول(٢)، وهذا دليل على أن حظر توريد الأمالفيين والبنادقة أخشاب للسفن إلى مصر كان لا يزال سارياً، وزاد من مرارة حدته ذلك الحريق الذي أودى بكثير من سفن الأسطول الفاطمي وجعل الحاجة أكثر الحاحاً للسعي لدى الأمالفين ومنافسيهم كي يزودوا الفاطميين بهذه السلعة الاستراتيجية. وفي مثل هذا الظرف لا يتم ذلك إلا بموجب امتيازات مغرية وتسهيلات كبيرة تقدم لتجار هاتين المدينتين كي يقوموا بتنفيذ هذه المهمة الصعبة، التي من الممكن أن تعرض امتيازاتهم في الامبراطورية البيزنطية للضياع بسبب القيام بها، لكن أمالفي على أية حال كانت من واقع مصلحتها الخاصة تتجه إلى تنمية علاقاتها بالدولة الفاطمية سواء بسواء(٣)، طالما كان في استطاعة مواطنيها استغلال حالة الحرب القائمة بين بيزنطة والمسلمين لتحقيق مزيد من الأرباح والامتيازات، سواء من الطرفين في آن واحد أو من طرف أكثر سخاءاً على حساب الطرف الآخر.

ومن الممكن أن يكون هذا العمل قد أتى بثماره المرجوة بالنسبة للأمالفيين، وهي جعل

= Heyd, W. : Op. Cit 1 PP. 113-114

Cahen, Clande : Un Texte Pen .. PP. 64 - 65

Lopez, R. S. : L. Jmportanzo .. P. 450

وعن رد الفعل لدى كل من أمالفي والبندقية إزاء قرارات تحريم الإتجار مع العرب الصادرة من الأباطرة البيزنطيين انظر وثيقة صادرة في البندقية عام يوليو ٩٧١م :

cf. Lopez, R. S. & Raymand, J. : Medieval Trade in the Mediterr anean World, London 1955 doc. No. 167 PP. 333-335

(١) المقريزي : الخطط ج٢ ص ١٩٥

(٢) الأنطاكي : يحيى بن سعيد : ص ١٧٩

(٣) انظر : أرشيبالدلويس : المرجع السابق ص ٣٤٢

الفاطميين يحرصون بدرجة أكبر على كسب ود هؤلاء التجار، بالقدر الذي يجعلهم أكثر ميلاً إليهم من ولائهم للبيزنطيين، وذلك لا يتأتى إلا من خلال مزيد من الامتيازات والتسهيلات التي تساعد على ازدهار تجاراتهم في هذه البلاد وتحقيق أرباح طائلة من ورائها، والأكثر من ذلك هو اتجاه الخلفاء الفاطميين إلى العمل بكل السبل على توفير هذه الخامات الاستراتيجية اللازمة لبناء السفن، عن طريق مغريات تجعل الأمالفيين والبنادقة لا يترددون في إحضارها، ويضربون عرض الحائط بأوامر الأباطرة البيزنطيين الخاصة بتحريم الاتجار مع العرب في هذه السلع، كما حدث بالفعل في مناسبات تالية. ويؤكد ذلك سلوك الخليفة الفاطمي العزيز بالله، الخاص بإيقاع أشد صنوف العقاب على هؤلاء الذين تعرضوا لأموال الأمالفيين وكنوزهم بالنهب، وهو ما يعد (تطييب خاطر) لهؤلاء التجار، بشكل ينطوي على عدم الرغبة في ضياع خدماتهم للدولة الفاطمية (بجلبهم السلع النافعة)(١).

على أية حال، فإن المؤرخ كلود كاهن ذيّل ترجمته لنص كل من يحيى بن سعيد الأنطاكي ومحمد بن عبيد الله المسيحي بدراسة، حاول من خلالها الوصول إلى المدى الذي وصلت إليه التجارة الأمالفية في مصر والشام، بادئاً بإيضاح الغموض الذي اكتنف الروايتين من جوانب مختلفة، وقد انتهى في مقارناته إلى أنه وجد في القاهرة في هذه السنة (٩٩٦م/٣٨٦هـ) عشرات أو حتى مائة أو مائتان من الأمالفيين، وأنه إذا وجد بينهم إيطاليون آخرون فإن هؤلاء الأمالفيين كانوا الأكثرية وأصحاب الدور الرئيسي في هذا العمل، ومن ناحية أخرى فإن تجار أمالفي هؤلاء كان مصرحاً لهم بالدخول ليس فقط في الأسكندرية المدخل المسموح به للأجانب، لكن أيضاً في داخل الأراضي المصرية نفسها وفي القاهرة العاصمة(٢).

(1) cf. Cahen, Clande : Un Texte Pen .. P.65
(2) cf. Cahen, Clande : Un Texte Pen .. PP.63 - 64

وبالنسبة للمقر الخاص بالأمالفيين في القاهرة والذي ذكر أنه دار مانك فهذه لم تكن معروفة، لكن الترسانة والجمرك كانا محصورين على الشاطيء الشرقي للنيل بالضبط عند مقياس الجزيرة، وكان من الطبيعي جداً أن فندق الأمالفيين كان مقاماً بجوار الجمرك النهري، حيث كثير من الحانات الأخرى المعروفة(١).

وعلى الرغم من أن المؤرخ س. د. جواتين اعتبر حادث عام (٩٩٦م) هذا من العقبات التي عرقلت العمل التجاري بسبب أغراض سياسية، وذلك في معرض حديثه عن أثر القيود السياسية على حرية الحركة بالنسبة للأفراد والبضائع، وحتى الأفكار(٢)، نجد الشواهد تشير إلى عدم حدوث أية أضرار أخرى بالنسبة للأمالفيين من جراء هذه الواقعة عرقلت نشاطهم التجاري. وفي مناسبة لاحقة استؤنفت العلاقات الودية بين كل من الإمبراطور البيزنطي والخليفة الفاطمي، ونجم عن ذلك شبه حماية بيزنطية على المسيحيين في القدس في الوقت الذي كانت فيه لأمالفي تجارة واسعة في الإمبراطورية، وبالتالي كان لتجارهم أن يترددو على البلاد والمدن الإسلامية لممارسة هذا النشاط(٣).

فبعد هذا التاريخ مارس الأمالفيون العمل التجاري في كل من مصر والشام على نطاق أكثر اتساعاً مما كان، وإن حرص الخليفة الفاطمي على أن يعيد إليهم ما نهب منهم لخير دليل على صدق النوايا لدى الجانب الإسلامي في استمرارية هذه العلاقات في صيغتها الودية، ومن ثم خلقت الحاجة المتبادلة لدى الطرفين الأمالفي والفاطمي لقيام مثل هذه العلاقات الرغبة لدى كل منهما، في أن يتناسوا مثل هذه الأحداث العارضة التي من الممكن أن تكون قد حدثت تحت تأثير مغريات، اندفع وراءها مجموعة من الأمالفيين، ونحن نعرف أنهم أيضاً لم يتورعوا عن الانضمام إلى صفوف الجيش

(1) cf. Ilid P.64

(2) cf. AMediterranean Society, I Economic Foundations, Berkeley, Univrrsity of Califirvia Press, 1967 P.59

(3) Cahen, CLande : Op. cit P.65

البيزنطي الذي كان في حرب شبه دائمة ضد المسلمين، فقد استطاع الإمبراطور نقفور فوكاس أن يكوّن منهم فرقة بقي وجودها في هذا الجيش في عهد خلفائه، وظهر دورها في بعض المواقع الحربية الهامة(١)، وهذا الوضع الأخير لم يؤثر أيضاً بأي حال من الأحوال على علاقات أمالفى التجارية مع المشرق الإسلامي.

وعلى الرغم من أن السياسة العامة التي انتهجتها أمالفى في علاقاتها بالمسلمين تحرص على الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع هؤلاء الأخيرين، وتأكيد المؤرخين العرب، وخصوصاً المقريزي على اشتراك الأمالفيين بالدور الرئيسي في مؤامرة حريق الأسطول الفاطمي، وإشارته إلى اعتراف هؤلاء، نجد بعض المؤرخين الغربيين المحدثين من خلال تقييمه لهذه السياسة العامة يشك في أن الأمالفيين قاموا بهذا العمل، وأن ما نسب إليهم وما عوقبوا بسببه كان مبنياً على إتهام، وأن اعترافهم كانوا مرغمين عليه(٢).

على أية حال، دون الدخول في تفاصيل أخرى تتعلق بدور الأمالفيين في مؤامرة عام (٩٩٦م) قد تبعدنا عن موضوع الدراسة، فإن المتفق عليه بين جميع المؤرخين قديمهم وحديثهم هو وجود الأمالفيين في ذلك الوقت في أعداد كبيرة، وذلك من خلال الاسترشاد بالأرقام التي أوردها كل من يحيى بن سعيد والمسيحي والمقريزي، وبالتالي فإن العمل التجاري مع حكام مصر والشام كان على قدر كبير من الأهمية استلزم وجود جالية أمالفية بهذا العدد، ويذكر المؤرخ "أرماندشتيا ريللا" أن مثل هذا العدد لا يمكن له أن يقيم في مصر دون وجود ضمان ثابت تم التصديق عليه بموجب اتفاق ثنائي بين الطرفين الأمالفي والإسلامي(٣).

(١) انظر ما سبق نقلاً عن تقرير ليتوبراند ان كريمونا، وأيضاً الفصل الثالث حيث ظهر دور هذه الفرقة في إحدى الحروب.

(2) cf. Cahen, Clande : Un Texte Pen.. Op. Cit

Also : Goitemn, S. D. : A. Med. Society, 1 P. 59

(3) cf. The Relations of Amalfi. with the Arab World P.303

وفضلاً عن ذلك فإن هناك حقائق مستخلصة من واقع الظروف التي سادت في ذلك العصر، تتمثل في أن علاقة أمالفي بالفاطميين كانت غاية في الود لفترة طويلة، قبل التحول الذي حدث في تجارة المحيط الهندي من الخليج الفارسي إلى عدن والبحر الأحمر، والذي قاد حكام مصر إلى تشجيع مؤسسات التجار الإيطاليين في الأسكندرية بمنح سخية من مواثيق الحماية(١)، وتتمثل أيضاً في النوايا الطيبة التي كانت سائدة لدى هؤلاء الحكام إزاء الأجانب، والتي سمحت بإقامة جاليات أمالفية ليس فقط في مصر بل أيضاً في سوريا وفلسطين(٢)، وهذه النوايا هي التي سمحت أيضاً لأي حاج أن يأخذ سفينة مقلعة من البندقية أو باري أو أمالفي مباشرة إلى الأسكندرية أو أحد موانيء الشام(٣).

ويذكر المؤرخ متى كاميرا أن هذه النوايا الطيبة التي تحقق السلام والرخاء كانت سائدة - أيضاً - لدى الأمالفيين، وهي الروح التي أدت إلى الترحيب بهم في مدن المشرق وموانيه(٤)، كما أن هؤلاء التجار دعموا تجارتهم التي تقدم لنا تنظيماً وروتيناً متقدماً للمبادلات، بعمل سياسي ودبلوماسي راسخ، فالسياسة الخارجية الملائمة والبعيدة عن التردد مع العالمين البيزنطي والإسلامي تبين الاستمرار الذي لا يبيح - في الغالب - أي خروج أو انحراف كلي عنها على مدى التاريخ الأمالفي، الذي يغطي مائتين وخمسين عاماً مليئة بالمتاعب والاضطرابات، ومثل هذه السياسة الثابتة لم تكن نتيجة لضغط جماعة لها اهتمامات قد تسود بطريق الصدفة، لكن بسبب امتدادها وصلابتها ولابد أن ينظر إليها أنها كانت نتيجة اهتمامات عامة (تجارية)، يتلاشى معها أي اهتمام سياسي

(1) cf. Ibid, A. R. : Op. Cit P.96

(2)Citarella, A. O. : Op. Cit P.311

(3) cf. Krueger, Hilmar, C. : The Italian Cities and the Arabs Befare 1095, in K. M. Setton (ed) Op. Cit, ro1 1 P.73

(4) cf. Memorie Storico - Diplomatiche dell, Antica Citta e Ducato d, Amalfi, 1. P. 198

أو ديني أو أي اعتبار آخر(١)، ويؤكد هذه الاهتمامات العامة لدى الأمالفيين بعض المؤرخين بما ذكروه عن أمالفي في العصور الوسطى أنها كانت (جمهورية تجارية وحربية في وقت الضرورة)، التجارة كانت من أجل رخائها وازدهارها، والحرب لضرورة الدفاع عن نفسها ضد الأعداء الأجانب وحماية تجارتها(٢).

وقد كان الغالب بين هذه الإهتمامات هو إتباع سياسة التودد إلى العرب، التي في ظلها كان أساس النجاح الأمالفي في مجال التجارة، إذ تعد البداية الحقيقية لعلو شأن التجارة الأمالفية من دور محلي إلى تجارة تجوب البلاد عبر البر وفيما وراء البحار، وتمتد من شمال إفريقية إلى الشمال حيث مصر والشام وبيزنطة، كما انتشرت في إيطاليا إلى روما، وعلى طول طريق فرانشيجنا إلى بافيا(٣).

وفي ظل هذه السياسة أخذ نشاط الأمالفيين البحري والتجاري مع بدايات القرن الحادي عشر الميلادي في الانتعاش في موانيء ومدن كل من مصر والشام، بحيث أنه لا تكاد تخلو مدينة أو ميناء من وجود جالية أو مصرف أو فندق أو محلات أو كنيسة أو (مقيم) لأمالفي في أي من هذه المناطق، وكان أهم هذه المراكز في القاهرة والأسكندرية وبيروت واللاذقية وأنطاكية وصور ويافا وطرابلس(٤)، وعن طريق انتشار الجاليات الأمالفية على هذا النحو، تمكنت أمالفي من الحصول على ما يلزمها من سلع الشرق

(1) Citarella, A. O. : The Commerce of Amalfi P.534
(2) cf. Camera, M. Op-Cit 1 P. 197
Also : Carci, Liugi : Op. Cit P.46
(3) cf. Solmi, A. : Honorantic Civitatis Papie Op. Xit PP.107-108
وهناك أمثلة لعقود رحلات بحرية تجارية من أمالفي إلى جهات متفرقة من البحر المتوسط انظر :
Codice Diplomatica Amalfitano
11 coc - No. Dxcvi P.304 & Passim
Also : Citarella, A. O. :
Op. Cit 1 PP. 536-537
(4) cf. Camera, M. : OP. cit 1 PP. 198-199
Also : Pansa, Francesco : Op. Cit 1 P. 49

بصفة عامة وسلع الشرق الأقصى (الهند والصين) بصفة خاصة، وهذه المراكز كانت بمثابة نقاط رئيسية على طريق هذه التجارة الأخيرة، سواء الطريق عبر فارس والعراق إلى بلاد الشام، أو الطريق عبر عدن والبحر الأحمر إلى مصر(١).

ويلغ من شهرة مصر والشام كمقصد للتجار الأمالفيين بتجاراتهم، وكمستقر لهم أيضاً مارسوا فيه أعمالهم المتعلقة بهذا النشاط، أننا نجد في وثائق أمالفي الدبلوماسية، التي جمعها ونشرها ريتشارد فيلا فجيري، عقوداً للبيع أو التنازل أو الشراء أو المبادلة تشير إلى نساء يوقعن هذه العقود بأسمائهن أو بأسماء الأزواج أو الأبناء الذين (ليسوا موجودين في الوطن) qui non aunt in istam teram أو الذين في الخارج qui sunt foris أو الذين في مهمة بحرية qui Sunt adnavifandum وكان وجود هؤلاء الذين غادروا أمالفي ووصفوا بهذه الإشارات في تلك العقود منحصراً في أحد أمكنة ثلاثة، وردت بشكل متنوع من وثيقة لأخرى. هذه الأماكن كانت إما القسطنطينية أو القاهرة، التي أسموها في هذه الوثائق بابليون أو أنطاكية(٢).

وإذا قد اتخذنا من مثل هذه الإشارات الموثقة أدلة على تعامل الأمالفيين مع مدن وموانيء مصر والشام، وبالتالي مجالاً للعلاقات المتبادلة بين الطرفين، فإن الظروف والتطورات التي نمت في ظلها العلاقات الأمالفية الإسلامية مع بدايات القرن الحادي عشر - والتي أسلفنا الإشارة إليها، جعلت من الأمالفيين تجاراً وبحارة اتسع مجال عملهم، وأصبحوا معروفين في كثير من مرافيء البحر المتوسط، التي كثر ترددهم عليها

---

(1) Camera, M. : Op. Cit 1 P. 194

(2) cf. Codice Diplomatico Amalfitans, 1& 11 Passim

ومن المؤسف أن هذه الوثائق لم تتضمن سوى هذه الإشارات العابرة الخاصة بمكان أحد أطراف العقد أو الذين يخصهم موضوع هذا العقد، وهذه لا تفيد موضوع الدراسة إلا من زاوية تأكيد الوجود الأمالفي في مدن وموانيء مصر والشام.

Also cf. : Del Treppo, M. & Leonel, A. : Amalfi Medioevale P.14

وانظر أيضاً النقطة الخاصة بدراسة المصادر في المقدمة

في وقت كان غرب أوروبا في سبيله إلى النهوض ، مما أتاح لهؤلاء الأمالفيين التوسع في مجال العمل البحري التجاري في جولم ينافسها فيه سوى البندقية، فازداد حجم المعاملات الأمالفية ووجد مواطنوا أمالفى لتجارتهم منافذ أخرى في الشرق فضلاً عن المراكز التي كانوا يتعاملون معها منذ فترة سابقة، وظهرت حركات تبادل تجاري نشطة، وكثر إبرام عقود الملاحة بغرض التجارة على أثر زيادة حجم التعامل مع المراكز التجارية الهامة في مصر والشام وأهمها القاهرة والاسكندرية وأنطاكية واللاذقية(١).

وقد كانت هذه المراكز التجارية الأمالفية بمثابة نقاط رئيسية لعبت دوراً رئيساً في العلاقات بين المسلمين والأمالفيين من خلال المعاملات التجارية، وأيضاً التعرف على سبل الحياة والمعايشة بين الطرفين في هذه المراكز كمناطق للاستقرار ضمت الأمالفيين والمسلمين معاً، مما نتج عنه تأثير وتأثر بينهما ظهرت معالمه في مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ويلاحظ أن الأمالفيين وجدوا في سياسة المعايشة هذه والاحتفاظ بجانب العلاقات الطيبة مع العرب مزايا حققت لهم الفوائد المرجوة بالنسبة لمصالحهم التجارية وكذلك الدينية كشعب امتاز بالجمع بين هاتين الناحيتين، وبالتالي لم تتوقف تجاراتهم مع المسلمين حتى في أثناء الحروب أو الاضطرابات لابتعادهم عن التدخل في النواحي السياسية، وظل موقفهم هذا هو السائد بصفة عامة، ففي الشرق حيث العلاقات بين بيزنطة وحكام مصر والشام كانت عدائية في معظم حياتها لم يحدث أن تدخل الأمالفيون لصالح طرف ضد آخر، إلا فيما ندر ـ كما رأينا ـ أما في الغرب حيث هجمات المسلمين المتكررة ضد إيطاليا، فقد كانت أمالفي مستثناة من جميع هذه الهجمات، ولم يصبها أي سوء من جرائها، وهذا ما حدث بالفعل في أثناء الهجوم على كل من بنفنتو وكابوا ونابلي في عام(١٠٠٢م/٣٩٢هـ)، والهجوم على سالرنو عام

(1) cf. Coniglio, G. : Op. Cit PP. 102-104

(١٠١٦م/٤٠٦هـ) فقد نجت أمالفي والأقاليم التابعة لها من التخريب، الذي كان على أشده في هذه الهجمات، وذلك بسبب علاقاتها الودية مع المسلمين بصفة عامة(١).

ويبدو أن الحال كان كذلك بالنسبة لتلك المدينة الإيطالية في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠م/ ٣٨٦ - ٤١١هـ)، فبالرغم مما ينسب إلى هذا العهد من اضطرابات في الداخل والخارج(٢)، وإجراءات تعسفية ضد أهل الذمة من النصارى واليهود، فإن ذلك لم يمس المصالح الأمالفية في مصر والشام بالقدر الذي أدى إلى توقفها أو عرقلتها، فقد مارست أمالفي تجارتها في ظروف مختلفة، ولم تتأثر كثيراً بأي منها سواء كانت حروباً في الخارج مع بيزنطة أم فتناً في الداخل وتنازع على السلطان. أما ما تم اتخاذه في عهد الحاكم ضد المسيحيين فلم يكن أكثر من أمور تتعلق بالسلوكيات كالملبس والمأكل والطقوس الدينية وخلافه(٣)، وهذه جميعها لا تؤثر على سير العمليات التجارية التي كانت أحد المصادر الهامة للدخل بالنسبة للفاطميين، كما أنه لا توجد إشارات في المصادر الأجنبية أو العربية التي بين أيدينا تنفي هذه الاستنتاجات أو تذكر أن التجارات تعطلت بسبب الأوضاع التي سادت في ذلك العهد.

وأهم ما ميز عهد الحاكم بأمر الله بالنسبة لفترات السلام وأمور التجارة، هدنة عقدت بينه وبين الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني في عام (١٠٠١م/٣٩١هـ) مدتها عشر سنوات(٤)، والمعروف أن فترات الهدنة هذه مجال خصب لممارسة العمل التجاري في ظل

---

(1) cf. Amari, M. : Op. Cit 11 P.340-345

111 PP. 102-103

Also : Krueger. H. : Op. cit P.51

(٢) الأنطاكي : يحيى بن سعيد : ج١ ص ١٨٠ -١٨٤

ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٤٦ وما بعدها

(٣) الأنطاكي، يحيى بن سعيد : ج١ ص ١٨٥ - ١٨٨

الذهبي، الحافظ شمس الدين: دول الإسلام ج١ تحقيق فهيم شلتوت القاهرة ١٩٧٤ ص ٢٤٥

الاسحاقي : أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ص ١٠٢-١٠٣

(٤) الأنطاكي ، يحيى بن سعيد : ج١، ص٨٤١

الهدوء والاستقرار المترتب عليها، حتى وإن لم تكن قد احتوت بنوداً تتعلق بهذا العمل. وكان إجراء الحاكم إزاء هؤلاء التجار هو : (أن يوقدوا القناديل على حوانيتهم ودورهم) وأن يبتاعوا في الليل، فصارت الشوارع والأسواق في الليل بمنزلة النهار(١).

وما حدث من اضطراب في عهد الحاكم لا يعزى إلى موقفه المتشدد فحسب بل كانت هناك ظروف لها أثر كبير في هذا الصدد، فمثلاً ما ذكره يحيى بن سعيد من أن زيادة النيل انتهت سنة(١٠٠٩م/٣٩٩هـ)، فاضطربت الأسعار بمصر من الحنطة وسائر الحبوب وتزايدت، واقترن بغلو السعر أمراض حادة ألمت بالناس وعلل وأوبئة ألفت خلقاً من أهل مصر(٢)، وأيضاً خروج بني الجراح في الشام، حيث عظمت مصادرتهم لأموال الناس وممتلكاتهم مرة بعد أخرى، وتعسفهم إياهم، فهرب من النصارى المقيمين بالشام خلق كثير وتوجه جميعهم إلى بلاد الروم وقصد أكثرهم اللاذقية وأنطاكية(٣) - طبعاً - ليكونوا في حماية البيزنطيين. وقد ذكر في موضع آخر أن الخليفة الحاكم هو الذي أذن لجماعة النصارى واليهود بالتوجه إلى الأراضي البيزنطية، بأهلهم وأموالهم وما تحويه أيديهم، والتصرف في ذلك على حسب اختيارهم وهم آمنون مطمئنون، إحساناً إليهم ورفقاً بهم من غير إكراه لأحد منهم على السير، بل جعل الاختيار في ذلك إليهم، وقد انتقل على أثر ذلك خلق كثير من المسيحيين، فتوجهوا إلى اللاذقية وأنطاكية وإلى غيرها من بلاد الروم(٤)، وذلك دليل على بقاء حرية الحركة بالنسبة لأصحاب الأعمال، وفي مقدمتهم الأمالفيين الذين امتازوا بأحقيتهم في المتاجرة والاستقرار في البلاد البيزنطية والإسلامية على حد سواء دونما عوائق، لاتباعهم سياسة متزنة إزاء هذين الطرفين

---

(١) المصدر السابق ص١٨٥

أيضاً ابن القلانسي : المصدر السابق ص٥٩

(٢) تاريخه ج١ ص١٩٣

(٣) المصدر السابق ص ٢٠١ - ٢٠٢

(٤) المصدر السابق ص ٢٠٧

المتصارعين، هذا فضلاً عن أنهم لعبوا دور الوسيط في حالة توقف التجارة بسبب الحرب القائمة بينهما، واستفادوا من وراء ذلك كثيراً كما سبقت الإشارة، وهناك حادثة واحدة وقعت في عهد الحاكم، وتعد استثناء في هذا المجال، ولا يمكن إغفال نتائجها على التجارة كرد فعل لتأثر المسيحيين من جرائها وخصوصاً الأمالفيين الذين فضلاً عن أنهم تجار، فقد أعطوا إهتماماً للنواحي الدينية، كما هو معروف عنهم. هذه الحادثة هي إصدار الخليفة أمراً بتدمير كنيسة القيامة في سنة (١٠٠٧م/٣٩٨هـ)(١)، فقد كان لهذا العمل - فيما يبدو - آثاراً على الأمالفيين الذين بدأوا منذ ذلك الحين في الجمع في سياستهم الخاصة بالعلاقات مع المسلمين بين جانبي الدين والتجارة، بشكل جعل أعمالهم في إقامة المنشئات الدينية، وخدمة العقيدة الكاثوليكية تطغى في كتب التاريخ على نشاطهم التجاري أساس نشاتهم، وذلك بتعاطفهم القوي إزاء تخريب وقع بمنشآت لها في نفوس المسيحية بصفة عامة مكانة عظيمة، وإزاء المصاعب التي كانت تواجه جميع حجاج الأراضي المقدسة القادمين من موطنهم الأصلي أمالفي خاصة، ومن الغرب الكاثوليكي بصفة عامة.

وكان رد الفعل إزاء تخريب كنيسة القبر المقدس لدى البيزنطيين قراراً أصدره الإمبراطور باسيل الثاني، يمنع السفر والمتاجرة من جميع بلاده إلى أي من أعمال الشام ومصر(٢)، واستناداً إلى ما أكدته الأحداث التالية الخاصة بموقف أمالفي من الأحوال الدينية في الشرق والغرب يمكن أن نقرر باطمئنان أن الأمالفيين امتثلوا في هذه المرة لقرار الإمبراطور البيزنطي، إلى أن عاد الحاكم بأمر الله إلى سياسة التسامح المعروفة عن المسلمين(٣)، ووافق على عمارة الكنائس وتجديدها في أخريات أيامه(٤).

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص ٢٤٠

ابن القلانس : المصدر السابق ص٦٦ -٦٨

(٢) الأنطاكي، يحيى بن سعيد : ج١ ص٢١٤

(٣) أشار بهذا الوضع منذ وقت مبكر الرحالة والحجاج المسيحيين، ومنهم برنارد الراهب الذي قدم لنا صورة عن الأمن والأمان اللذين سادا في مصر والشام، وهو وضع ظل على حاله حتى أخريات القرن الحادي عشر الميلادي.

(٤) الأنطاكي، يحيى بن سعيد : ج١ ص٢٢٨-٢٣٣

على أية حال تحسنت العلاقات عقب وفاة الخليفة الحاكم في (١٠٢١م/٤١١هـ)، فتجددت المراسلات من جانب الفاطميين إلى البيزنطيين الذين جعلوا لأنفسهم رعاية المقدسات المسيحية والمسيحيين المقيمين في الأراضي المقدسة على أختلاف طوائفهم في ذلك الحين، فأرسل الفاطميون إليهم سفارة على رأسها نقفور بطريرك بيت المقدس ليخبر الإمبراطور البيزنطي بتجديد كنيسة القيامة في بيت المقدس، وسائر الكنائس في بلاد مصر والشام، ورجوع أوقافها إليها، واستقامة أمور النصارى الذين تحت قبضتهم وحفظهم وصيانتهم، وأن يطلق المتاجرة من الروم إلى بلادهم، وقبول من يرد من بلاد الإسلام إلى أعمالهم(١)، وانتهت هذه المراسلات إلى عقد معاهدة بين الإمبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨م)، والخليفة الفاطمي الظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٦م/٤١١ ـ ٤٢٧هـ)، في سنة ١٠٢٧م/٤١٨هـ، أجازت للإمبراطور البيزنطي أن يتولى عمارة كنيسة القيامة، وسمحت لمن أظهروا الإسلام من النصارى أيام الخليفة الحاكم أن يعودوا إلى ديانتهم(٢)، وتجددت هذه المعاهدة في عام (١٠٣٦م/٤٢٩هـ) بين الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤م)، والخليفة المستنصر بالله (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م/٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ)(٣)، غير أن ما حدث فعلاً من إعادة بناء الكنيسة إنما قام به الإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤م) بعد عشر سنوات، وللإشراف على سير العمل صار للموظفين البيزنطيين حرية السفر إلى بيت المقدس(٤)، بدرجة بدأ فيها لبعض المعاصرين أن المسيحيين أصبحت لهم السيطرة التامة في هذه المناطق(٥)، وهذه جميعها أمور كان لها أكبر الفائدة بالنسبة للأمالفيين في مفاوضتهم مع السلطات

---

(١) الأنطاكي، يحيى بن سعيد : ج٢ ص٢٤٣

(٢) المقريزي : الخطط ج٢ ص ٣١ ، اتعاظ الحنفا : ص٢٧٥

(٣) انظر : ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ١٦

(4) cf. William of Tyre : Op. Cit Vo1. 1PP. 391-393

(٥) انظر : ناصر خسرو علوي : سفرنامة، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م ص٣٦-٣٧

الفاطمية(١) ، وبالرغم من أن تجار أمالفي كانت لهم مراكز خاصة بهم مارسوا فيها نشاطهم في كل من الأسكندرية والقاهرة ومعظم الموانيء الشامية بدءاً من يافا حتى اللاذقية فضلاً عن أنطاكية ـ كما أوضحنا سلفاً ـ فإنهم حتى ذلك الوقت لم يكن لهم مقر خاص بهم في مدينة بيت المقدس(٢)، وقد كانوا مواطنين ـ ذكر عنهم المعاصرون ـ أنهم على جانب كبير من الورع والتدين، بحيث كان لهم إلى جانب العمل بالتجارة والملاحة البحرية دور بارز في إقامة العديد من المنشآت الدينية من كنائس ومستشفيات، أو دور ضيافة وأديرة في مناطق مختلفة من العالم المسيحي الشرقي والغربي على حد سواء، وتركزت هذه بشكل خاص في مناطق نشاطهم التجاري وعلى طريق الحج(٣)، حيث بدأ عهد جديد بالنسبة للغرب الأوربي يعتبر العهد الأكبر لحركة الحجاج(٤) الذين توافدت جموعهم على الأراضي المقدسة بشكل لم يكن مألوفاً من قبل من أجل الزيارة والتبرك بالإقامة بجوار أضرحة القديسين، وفي الأماكن التي ارتبط تاريخها بحياة المسيحية في عهدها الأول(٥)، وقد قطعوا من أجل ذلك المسافات الطويلة، مخترقين أراضي آسيا الصغرى وبلاد الشام براً، وبطريق البحر على سفن الأمالفيين والبنادقة وغيرهم ممن يترددون على موانيء مصر والشام، وعوملوا من جانب المسلمين والسلطات الإسلامية

---

(١) انظر : رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص٩٢، ٣ أجزاء، تعريب الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت ط١ ١٩٦٧.

(٢) يذكر البعض أن البيزنطيين هم الذين سمح لهم بإقامة مقر ثابت لهم هناك بعد الدمار الذي أصاب الأماكن المقدسة على أيام الحاكم، بينما لم يكن للاتين بأجمعهم أي مقر، وكان الحجاج الغربيين ـ لذلك ـ يقيمون أياماً معدودات مقابل ما يدفعونه من مبالغ باهظة. انظر :

Taaffe, John : The History of the Hilitary,
Sovereign Order of st. Tohn of Jerusalem. London 1852, Vo1 - 1 PP 20 -21

(٣) انظر بالتفصيل في :

Pansa, Francesco : Op. Cit, 1 PP. 42_45
Also : Camera, M. : Op.cit, 1. PP. 148 - 153, 199

(٤) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية الأسكندرية ١٩٥٨م ص ١٤
أيضاً : رنسيمان، ستيفن، المرجع السابق ج١ ص ٧١ – ٨٠.

(٥) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ط٢، ص٦٤

بسياسة تتسم بالتسامح، الذي حض عليه الإسلام، هذا التسامح الذي كان أحد العوامل التي ساعدت على نشاط حركة الحج إلى بيت المقدس في ذلك الوقت(١).

والجدير بالتنويه في هذه المناسبة هو أن الأمالفيين بدأوا هذه الخطوة بالنسبة للمشرق الإسلامي في مدينة أنطاكية، ففي هذه المدينة أسس ماورو الأمالفي مستشفى ودار ضيافة وأنفق عليهما من ماله الخاص، وتشير الخطوط العريضة في رواية ايمي اف مونت كاسينو Aimo de Monte Cassino التي نقلت عنها هذه الواقعة، إلى أن تأسيس هذه الدار كان من أجل الحجاج الغربيين، والواقع أن أنطاكية لم تكن مقصداً للحجاج الآتين من الغرب أو الذاهبين إلى بيت المقدس، والمؤكد هو أن ماورو هذا عندما أسس المستشفى ودار الضيافة كان يعدهما لاستقبال واستضافة مواطنيه الذين يأتون بتجارتهم إلى هذه السوق أو المركز التجاري الكبير في الشام(٢).

على أية حال، فإن الأمالفيين مدفوعين بالرغبة في تحقيق هدف مزدوج يجمع بين المساهمة في عمل خير يوفر الراحة لحجاج مدينتهم وبلاد الغرب الأوربي تعلو مكانتهم وتذاع شهرتهم من خلاله بين المسيحيين بصفة عامة، والحصول على مقر ثابت لهم في

---

(١) من المغالاة والبعد عن الإنصاف أن يتمادى المؤرخون الغربيون في وصف أحوال الحجاج الغربيين في ذلك الوقت بأنهم كانوا يعانون الكثير من العنت والاضطهاد، ويعاملون بمنتهى القسوة من جانب المسلمين، ويتعرضون وهم قادمون في الطريق لأعمال السلب والنهب ثم يرجعون هذه المعاملة إلى تعصب المسلمين وعدم تسامحهم من هؤلاء المؤرخين :

William of Tyre : Op. Cit. Vo1. 1 PP-78-81 Primardium et Origo S. Xenadhiu Militae S. Johannis Baptistae Hosp. tariarum Hierosalymitani, in R. H. C. Occ Tome V P. 434

Uillaume de Saint - Eteve : Comment La Sainte Maison del, Hospital de S-John de Jerusalem Commeuca, In R. H. C. - Oce Tome V. PP. 422-423

ولم يضع هؤلاء المؤرخون في الاعتبار الظروف الداخلية والخارجية التي ألمت بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي بصفة عامة، والتي أوجدت نوعاً من عدم الاستقرار والاضطرابات عانى من جرائها جميع الرعايا الذين يعيشون فيها على اختلاف طوائفهم مسلمين أو مسيحيين أو يهود.

(2) cf. Heyd, W. : Op. Cit 1 P. 103

Also : Camera, M. Op. Cit I. PP. 199-299

المدينة المقدسة، حيث نشطت تجارتهم فيها، ولم يكن لهم مقر يفي بمتطلبات هذا النشاط المتطور، وحيث تتوافد جموع المسيحيين على هذه المدينة للحج والتجارة معاً فإنهما استغلوا وضعهم ومكانتهم التي تبؤوها لدى حكام مصر والشام، وأخذوا يعملون على تحقيق هذا المأرب المزدوج لخدمة الدين والتجارة في آن واحد(١).

ويؤكد ذلك وليم هايد بقوله : «إنه من ثنايا الخطوط العريضة لرواية ايمي اف مونتي كاسينو نجد أن سعي الأمالفيين لتأسيس مقر في بيت المقدس كان نابعاً من رغبتهم في الحصول على مأوى ومكان يجمعهم في هذه المدينة التي كانوا يترددون عليها باستمرار إما لأعمالهم التجارية أو لزيارة الأماكن المقدسة أو للغرضين معاً(2)

وأن ما سجله المؤرخ وليم الصوري في هذا الصدد ليبين في كلمات مختصرة ذات مغزى واسع الحدود، تلك المكانة التي حظي بها الأمالفيون لدى حكام مصر والشام، والامتيازات التي حصلوا عليها من قبيل الاستفادة بهذا الوضع لصالحهم، وكيف أنهم اتجهوا إلى تحقيق هذه الاستفادة لصالح (العقيدة المسيحية)، التي كرسوا لها بعضاً من نشاطهم. ومن المفيد أن نورد روايته هنا للاستدلال بها فيما يتعلق بما كان عليه الموقف بالنسبة لتجار أمالفي لدى حكام مصر والشام، وما جُبِلَ عليه هؤلاء التجار من مهارة استفادوا منها لصالحهم في كثير من الأحوال، وتتمثل قيمة رواية رئيس أساقفة صور في أن هذه الحقائق لم تكن بعيدة عن مسامعه من شهود العيان، فضلاً عما عرف عنه بأنه مؤرخ محقق يقول وليم في كتابه (تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحر) :

«بالرغم من أن الأماكن المقدسة كانت في حوزة العدو (يقصد المسلمين)، نجد عديدين من أهل الغرب زاروا هذه الأماكن من حين لآخر من أجل العبادة أو العمل أو من أجل الاثنين معاً، بين هؤلاء ممن غامروا بالتردد على الأراضي المقدسة بغرض التجارة، كان

(1) Porter, Whiteworth : A History of the Kmghts of Malta : London 1883. P.7

أيضاً : رنسيمان : ستيفن : المرجع السابق ج١ ص ٦٠

(2) Histoire du Commerce 1: Idem

الأمالفيون الذين نسبوا إلى إسم مدينتهم أمالفي».

وهؤلاء الأمالفيون كانوا الأوائل الذين لمصلحة الكسب والربح عملوا على أن يحملوا إلى الشرق كل السلع الأجنبية غير المعروفة هناك، وبسبب ضرورة السلع التي كانوا يحضرونها بالنسبة لأهل المشرق فإنهم حصلوا على امتيازات مجزية من حكام هذه البلاد، كما سمح لهم أن يأتوا إليها بحرية، وقد كانوا (أي الأمالفيون) ميالين إلى الاتفاق مع هولاء الحكام وذوي حظوة لديهم.

في تلك الحقبة أمير (الخليفة الفاطمي) كان يسيطر على كل الإقليم الساحلي من مدينة جبلة، الواقعة على شاطيء البحر، على مقربة من اللاذقية في الشام حتى مدينة الأسكندرية آخر مدن مصر، وقد وضع على كل مدينة حاكما، كانت له سلطات الأمير الواسعة، وتمتع الأمالفيون بالحظوة الكاملة لدى الملك (الخليفة) وأمرائه، وكانوا قادرين على السفر والتنقل في كل البلاد في أمان تام، كتجار وبائعين للسلع النافعة التي كانوا يجلبونها.

وبإخلاص لتقاليد آبائهم والعقيدة المسيحية، اعتاد هؤلاء التجار أن يزوروا الأماكن المقدسة كلما أتيحت لهم الفرصة، فلم يكن لهم مقر خاص بهم في بيت المقدس يمكثون فيه لبعض الوقت، مثلما كان الحال بالنسبة لهم في المدن الساحلية، ولكي ينفذوا خطة طويلة معززة، جمعوا ما أمكنهم من أهالي مدينتهم وقاموا بزيارة خليفة مصر، وهناك استطاعوا كسب تعاطف رجال قصره، فقدموا عريضة مكتوبة (للخليفة) برغباتهم حصلوا بموجبها علي رد لصالحهم(١).

---

(1) William of Tyre : Op. Cit Vo1. 11 PP. 241-242

ويعلق أ. بابكوك E. A. Babcock و أ. كراي A. C. Krey

على رواية وليم هذه بقولهم : «إن ميل وليم الصوري إلى استحسان التجارة يظهر هنا وفي أماكن أخرى، ولا شك أنه سواء أكان الأمالفيين هم الأوائل أو الوحيدين الذين كانوا يحضرون منتجات الغرب إلى الليفانت، فان اتصالهم المتجدد ببيت المقدس يسوغ هذه الملاحظة من جانب وليم.

cf. Ibid p. 242 n.16

وهكذا اتسم الأمالفيون إلى جانب كونهم تجاراً يسعون من أجل الربح بروح التقوى والورع، والعديديون منهم استطاعوا أن يجمعوا بين أرباح التجارة والخدمة الدينية، كما كان في مقدورهم إقامة علاقات عمل مع حكام الأقاليم التي يتعاملون معها اصطبغت بصبغة ودية لحرص الأمالفيين الدائم على استرضاء هؤلاء الحكام، عن طريق الهدايا وحسن المعاملة، وكذلك إحضارهم سلع الغرب المفيدة والنادرة(١)، ونتيجة لذلك حظي تجار أمالفي بمكانة تفوق غيرهم من التجار لدى مسلمي مصر والشام، حيث كان لهم مع هذه البلاد تجارة مزدهرة لدرجة أنهم أصبحوا معروفين لرجال البلاط في قصر الخلافة، مما ساعدهم على تسهيل مهمتهم في الحصول على ترخيص بقطعة أرض في الربع من مدينة بيت المقدس، الذي يقيم فيه المسيحيون لإقامة المنشات اللازمة لأعمالهم التجارية ومبان أخرى تفي بمتطلبات النواحي الروحية، كالحج والعبادة بالنسبة لمواطني مدينتهم وغيرهم من الحجاج الغربيين، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا في ظل مستوى عال من العلاقات الدبلوماسية.

وقد اتجه الأمالفيون بالفعل إلى العمل على تنفيذ هذا المطلب، خصوصاً وأنهم كان من الضروري بالنسبة لهم في ذلك الوقت أن يمكثوا فترة قد تطول حتى ينتهوا من بيع ما أحضروه معهم من البضائع والسلع(٢)، فاتفق عشرة منهم ذوي فطنة فيما بينهم على أن يرسلوا طلباً إلى الخليفة الفاطمي القائم في الحكم آنذاك (ويلاحظ أن تاريخ تقديم هذا الطلب موضع جدال، ولم تحدد النصوص المعاصرة من هو الخليفة الذي استقبل هذا الطلب ووافق عليه، وهو ما سنناقشه في موضع تال)، وذلك كي يعطيهم مكاناً في المدينة المقدسة يقيمون فيه منشآت للعبادة ودوراً لإيوائهم، وإيواء مواطني بلادهم، على

(1) William of Tyre: op. cit 2 p. 242

also cf. guillamme de Saint - Esteve : Op. cit P. 423A

- De Prima Institutions Hospitalariorum,in R. H. C. Occ Tome 5 p. 401

(2) Camera, M.: oP. CIT 1 P. 230

أن يسمح لهم بالبقاء في ظل نظامهم الخاص، مثلما كان الحال بالنسبة للبيزنطيين الأرثوذكس المقيمين في المدينة وغيرهم من أمم أخرى(١).

على أية حال، عمل هؤلاء الأمالفيون في بداية الأمر بما توفر لهم من مهارة ذات طابع تجاري على ضمان الاستجابة لمطلبهم بأن أرسلوا المبعوثين وقد حملوا الهدايا إلى خليفة مصر، كما التمسوا من معارفهم في قصر الخلافة بأن يساعدوهم على الوصول إلى غايتهم(٢)، ثم جمعوا بعد ذلك ما أمكنهم جمعه من رجال مدينتهم أمالفي وتوجهوا لمقابلة الخليفة، حيث قدموا له تلك العريضة المشار إليها يطلبون فيها تخصيص مكان لهم في بيت المقدس لإقامة منشآتهم الضرورية(٣).

وقد استجاب الخليفة الفاطمي لهذا المطلب(٤)، وأرسل أمراً كتابياً إلى حاكم بيت المقدس(٥)، يأمر فيه بتخصيص مساحة كافية من الأرض في هذه المدينة في الجزء منها

(1) gillaume de Saint - Esteve : Op. Cit P. 423

(2) cf. William of Tyre : Op. cit Vo1. 11 P. 242

Also : De Parima Jnstitutione Op. Cit P.401

(3) cf. William of Tyre : Op. cit Vo1. 11 P. 242

Also : De Parima Jnstitutione Op. Cit P.401

(٤) أشار كوندر إلى أن هذا الأمر أو الترخيص بالأرض موجود في دير الآباء الفرنسيسكان بالقدس انظر :
The Latin Kingdom of Jerusalem PP.203-204.

وقد تكررت محاولاتي للحصول على هذه الوثيقة الهامة كي تحسم مشكلة تاريخ صدورها وبالتالي معرفة في عهد من من الخلفاء الفاطميين حدث ذلك، وبعد مراسلة هذا الدير، وأيضاً مراجعة الفهارس الخاصة بمخطوطات دير بيت المقدس دون جدوى فقد أجاب رئيس هذا الدير بعدم وجود هذه الوثيقة لدى ديرهم، ورغم صدورها من الجانب الفاطمي فلم أعثر عليها ـ كذلك ـ فيما رجعت إليه من المصادر العربية، وآمل في الحصول على هذه الوثيقة الهامة يوما ما حتى تضع حداً فاصلاً لهذا الاختلاف في الرأي بين المؤرخين، وتفيدنا أيضاً بالنسبة لما يمكن أن تحويه من امتيازات أعطيت للأمالفيين أو تفاصيل تتعلق بوضعهم في دولة الفاطميين في كل من مصر والشام.

(5) De Prima Institutions : Op. Cit P.401

Also : William of Tyre : Op. Cit, Vo1. 11 P. 243

ويضيف أن مدينة بيت المقدس كانت مقسمة إلى أربعة أقسام متساوية في الغالب، وكان المسيحيون يقيمون في القسم الرابع حيث قبر المسيح والمباني المقدسة الأخرى، انظر أيضاً كيفية اختصاص المسيحيين بهذا القسم من المدينة.

الذي يشغله المسيحيون كي يقيم فيه رجال أمالفي (الأصدقاء) مايرغبون إقامته من مبان ومنشآت(١). وبناءً على أمر الخليفة خصص والي بيت المقدس للأمالفيين أرضاً واسعة في مواجهة كنيسة القبر المقدس، حيث قاموا على مسافة لا تزيد عن رمية حجر من هذه الكنيسة ببناء دير وكنيسة تمجيداً للقديسة مريم، وألحقوا بهذا المبنى المكاتب وأماكن الإقامة اللازمة لهم وللرهبان(٢). يسمى كنيسة أو دير القديسة ماري اللاتينية لأداء الصلوات فيه باللاتينية وفقاً للمذهب الغربي الكاثوليكي، حيث ينتمي الأمالفيون إليه، وتمييزا له عن كنيسة السريان، حيث اتبعت العادات والنظم الأرثوذكسية(٣)، وقام تجار أمالفي أيضاً ببناء دار ضيافة Hospice ، يؤوي إليها القادمون من الإقليم التابع لمدينتهم بصفة خاصة(٤)، مع السماح لحجاج أخرين بالإقامة فيها وفقاً لما تستوعبه منهم، وأشرف على هذا العمل خمسون من التجار الذين أرسلوا بعد ذلك إلى الحكومة الأمالفية في إيطاليا يستدعون رئيس دير ورهبان من البندكتسين(٥)، كي يتولوا الخدمة في الدير، ويشرفون على القائمين بالعمل في دار الضيافة، إلى جانب العناية بالمرضى والفقراء اللاتين الذين يقيمون فيها(٦).

---

(1) Ibid, Vol. 1 PP. 406-407
cf. De Prima Jnstitutione : Jdem
William of Tyre : Op. Cit Vol. 11 P.243
(2) Camera, M. : Op. Cit Tome I P.231
(3) William of Tyre : Idem
Also : Jacquesde Vitry : Op-Cit P.47
(4) cf. De Prima Institutione : Idem.

(٥) عن جذور العلاقة بين أمالفي والرهبان البندكتيين، وبالتالي سبب اختيار أمالفيين من ينتمون إلى النظام البندكتي للعمل في منشآتهم الدينية انظر :
Camera, M. : Op. Cit Tome I PP. 148-153

(٦) انظر ذلك بالتفصيل في د
guillaume de S- Esteve : Op. Cit PP. 423-424
وأشارت إليه في
De Prima Jnstitutione; Op-Cit Idem
William of Tyre : Op. Cit Idem.

وبعد ذلك ولأكثر من مرة أتى من أجل الحج نساء كرسن أنفسهن للخدمة في المدينة المقدسة وكانت غالبيتهن من الأمالفيات، لكن لم يرغب هؤلاء المقيمون في الدير أن يستقبلوا عنصر النساء في دار ضيافتهم خوفاً من التردي في الخطيئة، وتجنباً لشبهة فضيحة أو عار، ونتيجة لهذا الوضع قام تجار أمالفي ببناء دير آخر صغير كرس للقديسة مريم المجدلية(١)، وألحق بهذا الدير دار ضيافة للنساء، حيث أقام بصفة منتظمة عدد من الراهبات البندكتيات ذوات الأصل النبيل، من أجل القيام بخدمة الحجاج من النساء القادمات إلى الأراضي المقدسة، وبعد فترة من الوقت قمن إلى جانب ذلك بأعمال التمريض في المستشفى(٢).

وقرابة ذلك الوقت وفدت على بيت المقدس جموع من النبلاء والطبقة الوسطى من أجناس مختلفة (Ef - Camera, M, : Op. Cit I P. 230) وأضاف : «إن جماعات أيضاً من العامة وفدت إلى الأراضي المقدسة بغرض الحج، وعندما سمحت لهم السلطات الإسلامية بزيارة الأماكن المقدسة لم يجدوا أية وسيلة للراحة سوى ما كان يوفره لهم الرهبان والراهبات في الديرين ودور الضيافة الملحقة بهما(٣)، وهذه الأماكن أصبحت غير كافية لإيواء هؤلاء جميعاً خصوصاً الفقراء والمرضى والعجزة منهم الذين في حاجة إلى فترة كبيرة من الوقت للإقامة، أو ربما تفرض عليهم ظروفهم البقاء هناك بصفة دائمة، لذلك شيد رئيس دير اللاتين الأمالفي ومن معه من الرهبان مستشفى ومصلى في الفضاء المخصص لهم في نفس الموضع يساعد على استيعاب الأعداد المتزايدة من مرضى الكاثوليك الغربيين، وفقرائهم، وأقيم في المصلى مذبح تكريماً للقديس يوحنا

(١) مريم المجدلية التي جاءت في المعتقدات المسيحية أن السيد المسيح أخرج منها سبع شياطين، انظر : لوقا ٨ (١ - ٢)، يوحنا ٢٠ (١)، مرقص ١٦ (١)

(2) cf. William of tyre : Op. Cit. Vo1 P. 80 & Vop Also : De Prima Institutione ; Op. Cit. 401-402 Jacques de Vitry : Op-Cit PP.47-48 Camera, M. : Op. Cit, Va1 - 1, P.231

(3) cf. William of tyre : Op. Cit. Vo1. - P.214

المتصدق(١) San Jievanni I E I emasiniere، وهذه المنشآت التي أقامها الأمالفيون : دير وكنيسة القديسة ماريا اللاتينية، دير وكنيسة القديسة مريم المجدلية، دار ضيافة للرجال Ospizio Pergli Umini ودار ضيافة للنساء Dsjuzio per Le Donpe والمستشفى، التي عرفت جميعها باللاتينية Della Latina(٢)، لم يكن لها إيرادات أو أوقاف ثابتة فاتجه مواطنو أمالفي في الوطن الأم، والمشتغلون منهم بأعمال التجارة الخارجية إلى جمع الأموال من تابعيهم على هيئة تبرعات، ثم يرسلون هذه الأموال إلى رئيس الدير مع هؤلاء الذاهبين منهم إلى بيت المقدس، وكان يتزود من هذه الأموال بالطعام والرعاية وكذلك الحماية للرهبان والراهبات من الأمالفيين، ويستخدم المتبقي منها في تقديم المساعدة إلى الحجاج المسيحيين الذين يفدون إلى المستشفى(٣)، ويعتقد المؤرخ وليم هايد أن المستحقات الخاصة بهذه المنشآت والتي جمعت من المواطنين الأمالفيين كانت تعطى لكبير إحدى العائلات الأمالفية المرموقة ويدعى مارو Mauro وذلك ليتولى بنفسه أمر إرسالها إلى المدينة المقدسة(٤).

وفيما يتعلق بهذا الموضوع هناك مسألة على جانب كبير من الأهمية لازالت موضعاً

(1) cf. Ibid : Jdem Also : Jacques de Vitry : Op. Cit P. 48

De Prima Institutione : Op. Cit P.402

ويضيف وليم الصوري أن الأمالفيين قصدوا ببناء المزيد من المنشآت احتواء المعافين أيضاً داخلها خشية أن يجدوهم مخنوقين ليلا في الشوارع ويعني بذلك أن الحجاج اللاتين كانوا عرضة لهذا المصير على يد أهل المدينة المسلمين. وفي ذلك مبالغة وبعد عن الإنصاف لأن المسلمين في الواقع عاملوا ضيوفهم معاملة سمحة في جو سلمي زادت فيه ارتباطات المصالح بين الطوائف المختلفة ،ويكفي شاهداً على ذلك ما ورد في ثنايا هذا البحث عما وصلت إليه العلاقات بين أمالفي والمسلمين.

(2) cf. Camera, Masteo : Op. Cit , I P. P.232

(3) cf. De Justitutione : Op. P.402

Also : William of Tyre : Op. Cit, Vo1. 11 PP. 243 -245

(4) Af. Histoire du Commerce de Levant an Moyen-Age Vo1. I PP. 104-106

وقد أسند ريلي سميث Rilley - Smith

أيضاً إلى مورو بعض الجهود في هذا الصدد انظر :

The Knights of St. John in Jewsalem and (1050 - 1310), Macmillan 1967. P. 36.

للجدال من جانب المؤرخين المعاصرين والباحثين المتخصصين على حد سواء وذلك لعدم التوصل إلى الوثيقة التي من الممكن أن تحسم هذا الخلاف في الرأي بسهولة، إذا تم العثور عليها يوماً ما. ونعني بذلك تاريخ حصول تجار أمالفي على الترخيص السالف الذكر، والخاص بقطعة أرض في بيت المقدس لبناء هذه المنشآت، وبالتالي معرفة في عهد من من الخلفاء الفاطميين حدث ذلك؟ ثم الفترة الزمنية التي أقيمت فيها تلك المباني؟ لتقييم الموقف بالنسبة للأمالفيين في هذه المنطقة، في ظل الأحداث المعاصرة، فنقص التواريخ أو عدم وجودها بشكل محدد يعد من المشاكل التي تواجه أي باحث يقضي به العمل على حلها إلى البحث في وثائق أخرى معاصرة للأحداث موضوع الدراسة عن إشارات تساعده على استيضاح بعد الجوانب الغامضة فيها إن لم يكن معظمها طالما أن المصادر التي في متناول أيدينا لم تحسم هذا الأمر بشكل مباشر، وهو ما اتجه إليه الباحث من خلال دراسة ظروف المنطقة السياسية، والوضع العام بالنسبة للأمالفيين لدى حكام مصر والشام وذلك للتعرف على الوقت المناسب الذي من الممكن أن تقام فيه منشآت من هذا القبيل، إلى جانب مقارنة التواريخ المختلفة التي أوردها المؤرخون في هذا الصدد مع التقيد بفترة زمنية يستحال السبق عليها أو تجاوزها بالنسبة لإنجاز هذا العمل، كل ذلك من شأنه أن يساعدنا على وضع تحديد زمني أقرب إلى الدقة. وبالنسبة للفترة الزمنية المشار إليها بمعناها الواسع، فهي تمتد من عام (١٠١٤م/٤٠٥هـ)، وهي السنة التي توقفت فيها إجراءات الخليفة الحاكم بأمر الله التعسفية، حتى عام (١٠٦٥م/٤٥٧هـ)، حيث استحوذ السلاجقة على مدينة بيت المقدس وانتهت السيادة المصرية عليها(١)، ولم تعد إلى تبعية خليفة مصر إلا لمدة عام واحد تقريباً قبل سقوطها في أيدي الصليبيين(٢).

(١) أنظر: ابن القلانسي: المصدر السابق، ص٩٨-٩٩

Also : Chronique de Michel Le Syrien : Op. Cit P.172

(2) cf. Ibid PP.184-185

فالترخيص بأرض البناء للأمالفيين تؤكد المصادر المعاصرة - كما سبقت الإشارة - أنه تم الحصول عليه من خليفة مصر الفاطمي، وبالتالي فإنه من المستبعد حدوث ذلك إلا في أثناء تبعية بيت المقدس للفاطميين وفي وقت اتسم بنوع من الاستقرار النسبي.

أما التواريخ المختلفة التي اختلف المؤرخون أيضاً في الأخذ بها كتحديد لزمان تنفيذ هذا العمل، فالبعض يذكر أن إجراءات الحصول على الترخيص وكذلك عمليات البناء بدأت في عام (١٠١٤م)، بعد توقف أعمال التخريب والاضطهاد والذي حدث في عهد الحاكم بأمر الله(١)، أو فيما بين هذا التاريخ وعام (١٠٢٣م)، على أساس أن الأمالفيين قاموا في هذه السنة الاخيرة ببناء دير ودار ضيافة، وكان حصولهم من الخليفة الفاطمي على تصريح بانشاء هذه المباني قبل أو حوالي ذلك الوقت(٢)، أما المؤرخ "فرانشيسكو بانسا Fracesco Pansa" فرغم اعتماده على تواريخ قديمة نخرت بالكثير عن أعمال الأمالفيين، ورغم اعتماده أيضاً على رواية المؤرخ وليم الصوري الا أنه هو الآخر لم يصل الى تاريخ محدد، بل ذكر أنه حوالي عام (١٠١٩م) حصل الأمالفيون في بيت المقدس على امتياز من خليفة مصر بمقر لسكناهم ولإقامة كنائس وأديرة(٣)، وكذلك المؤرخ متى كاميرا الذي اعتمد هو الآخر على روايات قديمة لم تكن في متناول ايدينا فضلاً عن رواية وليم الصوري، فقد نقل عن رواية أحد الرهبان ويدعى حنا أوغسطين Juvan Augustin أنه حوالي عام (١٠٢٠م) كان حصول الأمالفيين على

= أيضاً ابن القلانسي : المصدر السابق، ص ١٣٥

(1)cf. Delaville Le Raulx, I. : Les Hospitaleers enteteire Sainte et a chypre (1110-1310) Paris 1904 P.11

(2) cf. Porter, Whitworth : Op. Cit P.7

Also : Archer & Kings ford : The Curusades : The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, 5thed London - 1919 - P - 170.

Conder, C.R. The Latin Kingdom of Jersusalem, London 1897 PP.203 - 204

(3) cf. Istoria dell, Antica Republica d, Amalfi, Vo1. I PP. 47 -48

أرض لإقامة هذه المنشآت(١)، بينما يرى آخرون أن الترخيص وبناء الديرين حدث في عام ١٠٤٨م(٢).

على أية حال، فانه لا يمكن أن يكون الأمالفيون قد سعوا لدى بلاط الخلافة في القاهرة من أجل الحصول على ترخيص أو قاموا ببناء أي من هذه المنشآت في عهد الحاكم بأمر الله الذي اتسم عهده بالكثير من الاضطرابات وأعمال العنف، ومن الممكن أن يكون التفكير في ذلك قد بدأ بعد توقف هذه الاضطرابات، وعودة الرعايا المسيحيين إلى بيت المقدس، فحينما رأى هؤلاء التجار آثار التخريب والدمار الذي أصاب مبانيهم المقدسة، اتجهوا إلى بذل المساعي لدى الخلافة الفاطمية من أجل السماح لهم بالترميم والبناء.

وإذا كان عهد الخليفة الظاهر (١٠٢٠ ـ ١٠٣٤م / ٤١١ ـ ٤٢٦هـ) قد اتسم بنوع من الهدوء والاستقرار، مما شجع بعض رجال الطوائف الدينية على اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم على العودة إلى المدينة المقدسة وإصلاح ما خرب من منشآتهم، فان الأمالفيين بحكم ارتباطهم مع هذه البلاد بمصالح تجارية إلى جانب الواجبات الدينية كانوا السابقين من أجل ضمان مستقر يوفر الراحة لهم ورجال مقاطعتهم على الاقل، فسعوا لدي هذا الخليفة فيما بين عامي (١٠٢٠ ، ١٠٢٣م)، وهي أنسب الفترات للحصول على ترخيص بموضع في بيت المقدس تقام عليه منشآتهم، حيث بدأ الفاطميون منذ وفاة الحاكم بأمر الله العمل على تحسين علاقاتهم مع المسيحيين عن طريق إصلاح كل ما أفسد هذه العلاقات في عهده، ومنذ هذه الفترة (١٠٢٠ ـ ١٠٢٣م) بدأ الأمالفيون

(1) cf. Memoria Storico - Diplomatiche dell, Antica
Citta e Ducato d,Amalfi, Vol. 1 P. 231&n-2, 190

(2) De Vertot, L, Abbe : Histoire de 1. ordre des chevaliers
Hospitaliers de S. Jean de Jerusalem; Paris 1726, T. IP. 17
Also : Atiya, A. S. : Crusade, Commerce and Culture, Bloomington 1962, P.67

في تشييد المباني الضرورية، والتي من الصعب بل ومن المستحيل أن تكون قد استكملت خلال فترة قصيرة، وإنما كانت هذه المباني تتسع وتزداد وحداتها وفقاً لتشعب أغراضها، وازدياد عدد القادمين اليها، والمقيمين فيها.

فقد كان الأمالفيون ينشدون تنفيذ "خطة طويلة معززة" على حد تعبير المؤرخ وليم الصوري(١)، حيث شيدوا في البداية ديراً وكنيسة ودار ضيافة للرجال. وبقدوم عنصر النساء للحج والخدمة تطلب الأمر تخصيص مكان لهن يقمن فيه ويؤدين ما عليهن من واجبات، فأقام الأمالفيون ديراً للراهبات ودار ضيافة خاصة بهن، ثم إن وجود المرضى والفقراء بينهم بأعداد متزايدة دفع بهم اخيراً إلى بناء مستشفى وكنيسة. ولعل ذلك يفسر سبب اختلاف الآراء حول تاريخ التأسيس، فربما اقترن كل تاريخ أورده مؤرخ خاص ببناء واحدة من هذه المنشآت دون غيرها، ولم يقرر بصفة قاطعة أي منهما هو المقصود بهذا التحديد فيما عدا قلة من هؤلاء المؤرخين وإن أدى تحديدهم لنوع المنشأة الى التعارض مع وجهات نظر أخرى(٢).

ويشير وليم الصوري إلى أن "المسيحيين" حصلوا على إذن من الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤م \ ٤٢٨ ـ ٤٨٧هـ)، وقاموا في عام (١٠٦٣) ببناء سور حول الربع الذي خصص لهم في مدينة بيت المقدس(٣)، مما حدا بالبعض إلى استبعاد

---

(1) A. History of Deeds Done Beyond the Sea, Vo1. II P. 242.

(٢) على سبيل المثال ذكر الأب دي فيرتوت أن الديرين شيدا في عام ١٠٤٨ انظر :

Devertot, L Abbe: Op. cit Vo1

ثم أشار كينج E.F. King إلى أنه في عام ١٠٥٠ حدثت إضافات هامة في المباني إلى الديرين والمستشفى انظر :

King, E.3. : The Knights Hosptitallers in the Holy : Land, London. 1931. P.12

هذا بينما نوه آخرون إلى أن تجاراً من أمالفي أقاموا فندقاً بالقرب من دير القديسة ماري اللاتينية التابع للبندكتيين الأمالفيين في عام ١٠٧٠م حيث انهار الكثير من الفنادق القديمة انظر :

cf. Mayer, H. : The C rusades, trans From the German

by John gillingharn Oxford, 1972- P.83

Also : SETTON, k.M. : Op. cit Vo1. 1 P. 83

(3) William of Tyre : Op. Cit Vo1. 1 PP.406-407

حدوث أي شيء من هذا القبيل قبل ذلك التاريخ(١)، والواضح من رواية المؤرخ الصليبي هو أن المسيحيين حصلوا على هذا الجزء من المدينة المقدسة في وقت سابق على هذا التاريخ بفترة طويلة، وأن الإذن كان متعلقاً ببناء سور ولا يمكن أن يحول عدم بناء هذا السور دون إقامة مبان أو منشآت داخل المقر المسيحي كتلك التي أقامها الأمالفيون.

وخلاصة الأمر هو أن الأمالفيين سعوا لدى الخلافة الفاطمية بعد أن عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي بوفاة الحاكم بأ مر الله عام (١٠٢٠م)، ومنذ الوقت الذي سمح فيه للطوائف الدينية بالعودة إلى بيت المقدس، وذلك من أجل الحصول على إذن ببناء منشآت لخدمتهم وخدمة رعاياهم. وقد استطاعو أن ينالوا موافقة بلاط الخلافة ويستصدروا أمراً إلى والي المدينة بهذا الشأن حوالي ذلك التاريخ.

وهكذا استطاع الأمالفيون بفضل علاقاتهم الودية مع حكام مصر والشام أن يكون لهم منشآت خاصة بهم في بيت المقدس، جعلوا بعضاً منها لاستخدامهم الخاص واستخدام مواطني مدينتهم أمالفي في الاغراض التجارية أو كمراكز إيواء لمن يأتي منهم لأداء فريضة الحج، وقد خصص الديران لهذا الغرض. أما المستشفى، ودار الضيافة المخصصة للرجال والأخرى المخصصة للنساء فهذه جعلتا للفقراء والمرضى من الحجاج الغربيين دون التقيد بجنس معين(٢)، وبفضل هذه الغاية العامة للمنشآت الاخيرة حاز الأمالفيون شهرة كبيرة بين المسيحيين وخصوصاً أهل الغرب الأوربي، هذا فضلاً عن أنهم وفروا لأنفسهم ولمواطني مدينتهم أمالفي ولجميع الحجاج الغربيين نجده دينية ومادية وعناية في حالة المرض، وأيضاً مساعدات مادية عند الحاجة(٣).

(1) Heyd, W. : Op. Cit Vol. 1. P. 105

(2) cf. Vetus Chronicon Amalphitanam P.198 in Jonathan Riley - Smith : Op. cit P.36
Also : Heyed, W. : Op. cit Tome 1 PP. 104-106

(3) cf. 1 bid : P 106

كيفما كان الأمر، ما أن اصبح معروفاً في الغرب الاوربي أن منشآت اقيمت في بيت المقدس لاستقبال حجاج الكنيسة الكاثوكية حتى بادر كثيرون من الاشخاص الورعين بمغادرة بيوتهم وبلادهم في الغرب كي يكرسوا أنفسهم لخدمة نزلائها. هذا، بينما اتجه آخرون الى التوسع في جمع الصدقات والتبرعات من اوربا ثم ارسلوها عن طريق سادة أمالفي إلى الرهبان البندكتيين الأمالفيين الذين كانوا يقدمون الطعام والكساء وكذلك العلاج لضيوفهم الكثيري العدد، بعد أن قاسى هؤلاء الاخيرون كثيرا من جراء عناء السفر خلال رحلة طويلة قطعوها من ميناء أمالفي ومن المدن الأوربية المختلفة إلى بيت المقدس(١).

ولا يعرف على وجه التحديد إلى أي وقت ظلت هذه المنشآت خاضعة لرعاية وإشراف رهبان أمالفي البندكتيين، مما دفع الراهب وليم دي سانت استيفن guillaaume de saint - Esteve.

إلى أن يعلن صراحة أنه لايستطيع أن يؤكد ذلك سواء من خلال رواية موثوق بها أو مخطوطة(٢)، وما يمكن قبوله في هذا الصدد ما رآه البعض من أن هؤلاء الرهبان الأمالفيين ظلوا يمارسون هذا العمل حتى قبيل مجيء جحافل الصليبين إلى الشام، وأن هذا الإشراف إذا كان قد تحول إلى هيئة علمانية أو أشخاص ينتمون إلى جماعة القديس بندكت، فإنه في مرحلة التحول هذه كان لرئيس الدير - وهو أمالفي - الإشراف الأعلى عليها. بينما ظل دير الراهبات تحت رعاية البندكتيين الأمالفيين، حتى بعد أن أصبحت دار الضيافة والمستشفى الخاصة بالرجال نواة لجماعة رهبانية محاربة لها شهرتها في التاريخ(٣)، ويؤكد ذلك ما أوردته إحدى الروايات القديمة في معرض الحديث

(1) cf. guillaume de Saint - Esteve : Op. Cit PP. 423.

(2) Ibid P.424

(3) cf. Le Roulx, J. D. : Op. Cit P.31 n-3

Also : King, E.J. : OP. Cit P.402

عن توزيع الصدقات، إذ يذكر كاتبها أن رئيس الدير والرهبان كانوا يقومون بتوزيعها على المنشآت، وإن ذلك ظل لفترة طويلة قبل الغزو الصليبي لبيت المقدس(١).

ونظراً لان العلاقات الأمالفية الإسلامية في منطقتي مصر والشام دارت من خلال ثلاث محاور أو أطراف : غربي كاثوليكي يمثله الأمالفيون، إسلامي يمثله الفاطميون حكام مصر والشام، وبيزنطي أرثوذكسي جمع بين الطرفين الأولين في مجال العلاقات، من حيث تبعية أمالفي الإسمية لبيزنطة من ناحية، وبحكم الاتصال الحربي والاحتكاك الحضاري بين المسلمين والبيزنطيين من ناحية أخرى. لذلك فإن المؤثرات الناجمة عن هذا التداخل تعد ذات قيمة كبيرة بالنسبة لموضوع الدراسة، كما تبين لنا إلى أي حد كان الأمالفيون أكثر ارتباطاً بالإمبراطورية البيزنطية من اتصالهم بالغرب الاوربي.

ويظهر هذا الارتباط جلياً من خلال نقاط تضمنها مقال المؤرخ تيموثي، س. ميلر Timathy S. Miller عن فرسان القديس يوحنا ومستشفيات الغرب اللاتيني(٢)، اذ تبين هذه النقاط إلى أي حد غلب التأثير البيزنطي أكثر من الغربي والإسلامي على المنشآت التي أقامها الأمالفيون في بيت المقدس. ويمكن تلخيصها في الأمور التالية :

أولاً : أمالفي المدينة التي أتى منها مؤسسوا هذه المنشآت كانت على صلة وثيقة بالدولة البيزنطية، اكثر من أي دولة غربية باستثناء البندقية(٣)، والأكثر من ذلك أن الأمالفيين في القرن الحادي عشر كانوا على صلة بالديرية الأرثوذكسية، حيث أنشئوا

(1) Be Prime Jnstitutione op, City P. 402.

وقد ذهب المؤرخ الألماني ماير إلى ما هو أبعد من ذلك، فذكر أن جماعة المستشفى لم تحرر نفسها من سيطرة الدير إلا بعد الحرب الصليبية الأولى انظر : The Crusades P.83 ويؤيده في ذلك ديلا فيل لي رو، حينما ذكر أن رفاق جيرار أول رئيس للمستشفى ظلوا مرتبطين بالسلطة الرهبانية البندكتية إلى ما بعد دخول الصليبيين بيت المقدس انظر :

Les Hispitaliers P.38

(2) Miller, T. S. : The Knights of st. John and the Hospitals of the Latin West, Speculam Vo1. L111, no.4 October 1978 (cambride)

(3) Pryor, J. H. : The Origins of the Commenda Contract. Speculam, no 52 (1977) P.14, 26 Also : cf. Camera, Matteo : Op. Cit I PP. 150 -151

في عهد حنا تزيمسكسي ديراً لمواطنيهم على جبل أثوس Athas وبعد ذلك بقليل نظموا مكاناً للعبادة في القسطنطينية ذاتها(١)، فمن خلال هذه الصلة القريبة مع دور العبادة الشرقية تعلموا بالتأكيد خدمة الرهبان الشرقيين في إعالة المستشفيات.

ثانياً : فإن ماورو وإبنه Pantaleone بنتاليون المساهمين الأساسيين في إقامة منشآت الأمالفيين الدينية في بيت المقدس(٢)، كانا ينتميان إلى أسرة ذات صلات وطيدة بالإمبراطورية الشرقية، كما أن ماورو نفسه كان يمتلك قصراً في القسطنطينية، وابنه بنتالون حصل على لقب قنصل Hypatos من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر (١٠٥٩ - ١٠٦٧م) كمكافأة له لتعضيده الحكومة البيزنطية في جنوب ايطاليا، وفضلاً عن ذلك فقد قدم أبواباً ذهبية صنعت في (مصانع) القسطنطينية للعديد من كنائس جنوب إيطاليا(٣).

ثالثاً : الكنيسة التي شيد الأمالفيون حولها المستشفى تشير إلى الارتباط ببيزنطة، فتجار أمالفي لم يشيِّدوا مبنى جديد للكنيسة ودار الضيافة خارج دير القديسة ماري، بل رمموا المبنى القديم الذي أصابه الدمار في عهد الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي وإن المبنى الذي اختاروا إدخال التحسينات عليه كان مكرساً في الأصل للقديس يوحنا المعمدان من قبل البيزنطيين في القرن الخامس الميلادي، كما أن يوحنا المتصدق بطريرك الأسكندرية الأرثوذكسي رمم الكنيسة حوالي (٦٢٦م) مما ضلل الاجيال التالية إزاء أي يوحنا - منهما كان بالفعل القديس الراعي للمبنى(٤)؟

=Also : Pansa, Francesco : Op. Cit I PP. 60-61

(1) Camera, M-: Op. Cit I P. 199

Also : Heyd, N. : Op. cit Towe I PP 100-103

(2) cf. Aime of Monte Cassino : L.ystoire de li Normast, (ed-) V de Bartholom aeis, Fronti Per la storia

d, Jialia, Scrittori 76, Rome 1935 P.342 cf T-S Miller Op. Cit P. 728 n-125

(3) Heyd, W. : Op. Cit I PP. 102-103.

(4) cf. Miller, T. S. : Op. cit PP.728-729

وهكذا كان الأمالفيون في أثناء تواجدهم في بلاد الشام ومصر أكثر ارتباطاً ببيزنطة من الغرب الأوربي الذي ينتمون إليه على الأقل من الناحية المكانية، وهذا الارتباط كان له دور في مسار العلاقات بين أمالفي ومسلمي مصر والشام في أحايين كثيرة، إذ أن هؤلاء التجار بحكم تمركزهم في هذه المناطق، وفي المراكز البيزنطية الهامة لعبوا دوراً له ثقله في مجال الوساطة التجارية والحضارية بين الطرفين المتحاربين البيزنطي والإسلامي، خصوصاً وقد كان لهم حق الانتقال ما بين حدودهما في حرية تامة.

وفضلاً عن ذلك، فان العائلات الأمالفية والتي يمثلها أسرة ما ورو ـ السالفة الذكر ـ استطاعت من خلال نشاطها الفني أو الاستعانة بالخبراء المسلمين في مجال الفن والعمارة، أن تلعب دوراً هي الأخرى في مجال العلاقات الأمالفية الإسلامية، وإخراج هذه العلاقات من حيز العمل التجاري وبعض النواحي السياسية إلى مجال المؤثرات الثقافية المتبادلة بين الطرفين.

ومن هذا يتضح أن الأمالفيين تشعب نشاطهم في بلاد الشام والأراضي المقدسة بصفة خاصة ليشمل إلى جانب التجارة، وما يرتبط بها من أسواق وفنادق ومحلات ونقل ومصارف ... الخ. إقامة المنشآت الدينية وخدمة الحجاج الغربيين عن طريق تكريس رهبان بندكتين ومواطنين من مدينة أمالفي لهذه المهام التي جمعت بين الناحيتين الروحية والاجتماعية، فضلاً عن أنها أفادت الجانب الاقتصادي الأمالفي كثيراً بتدفق أموال الغرب على هذه المؤسسات سواء في هيئة تبرعات أو هبات أو تنازلات بأموال أو إقطاعات أو عقارات، وأيضاً لأن هذه المباني احتوت المقر الخاص بالأمالفيين فقد أصبحت مراكز نشطة لعمليات البيع والتبادل التجاري. والأكثر من ذلك هو أنه باعطاء الأمالفيين الاهتمام لجانب الخدمات الدينية للمسيحيين الغربيين على اختلاف جنسياتهم، فانهم بهذا العمل الخير تمتعوا بسمعة طيبة وذاعت شهرتهم بين هؤلاء المسيحيين، مما

زاد من أقبال أهل الغرب على التعامل معهم، وبالتالي حققوا أرباحاً طائلة وازدادت ثرواتهم باتساع مجال عملياتهم التجارية على هذا النحو. ولا يعني اهتمام الأمالفيين بمنشآتهم ومراكزهم التجارية في الشام أن ذلك كان على حساب ارتباطاتهم التجارية في مصر. فهناك ثلاث وثائق من الجنيزا geniza ترجع إلى الفترة من حوالي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري حتى عام (١٠٦٠م) بالتحديد، وجميعها تؤكد إقامة الأمالفيين وترددهم على مصر خلال هذه الفترة في أعداد كبيرة من أجل المصالح التجارية، هذا فضلاً عن حرص السلطات الأمالفية على استمرار علاقات الصداقة مع الفاطميين لتدعيم وضعهم في هذه البلاد وتأمين مصالحهم.

وهذه الوثائق الثلاث لم تنشر نصوصها إلا في وقت متأخر، وضمت الى "مجموعة تايلور سشتر" Taylor - Schechter Collection بمكتبة جامعة كمبردج، اثنان تناول بالشرح لما تحتويه كل منهما المؤرخ س.د. جواتين في كتابه عن "المؤسسات الاقتصادية في مجتمع البحر المتوسط" والذي عالج فيه العديد من الموضوعات التجارية المفيدة من خلال وثائق الجينزا. أما الوثيقة الثالثة فقد نشرها وعلق عليها المؤرخ أرماند شتياريللا في بحث قيم بعنوان "التبادل التجاري بين مصر وأمالفي في وثيقة لم يسبق نشرها من جينزا القاهرة "نشره في أرشيفات مقاطعة نابلي التاريخية(١).

على أية حال - فيما يتعلق بموضوع الدراسة - تشير الوثيقة الأولى إلى أن سفينة من أمالفي أحضرت إلى الأسكندرية بالإضافة إلى الحرير عسلا، وأيضاً بائعي الخمور الأوربيين الذين حملوا معهم منتجات بلادهم. وتذكر أن هؤلاء التجار الأمالفيين كانوا مشهورين للغاية في ذلك الميناء المصري(٢)، ويستشف من عبارات هذه الوثيقة أن وصول

(1) Citarella, A. O. : Scambi Commerciali Fra l Egitto e Amalfi in un Documento Inedito Della Geniza del Cairo, A. S. P. N. Terza serie Anno IX-LXXXV dell intera collezione, Napoli 1971. PP.141

(2) Geniza Documents, T. S. 24. 78. Ts. 8. J 20. in S. D. Goitein : Amediterranean Society, I : Economic Foundations, Berkeley, 1967 P. 46 & n-33

الامالفيين إلى مواني مصر الهامة كان معلناً عنه دائماً بسرور وابتهاج لامتياز ما يجلبونه معهم من السلع من حيث الصنف وكذلك السعر(١).

الوثيقة الثانية ترجع أيضاً إلى نفس الفترة، وهي عبارة عن خطاب أرسل من أمالفي إلى المهدية(٢)، بعد وصول كاتبه من رحلته التي بدأها من الأسكندرية الى أمالفي ماراً بالقسطنطينية. ويذكر أرماندو شتياريللا أن هذا الخطاب له قيمة استثنائية، ففضلاً عن أنه نشر لأول مرة فقد كان المستند الوحيد الذي يثبت قيام علاقات مباشرة بين تجار الجينزا من اليهود والتجار الغربيين(٣)، مما يجعل الأمل كبيراً في العثور يوماً ما على وثيقة أخرى مكتوبة باللاتينية تلقي مزيداً من الضوء على هذه العلاقات(٤).

على أية حال فإنه في الخطاب سالف الذكر يسرد كاتبه المغامرات التي قام بها هو وأصحابه بسبب تحول السفر المباشر من الأسكندرية إلى أمالفي بشكل فجائي إلى هروب مضطرب من قرصان عنيد، مما أجبرهم على أن يتيهوا في القسطنطينية ثم في جزيرة كريت سبعين يوماً قبل وصولهم إلى مدينتهم أمالفي.

ويرجع الكاتب هذه المصاعب إلى الأحوال السياسية المضطربة في ذلك الوقت والتي أدت إلى توقف كل التجارات(٥)، ورغم إيراد هذا الخطاب لأحداث لعب الخيال في

---

(1) cf. I bid PP. 322-327

(٢) هذا الخطاب ـ كما ذكر كل من جواتين وشيتاريللا ـ محرر باللغة العربية ولعدم عثورنا على النص العربي فقد اعتمدنا على ترجمة هذا النص التي نشرها شيتاريللا باللغة الإيطالية.

cf. Citarella, A. O. : Op. Cit PP. 147-149

Also : Oitein, S. D. : Op. Cit T S 8 Ja I. F5 PP. 324 - 325, 484 n. 80

(3) cf. Scambi Commerciali Fra I. Egitto e Amalfi P.145

(4) cf. Gallasso, G. : Le Citta Campane Op. Cit P.37, 45.

(5) Citarella, A. O. : Op. Cit Idem

Also : Geniza Doeuments TS 8 la 1 , F5, S. D.

Goitein : Op. Cit Idem.

وتتمثل هذه الأحوال في ظهور خطر السلاجقة في منطقة البحر المتوسط المحصورة بين الدولة البيزنطية ومصر والشام - حيث خط سير رحلة كاتب الخطاب ـ وحروب هؤلاء السلاجقة مع البيزنطيين ثم اضطراب أحوال الشام

وصفها كثيراً بسبب الأفكار السائدة عن الملاحة في ذلك الوقت المبكر(١)، فإنه يبدو من ثنايا سطوره أن السفر من موانئ مصر والشام إلى أمالفي والعلاقات مع المقيمين الأمالفيين في هذه البلاد كان أمراً معروفاً بشكل كلي في أسواق المسلمين ومدنهم الهامة، كما كان يعتبر من الأحداث الشائعة. وفضلاً عن ذلك فإنه يستنتج من هذا الخطاب وجود أشخاص أمالفيين في القرن الحادي عشر الميلادي كان لديهم معرفة كافية باللغة والكتابة العربية(٢)، مما يؤكد مسألة حدوث تبادل ثقافي بين الغرب المسيحي والمسلمين من خلال العمليات التجارية بينهما، وهو الأمر الذي حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن أكبر مساهمة للعرب في النمو الاقتصادي في العصور الوسطى كانت نتيجة لاستعمال الكتابة في معاملات التجارة، ويؤكد هذا الباحث في مجال التأثر هذا أن الإيطاليين كانوا أسبق الأوربيين إلى اتباع الأساليب التجارية المستخدمة لدى العرب لذلك فإن بحارة أمالفي والبندقية حينما أقاموا علاقات مع العرب في إفريقيا ومصر والشام، كانوا يتعاملون مع تجار ورجال أعمال ذوي مستوى راق من الناحية الثقافية(٣).

وفي هذا الصدد خلص ليبر A. E. Lieber إلى نتيجة هامة، وهي أن هؤلاء البحارة والتجار نجحوا ببحثهم عن الربح في الإبقاء على وحدة البحر الابيض، ليس فقط من الناحية الاقتصادية بل أيضاً من الناحية الثقافية(٤)، خصوصاً بعد أن صار لزاماً على

= بسبب مطامع الحكام المحليين على حساب النفوذ الفاطمي هناك، انظر :

Chronique de Michel Le syrien : Op. cit P. 158 seq.

أيضاً انظر : أحمد عبدالكريم سليمان المسلمون والبيزنطيون ط ١ القاهرة ١٩٨٢م ج١ ص ٢٠٦-٢٣١

(1) cf. gaitein, S. D. : Op- cit PP. 322-327

Also : Citarella A. O. : Op. cit p. 145

(2) ef. Illid P.146

(3)cf. Lieber, A. E. : Eastern Business Practices and Medieval European Commerce: in Economic History Review, XX1 (1968) PP. 230-231, 236-236

(4) I bid P.231

هؤلاء الأمالفيين ومن عاصرهم من التجار الأوربيين أن يستعملوا اللغة العربية التي كانت على مدى القرون من التاسع إلى الثالث عشر - كاللغة الإنجليزية اليوم - اللغة الدولية الفرنجية لتجارة البحر المتوسط، وذلك رغم صعوبة التوافق بين الأساليب التجارية المعمول بها لدى كل من التجار العرب والتجار البيزنطيين مع ازدياد النشاط التجاري للتجار الإيطاليين بصفة عامة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين(١).

الوثيقة الثالثة من وثائق الجينزا الخاصة بهذه الفترة هي خطاب أيضاً من الأسكندرية نشر منذ فترة طويلة، لكن محتوياته الحقيقية لم يتم التعرف عليها إلا منذ فترة وجيزة لأن الناشر فسّر خطأ كلمة ملف Mlf التي تعني أمالفي إلى كلمة ملك(٢) Milk ، في هذا الخطاب تجار من أمالفي وصلوا إلى الأسكندرية في عام (١٠٦٠م) وأحضروا معهم إلى طائفة اليهود بالأسكندرية ثلاثة من الأسرى اخذوا من سفينة، وجردوا من كل شيء، كما ضربوا ضرباً مبرحاً كاد أن يفضي بهم إلى القتل على يد روم بيزنطيين أو إيطاليين(٣). وقد طلب الأمالفيون من اليهود أن يعاملوا هؤلاء الأسرى الثلاثة برحمة ورفق، كما فعلوا هم أنفسهم بهم، كما أعلن تجار أمالفي هؤلاء أنهم مستعدون لبيع هؤلاء الأسرى التعساء بنفس الثمن الذي ادعوا أنهم دفعوه وهو ١٨

(1) Citarella, A. O. : Op. Cit P.143

(2) cf. eniza Documetns Ts - 12.338 I. 18 ff, oitein P. 484 n.14

وتبعاً لذلك "تجار الملك في

Mann (ed) Peivate Collection I. p.2

كان أن يتغيروا الى "تجار من أمالفي ملف

Mann (ed) 11P.241 MIF

(٣) اسم روم كان في وثائق الجينزا يشير إلى العبيد والبحارة والتجار المسيحيين من أوربا انظر :

Citarella, A. O. : Scambi Commerciali Op. Cit P. 144

Also ; Yoitein, S. D. : Op. Cit P. 46, 51, 66, 115, 124, 211, 212.

ثمانية عشر دينار عن كل واحد من اثنين، ١٦ ستة عشر ديناراً عن الثالث. وهذا الثمن يشير إلى أن هؤلاء الأسرى تم بيعهم للأمالفيين في سوق الرقيق. وقد قنع تجار أمالفي في النهاية بأخذ ١٦ ستة عشر ديناراً عن كل واحد من الاثنين، و١٢ اثني عشر ديناراً عن الثالث(١)؛ ورغم كرم الأمالفيين الواضح في كثير من المناسبات كما يذكر س. د. جواتين فإن الخطاب في بعض عباراته يصفهم بالتشدد في المعاملات حيث تشير إليهم بأنهم السادة المقترين(٢).

ونخلص من هذه الوثيقة بعدة أمور هامة من الممكن أن تضاف إلى غيرها من السمات العامة التي ميزت الأمالفيين في علاقاتهم سواء بالمسلمين في مصر والشام أو بشعوب أخرى من خلال العمل التجاري وتتمثل في :

(١) استمرار تردد تجار أمالفي على مرافيء ومدن مصر واتساع مجال نشاطهم التجاري بالقدر الذي جعلوا هذا البلد مركزاً للتجارة مع فئات أخرى في مقدمتهم اليهود.

(٢) ممارسة الأمالفيين لنوع من التجارة هي "تجارة العبيد" وكان العبيد من السلع الهامة التي أحضروها إلى مصر. وهذه التجارة رغم القيود التي كانت توضع أمام التعامل فيها، إلا أن تجار ذلك العصر كانوا حريصين على التعامل فيها لما تحققه من ربح وفير ضاربين عرض الحائط بنداءات البابوية وبعض الحكام والتي كانت تطالب بإيقاف هذه التجارة التي تتنافى مع مبادئ الإنسانية وتعاليم العقيدة، وهو ما سنعرض له بالتفصيل في موضع تال.

(٣) هذا الوضع يميط اللثام عن تناقض خطير في السياسة الأمالفية بوجه عام ففي

(1) Heyd, W. : Op. Cit 1 P. 102.
(2) cf. Chronica Amalphitane Op. Cit Vo1. 1PP. 207-216 Cap. XV1-XX11.
Also : Potieri, E. : La Crisi di Amalfi Medioevale, in A. S. P. N. XX (N. S.)

الوقت الذي ظهر الأمالفيون بمظهر الورعين المخلصين لعقيدتهم، والمكرسين جانباً كبيراً من جهودهم من أجل خدمة المسيحين الغربيين، نراهم وقد طرحوا جانباً التقاليد المسيحية الممثلة في نداءات البابوية الخاصة بتحريم الاتجار في العبيد مفضلين عليها مصالحهم التجارية الخاصة سعياً وراء الربح. ولعل في ذلك تدعيما لما سبق أن انتهينا إليه من أن الامالفيين إستفادوا كثيراً من وراء أعمالهم الخاصة باقامة المنشآت الدينية لخدمة المسيحين الغربيين بأن كسبو الشهرة والثراء الذي عرف عنهم ورغم ذلك فقد كان لديهم - فيما يبدو - دافع ديني لكنه ضئيل اذا ما قيس بما تنطوي عليه نزعاتهم التجارية للقيام بأعمال من هذا القبيل.

على أية حال، فرغم تناولنا العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام خلال هذه الفترة، التي بدأت بدور نُسب للأمالفيين في حريق الأسطول الفاطمي وتنتهي بوفاة ما ورو الأمالفي عام (١٠٧١م) والذي ينسب إليه كما رأينا - العديد من الأعمال ذات الأهمية بالنسبة لموضوع البحث، وذلك من زوايا التبادل التجاري، والمصالح الدينية والتبادل الثقافي، فإن العلاقات بين الطرفين الأمالفي والإسلامي لم تكن قاصرة على هذه النواحي بل كان هناك ميدان آخر تمثلت فيه هذه العلاقات وكان صاحب الدور فيه أيضاً ماورو السالف الذكر.

ففي مجال تبادل الخبرات والكفاءات الحرفية والفنية استعان ماورو الأمالفي هذا بفنانين مصريين من الأسكندرية لتنفيذ أعمال الفسيفساء اللازمة لدير مونت كاسينو، كما تولى تجار أمالفي مهمة إحضار العمال من هذه البلاد لتشييد المباني الهامة التي تتطلب مقاييس دقيقة، وهو ما لم يكن متوفراً لدى العمال الأمالفيين أو اللمبارد، بينما قام اليونانيون بتنفيذ الزخارف والرسومات(١).

وهكذا تطورت العلاقات بين أمالفي ومسلمي مصر والشام لتأخذ شكلاً مكثفاً حرص

(1) Hey d,w : op. cit Tome I p. 102

فيه كل من الطرفين على الاستفادة بما لدى الآخر سواء كانت سلع أو ثقافة أو خبرة، وذلك في ظل علاقات صداقة كان الأمالفيون أكثر حرصاً في الحفاظ عليها في عصر كثرت فيه الحروب والمنازعات وأعمال القرصنة، وفي الواقع استفاد مواطنو أمالفي كثيراً من جراء سياستهم هذه، ونجوا مما كانت تجلبه هذه الأخطار على التجارات من خسائر. وبلغ من ذكائهم في هذا الصدد أنهم احتفظوا بهذه العلاقات الطيبة مع أكبر قوتين سيطرتا على الحركة الملاحية والتجارية في حوض البحر المتوسط وهما : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الفاطمية بحيث أصبح لهم شبه احتكار التجارة في العالمين البيزنطي والإسلامي في ذلك الوقت المبكر الذي لم ينافسهم فيه في هذا المجال سوى البندقية.

ويمكن القول بأن المدى الزمني لموضوع العلاقات الأمالفية الإسلامية في هذا الفصل يمثل قمة الازدهار بالنسبة لهذه العلاقات في كل من مصر والشام في هذه الفترة، حيث نعم الطرفان بنوع من الهدوء والاستقرار النسبي، فضلاً عن الرخاء الاقتصادي الذي اكتنفته بعض الأزمات التي لم يكن تأثيرها كبيراً على تطور هذه العلاقات ونموها، فقد تعرضت أمالفي لأزمات سياسية في الداخل في القرن الحادي عشر في أعوام (١٠٠٤م، ١٠٣٢ ـ ١٠٣٥م، ١٠٣٩م، ١٠٥٢ ـ ١٠٥٤، ١٠٦٩ ـ ١٠٧٠م)(١) لكن هذه الأزمـات لم يكن لها أثر يذكر على علاقات أمالفي بالعالم الخارجي، بدليل استمرار الرحلات البحرية التجارية من أمالفي إلى مدن وموانيء البحر المتوسط ومواظبة الجاليات الأمالفية المتمركزة في المنشآت الخاصة بها في مدن مصر والشام وبيزنطة على القيام بعملياتها التجارية في هذه المناطق والعمل على تحقيق كل مامن شأنه يعود بالكسب على مدينتهم، وكذلك كان الحال بالنسبة للفاطميين الذين ـ كما ذكرنا ـ اهتموا بشئون الاقتصاد وشجعوا التجارة، فقد مروا هم الآخرون ببعض الأزمات الداخلية خلال هذه الفترة، كثورات الحكام المحليين

(1) Potieri, E.: La Crisi di Amalfi Med. Op. cit passim
Also : chromica Amalphitane : Op. cit vol. I pp. 207 - 216 cop xvi -xx11

والمجاعات أو نقص المؤن بسبب نقص منسوب مياه النيل(١) وهذه المصاعب الوقتية لم تعرقل مسار العلاقات الأمالفية الفاطمية المتطورة في ذلك الحين بل زادت حاجة كل من الطرفين إلى الآخر في عمليات التبادل لتعويض النقص الناجم عن هذه الأزمات.

وفيما عدا ذلك فإن الفترة من (٩٩٦م إلى ١٠٧١م) المعنية بالدراسة في هذا الفصل تمثل حقبة العلاقات المتقدمة التي وصلت إلى أوجها بفضل الظروف التي تهيأت لكل من الأمالفيين والفاطميين خلالها، فقد تمتعت أمالفي بجني ثمار الاستقلال الذي نعمت به منذ القرن التاسع بحيث أصبح في مقدورها إقامة علاقات خارجية منفردة مع العالم الخارجي دون تدخل أي من الأطراف التي كانت تهيمن على سياسات الجنوب الإيطالي بصفة عامة، وبالتالي كان اتصال تجار أمالفي بالمراكز التجارية الهامة في حوض البحر المتوسط ذا فعالية مزدوجة من خلال توجيههم لسياستهم الخاصة الحريصة على الاستفادة من التعامل مع جميع الأطراف، بغض النظر عما بينهم من خلافات، ولذلك جمعوا في التعامل بين التجارة في الإمبراطورية البيزنطية وتجارة مصر والشام.

وبالنسبة للفاطميين فإن هذه الفترة كانت تمثل عصر القوة والازدهار على يد الخلفاء الأوائل حتى حوالي نهاية النصف الأولى من عهد الخليفة المستنصر وهو ما يمكن أن نلمسه بوضوح مما كتبه المقريزي عن كنوز الفاطميين في ذلك العصر، وبالتالي اتخذت هذه العلاقات سبيلاً متقدماً شق طريقه في شعاب مختلفة تجارية وثقافية واجتماعية ودينية، مما كان له أثره في تحقيق عنصر التبادل الذي نجم عنه التأثير والتأثر في نواحي الحياة المختلفة بين الطرفين الأمالفي والإسلامي، والذي بلغ ذروته بتوفر مقومات التفاعل في جو ساده استقرار نسبي إذا ما قيس بالظروف السياسية المتغيرة والصعبة التي حدثت وكان لها أثرها في الإقلال من فاعلية هذه العلاقات إن لم يكن القضاء عليها نهائياً وهو ما يميز الفترة التالية التي تمثل الحدود الزمنية للفصل التالي.

---

(١) عن هذه الأزمات انظر : عبدالمنعم ماجد : المرجع السابق ص ١٤٥ وما بعدها

الفصل الثالث

العلاقات بين أمالفي والمسلمين
في مصر والشام

(١٠٧١-١١٣١م/٤٦٣-٥٢٥هـ)

- الغزو السلجوقي لآسيا الصغرى وبلاد الشام وآثاره على علاقات أمالفي بهذه المنطقة.
- ظروف مصر السياسية والاقتصادية خلال هذه الفترة وأثرها على العلاقات مع أمالفي.
- خضوع أمالفي للنورمان وأثر ذلك على الموقف بالنسبة لها لدى كل من البيزنطيين والمسلمين في مصر والشام.
- وضع الأمالفيين التجاري في صقلية النورمانية وآثاره على مصالحها في الشرق.
- موقف الأمالفيين إزاء الأحوال القائمة في كل من مصر والشام قبل مجيء الصليبيين.
- دور الأمالفيين في تطور حركة الحج، وأثر ذلك على تغيير وضع العلاقات بين الشرق والغرب بصفة عامة.
- دور أمالفي في الحركة الصليبية، والموقف بالنسبة لها لدى حكام مصر والشام في ظل الوضع الجديد.
- وضع أمالفي في مصر والشام بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى.
- سقوط الجمهورية الأمالفية وما آلت إليه هذه العلاقات.

اتخذت العلاقات بين أمالفي والمسلمين في مصر والشام هذا المسار الذي ظهرت أبعاده جلية في الفصل الأول، والتي نمت وتطورت من خلال المراكز الأمالفية التجارية في هذين البلدين، وكذلك المنشآت الدينية التي أقامتها أمالفي في الأراضي المقدسة، وهو ما تؤكده التواريخ المعاصرة، وخصوصاً وثائق الجنيزا التي تشير في مناسبات متعددة على المدى الزمني لموضوع الدراسة إلى استمرار تردد الأمالفيين على هذه المراكز من أجل التجارة، حرفتهم الرئيسية التي نشأوا على الاشتغال بها منذ تاريخهم الأول.

وقد ظل الوضع على هذه الحال خلال الفترة التي نتناولها بالبحث والدراسة في هذا الفصل والتي تمتد من (١٠٧١) حتى سقوط الجمهورية في أمالفي عام (١١٣١م)، إلا أنه استجدت ظروف خلال هذه الفترة بالنسبة لكل من الأمالفيين والمسلمين وكذلك البيزنطيين كان لها أثرها الكبير على هذه العلاقات - على الأقل - بالقدر الذي كان لهذه الظروف بالنسبة للوضع السياسي والاقتصادي في حوض البحر المتوسط بصفة عامة، وتتمثل هذه الظروف في :

أولاً : ظهور الأتراك السلاجقة، واتساع نفوذهم على حساب كل من البيزنطيين والفاطميين.

ثانياً : ظهور النورمان وسيطرتهم على الجنوب الإيطالي وصقلية بما في ذلك أمالفي، ثم اصطدامهم بالدولة البيزنطية.

ثالثاً : قيام الحركة الصليبية في أخريات هذا القرن (الحادي عشر الميلادي). فقد غيرت هذه الحركة الوضع الذي كان سائداً في العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب الكاثوليكي بشكل يكاد يكون جذرياً، بأن تحولت هذه العلاقات من طبيعة غلبت عليها روح المودة والصداقة مثلها الأمالفيون أصدق تمثيل، إلى علاقات اكتنفتها طبيعة

الاستغلال والرغبة في السيطرة والتملك، وكذلك العداء السافر الذي أصبح ظاهرة عامة في التعامل بين لاتين الغرب ومسلمي الشرق.

فبالنسبة للإمبراطورية البيزنطية والمسلمين في مصر والشام، حيث المصالح المتشابكة للأمالفيين في هاتين المنطقتين، ظهرت قوة جديدة بدأت تشكل خطراً عليهما وهي قوة الأتراك السلاجقة(١)، فمنذ أن اعتنق هؤلاء الأتراك الإسلام على المذهب السني، أخذت أنظارهم تتجه صوب الخلافة العباسية الواقعة إلى الغرب منهم(٢)، وقد نجحوا في مد نفوذهم من خراسان إلى أذربيجان، ثم أدت الظروف الصعبة التي كان يمر بها العباسيون في تلك الفترة إلى استنجاد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بهم لإنقاذه من تسلط البويهيين، فدخل سلطان السلاجقة طغرلبك بغداد في عام (١٠٥٥م/٤٤٧هـ) وخطب له على منابرها(٣)، وبذلك أصبح السلاجقة على مقربة من الحدود مع البيزنطيين والفاطميين، وغدا المجال مفتوحاً أمامهم للصدام بهاتين القوتين والتوسع على حسابهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وبدأ السلاجقة جهودهم في هذا

---

(١) السلاجقة نسبة إلى زعيم تلك القبائل الذي كان يسمى سلجوق بن دقاق، وهو الذي وحد تلك القبائل ثم هاجر بها إلى أراضي المسلمين حيث اعتنقوا الاسلام هناك. وقد امتاز هؤلاء، عن غيرهم من قبائل الغزو الأخرى بانهم كانو متفوقين من حيث النظام والتشكيل. انظر :

زبيدة عطا : الترك في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ص ٣٨ - ٣٩ وللمزيد عن أصلهم ونشأتهم انظر : أبو الغدا : المختصر ج ٢ ص ١٧١

(2) cf. Michel Le Syrien : Op. Cit PP. 156-157

أيضاً : أبو الغدا : المختصر ج ٢ ص ١٧٥

(3) michel Le Syrien : Op. Cit PP. 158-160

أيضاً : إبن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٦٧

أبو الغدا : المختصر ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣ ، ١٧٨ - ١٧٩ ، ١٨١

إبن القلانس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٨٣

إبن الاثير الكامل ج ٨ ص ٧٠ - ٧١ وكان الخليفة العباسي في تلك الفترة يتعرض لمؤامرة الباسيري الذي كان يهدف إلى القضاء على الخلافة العباسية وادخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية "انظر أيضاً : أبو الغدا : المختصر ج ٢ ص ١٨٢ إبن القلانس : ص ٨٦

الصدد، بتوجيه هجماتهم ضد الأراضي البيزنطية في أرمينيا وآسيا الصغرى، وقد أصبحت هذه الهجمات أكثر ضراوة عقب وفاة طغرلبك (١٠٦٣م / ٤٥٥هـ)، وتولى ألب أرسلان أمور السلاجقة خلفاً له(١). ففي عام ١٠٧٠م/٤٦٢هـ، خرج هذا السلطان بنفسه، واتخذ من أرمينيا قاعدة لعمليات السلاجقة الحربية، فوجه الحملات منها ضد منزكرت، والرها، وحلب التي أخضع أميرها لسلطانه(٢).

ويبدو أن ألب أرسلان فكر أيضاً في أثناء تلك الفترة في القيام بهجوم على مصر للقضاء على الخلافة الفاطمية بعد أن طلب منه رئيس الجند الأتراك بمصر أن يبعث بقواته السلجوقية لإقامة الدعوة العباسية بالقاهرة(٣)، لكن ظروف ألب أرسلان حالت دون قيامه لتنفيذ هذا المشروع، فعندما كان في حلب علم بخروج الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٧ - ١٠٧١م) على رأس جيشه لمهاجمة أرمينيا(٤)، فألغى السلطان كل خططه على الفور وعاد مسرعاً إلى أذربيجان للإعداد لملاقاة خصمه حيث حدث الوقعة الشهيرة في منزكرد بأرمينيا في التاسع عشر من أغسطس (١٠٧١م) الموافق ١٨ ذو الحجة ٤٦٣ هـ(٥)، ويذكر إبن العديم أن الجيش البيزنطي في هذه الموقعة كان يضم خليطاً من المتطوعين من مختلف الجنسيات من بينها عناصر من

---

(١) إبن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٩٥ - ١٠٠

(٢) سبط إبن الجوزي : مراة الزمان ، ج ٩ حوادث ٤٦٣هـ
إبن القلانسي : ص ٩٩
أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٩٦
Ostrogarsky, G. : Op. Cit P.303

(٣) انظر : إبن ميسر : أخبار مصر ، نشر هذي ماسيه ج ٢ ص ١٩ - ٢٠.

(٤) إبن العديم ، كمال الدين : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ج ٢ ص ٢٣ - ٢٤.

(٥) انظر تفاصيل هذه الموقعة في :
Michel Le Syrien ; Op. Cit 111 PP. 168-170.
الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن حامد : تاريخ دولة ال سجلوق ، بيروت ط ٢ ، ١٩٧٨م ص ٤٠ - ٤٤ أبو الفدا : المختصر ٢ ص ١٩٦ ، إبن القلانس ص ٩٩
Ostrogarsky, G. : Op. cit P.304

الفرنج(١)، وقد كان الأمالفيون - كما سبقت الاشارة - يكونون فرقة من هذا الجيش شاركت في حروبه ضد المسلمين براً وبحراً. وهذا الوجود للعناصر الأمالفية في الجيش البيزنطي رغم أنه يبين مدى ارتباط الأمالفيين ببيزنطة في مجال العلاقات السياسية مع المسلمين في مصر والشام. ذلك الارتباط الذي أوشك أن ينتهي بتحول أمالفي إلى التبعية لقوة أخرى بزغت في ميادين هذا الصراع ونعني بها النورمان. فإن ذلك لم يؤثر بحال على علاقاتهم السلمية وارتباطاتهم التجارية مع هذين البلدين، إذ أن الارتزاق أو التطوع بالإنضمام إلى صفوف اي جيش كانت ظاهرة عامة في ذلك العصر، ولم يوضع في حسبان العلاقات بين الدول على المستوى الرسمي، وأقرب مثال على ذلك أن الكسيوس كومنين تصدى للنورمان بجيش ضم عدداً كبيراً من العناصر النورمانية(٢).

على أي حال فإن موقعة منزكرت أسفرت عن هزيمة البيزنطيين، وكان ذلك دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية المسيحية من ضغط الاسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوربا من غزو الأسيويين، وصار على الغرب الاوربي أن يقوم بدوره في هذا المضمار بدلاً من اعتماده حتى ذلك الوقت على الإمبراطورية البيزنطية(٣)، وبعبارة أخرى فإن هذه الموقعة تبرر في نظر كثير من المؤرخين ما حدث بعد ذلك في عام(١٠٩٥م) من دعوة الحرب الصليبية في الغرب الأوربي، على أساس ان هذه الدعوة انما جاءت رد فعل للكارثة التي حلت ببيزنطة عام (١٠٧١م)(٤).

وبالنسبة للسلاجقة الانتصار في منزكرت كان لايعني أكثر من الرغبة في إعادة

---

(١) انظر : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥

Also : Ostrogorsky, G. : Op. cit Idem

واضاف هذا الاخير أن النورمان كانوا أيضاً من بين العناصر التي ضمها الجيش البيزنطي.

(2) cf. The Alexiad of Anna Comnena, Trans-by E. R. A. Sewter, Penguin Books, Passim.

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٥ - ٦٨

(4) cf. Oster Gorskay G.: Op. cit P.305

أنطاكيا والرها وأرمينيا إلى السيادة الإسلامية(١)، وهو ما لم يتحقق بشكل نهائي إلا في فترة تالية، وقد أسفرت جهود سلاطين الأتراك التوسعية على حساب بيزنطة والفاطميين عن استيلاء السلاجقة على الرملة وبيت المقدس ودمشق(٢)، وأنطاكيا والرها وحمص وعرقة وحلب(٣). وبخضوع كل من صور وطرابلس واللاذقية وكفر طاب وفاميا وشيزر لسلطاتهم(٤). وكان ذلك تنفيذاً لأمر السلطان ملكشاه الخاص بالعمل على "ملك الشام" وما بأيدي خليفة مصر العلوي من البلاد(٥). أما مصر مركز الخلافة الفاطمية فقط أنهكتها الفوضى على يد قواتها المرتزقة من السودان والترك والبربر الذين أعملوا في البلاد السلب والنهب(٦). هذا فضلاً عن الآثار الاقتصادية السيئة الناجمة عن الشدة العظمى التي مرت بها مصر في عام (١٠٦٥م /٤٥٧هـ)، والتي دامت سبع سنوات روعت الناس وجثمت على صدورهم ككابوس مخيف(٧).

---

(١) هذا ما تؤكده شروط المعاهدة التي فرضها السلاجقة على أسيرهم الإمبراطور رومانوس الرابع لكن نظراً لإقصاء رومانوس عن عرش بيزنطة فلم يتم تنفيذ أي من هذه الشروط. انظر : سبط إبن الجوزي : المصدر السابق ج ٩ حوادث ٤٦٣هـ

Also : Osrogarsky, G. : Op. cit PP. 304-305

(٢) إبن القلانس : المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩ ، ١٠٩، أبو الفدا : المختصر ٢ ص ١٩٦ ، ٢٠١.

(٣) عن الاستيلاء السلجوقي على أنطاكية انظر :

Anna Commnena: The Alexiad PP. 152-153

Roger of Wendover : Vo1. I P. 348

أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٠٥ ، إبن القلانسي ص ١١٧

وعن بقية البلاد أنظر : أبو الفدا : المختصر ٢ ص ٢٠٧ ، ٢١٢

إبن القلانس : المصدر السابق ص ١١٥ ، ١٢٠.

(٤) إبن القلانس : المصدر السابق ص ١١٢.

(٥) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٠٧.

(٦) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢١٢

إبن القلانسي : المصدر السابق ص ١٢٠، زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧م ص ١٤ - ١٥.

(٧) انظر التفاصيل في :

المقريزي : إغاثة الأمة ص ٢٢ وما بعدها

الصيرفي : الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٥٠ - ٥٣

وقد بدأت هذه الازمة بقصور النيل وكان في الإمكان أن تمر كغيرها دون أن يصحبها ذلك البلاء العظيم، الذي ينم عن قسوتها وعنفها إلا أن فساد الأحوال السياسية والانقسامات والفتن الداخلية كانت العامل الاكبر في تفاقم الازمة واتساع نطاق خطرها وطول مدتها(١) فانقطعت السبل ، وطرق المواصلات بالبر والنيل، بسبب تعرض المسافرين لاعتداء الجند واللصوص وخربت أحياء باكملها في الفسطاط، وحرقت دور كثيرة بها، وتعطلت التجارة والصناعة(٢).

وإزاء هذه الأزمات قام الخليفة الفاطمي المستنصر باستدعاء بدر الجمالي من فلسطين، ولم يمض زمن طويل حتى قرر هذا الأخير "قواعد البلاد" وأحسن إلى الرعية فعمرت البلاد، وعادت مصر وأعمالها إلى أحسن مما كانت عليه(٣). وأخذت البلاد المصرية تستقبل من جديد عهداً من الرخاء دام نصف قرن، شجع الفاطميين على استئناف محاولاتهم من أجل استعادة نفوذهم في الشام(٤)، وتوفير سبل الاستقرار اللازمة للنهوض بالتجارة بعد أن كانت قد تعطلت من واقع سعيهم إلى استغلال موارد الثروة، وذلك بالقدر الذي يشجع التجار الأجانب على القدوم إليها، وهو ما أكدته الشواهد التاريخية في فترة لاحقة.

وإذا تتبعنا المؤثرات الناجمة عن هذه الظروف التي تعرض لها البيزنطيون والمسلمون في مصر والشام على العلاقات الأمالفية الإسلامية، فإن البعض يرى أن السلاجقة كانوا عنصرا غلبت عليه سمات البداوة.

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٩٩
راشد البراوي : المرجع السابق ص ٨٨.
(٢) المرجع السابق ص ٩٥ - ٩٦.
(٣) سبط إبن الجوزي : المصدر السابق حوادث ٤٦٧هـ
إبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٠٠.
(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٩٨ ، ١١٢
أبو الفدا : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٦

فلم يكونوا أهل مدن بل مالوا إلى حياة التنقل والترحال وفضلاً عن ذلك فإنهم كانوا يشجعون النظام الإقطاعي لاعتقادهم أنه أنسب نظام يقوى به النظام العسكري للولايات البعيدة عن السلطة المركزية، وهذا النظام يتعارض مع النظام النقدي الذي تزدهر في ظله التجارة(١).

ورغم ذلك، فهناك من الشواهد ما يدل على أن السلاجقة لم يحولوا دون قيام عمليات تجارية في البلاد التي خضعت لسلطانهم، بل اتجهوا أحياناً إلى تشجيعها. وفي هذا الصدد يذكر إبن القلانسي أن السلطان ملكشاه أمر "بإبطال أخذ المكوس من سائر التجار عن جميع البضائع في العراق وخراسان، وحظر تناول شئ منها في بلد من البلاد الجارية في مملكته، فكثر الدعاء له من كافة الناس في سائر الأعمال، وتضاعف الثناء عليه من الخاص والعام(٢).

كما أن هجمات السلاجقة رغم ما اتسمت به من العنف والضراوة، فإن سلاطينهم كثيراً ما كانو يجنحون إلى إعطاء الأمان الكفيل بإبقاء وضع البلاد على ما كانت عليه طالما أعلن أميرها الدخول في طاعتهم وتقديم الولاء لهم، وهو ماحدث بالنسبة لبعض مدن الشام الهامة(٣).

ومن ثم فإن الوجود السلجوقي في الشام وأسيا الصغرى لم يعرقل تردد الأمالفيين على الموانى والمدن الشامية كأنطاكية، وحلب، واللاذقية، وطرابلس، وصيدا، وصور(٤)، إذ أنه لا يوجد ما يشير إلى أن تجارة أمالفي في الشام توقفت في هذه الفترة. هذا فضلاً عن أن الاحداث التالية وبالذات تلك الخاصة بقدوم الصليبيين الاوائل إلى الشرق تبرهن

(1) cf. Cahen, Claude : Le Syrie Du Nord P. 196

(٢) إبن القلانسي : المصدر السابق ص ١١٨.

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٠٧ وأيضاً ما سبق ص ...

(٤) ذكر المؤرخ كلود كاهن أن الحي الذي كان للامالفيين في انطاكية ، وكذلك المنشآت بقيت كما هي تعمل لا توقف انظر :

La syrie Du Nord Op. cit P.147

على أن الأمالفيين ظلوا محتفظين بوضعهم التجاري في هذه المناطق .وكانوا مقيمين في المنشآت الخاصة بهم، والتي آل بعضها إلى الصليبيين.

ورغم ذلك فهناك مؤثرات لا يمكن إغفالها في هذا الصدد. وهي أن تجار أمالفي تأثروا كغيرهم من الغربيين بالأفكار التي سادت عن السلاجقة، والتي صاحبت تقدمهم في بلاد الشام من أنهم عنصر اتسم بالتعصب والوحشية - وهو ما احتوته كتابات المؤرخين الغربيين المعاصرين، الذين جنحوا إلى التهويل والمبالغة - وبالتالي تضاءلت الرحلات البحرية التجارية الأمالفية ريثما تستقر الأوضاع في هذه البلاد، وتهدأ أحوالها، خصوصاً وأن هذه الفترة واكبت ظروفاً سياسية صعبة بالنسبة للأمالفيين، كانوا فيها بصدد تغيير في مجال التبعية من البيزنطيين إلى النورمان(١)، فإن ذلك ساعد في الواقع - وبطريق غير مباشر - على ازدهار تجارة كل من مصر والشام بتحول تجارة الغرب اليها دون وساطة القسطنطينية(٢)، إذ اتجهت التجارة العالمية - كنتيجة لهذا الظرف - إلى اتخاذ الطريق إلى الغرب مباشرة وتحولت إلى الأناضول والبحر الاسود، وبالتالي زاد اتصال الأمالفيين بهذين البلدين، وأن ظهور السفن الأمالفية - وكذلك سفن باري والبندقية - في هذه الفترة في الأسكندرية وفي المرافيء الإسلامية الأخرى الواقعة على الساحل حتى مصر يدل على انتقال حركة التجارة صوب الجنوب بعيداً عن فلك العاصمة البيزنطية(٣).

وبالنسبة لبيزنطة يقرر ستيفن رنسيمان أن استيلاء السلاجقة على الشطر الأعظم من أسيا الصغرى قلب حياة الإمبراطورية الاقتصادية رأساً على عقب، وسبّب اضمحلالاً للتجارة البيزنطية، كما قضى هذا الأمر على طريقة تنظيم الجيش والأسطول

(1) cf. La Chromira Amalpitana Op. cit PP. 214-216

(٢) رنسيمان ، ستيفن : الحضارة البيزنطية ص ٢٠٠.

(٣) انظر : اشبيا لدلويس : المرجع السابق ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

الإمبراطوري، وأضاع مصدر تموين المدينة(١)، وقد أثر ذلك بالتالي في وضع التجارة الأمالفية في بيزنطة، إذ أن زيادة اتصال الأمالفيين بالموانى والمدن المصرية والشامية كنتيجة للأوضاع الجديدة، كانت على حساب تجارتها في الإمبراطورية والتي تضاءل حجمها كثيراً عما كان عليه الحال من قبل. لذلك يمكن القول إن وجود السلاجقة في منطقة آسيا الصغرى وشمال الشام بصفة خاصة، وانحسار النفوذ البيزنطي عن هذه الأماكن، حرر تجارة مصر والشام مع أمالفي وغيرها من مدن الغرب من التقيد بحركة المرور عبر المراكز التجارية البيزنطية، وأصبح الاتصال مباشراً بين الطرفين دون الحاجة أيضاً إلى الحماية البيزنطية في التحرك على صفحات مياه البحر المتوسط كما كان الحال من قبل، ويرى البعض أن ذلك كان عاملاً أساسياً في إحياء تجارة الشرق، إذ أنه في ظل الظروف التي أحاطت بكل من بيزنطة والمسلمين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، أصبح وضع المدن الإيطالية البحرية قوياً في هذا البحر، خصوصاً وأن أمالفي وغيرها من هذه المدن استفادت كثيراً من ظروف الضعف التي انتابت الجانبين البيزنطي والإسلامي(٢).

وهناك عامل آخر كان أكثر تأثيراً في وضع العلاقات الأمالفية الإسلامية في غضون هذه الفترة، ونعني به خضوع أمالفي للنورمان وما ترتب على ذلك من تطورات بالنسبة لسياسة الأمالفيين الخارجية. فقد شهد القرن الحادي عشر هجرة جموع غفيرة من النورمان الوافدين من دوقية نورمنديا غرب فرنسا إلى جنوب إيطاليا ووسطها فضلاً عن صقلية، وكان زعيم تلك الجموع وليم هو تفيل Hauteville الذي أصبح أميراً على النورمان في أبوليا عام (١٠٤٢) واتخذ ملفي Melfi مركزاً له(٣)، وهناك ظروف ترتبط

(١) رنسيمان، ستيفن : الحضارة البيزنطية ص ٢٠٠.

(١) انظر : عمر كمال توفيق : الجاليات الأوربية في الاسكندرية في العصور الوسطى فصله من مقال مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، الاسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٢٨٠.

(3) Haskins, ch. H. : The Normans in European History p. 201

بحركة الحج ساقت هؤلاء النورمان إلى غزو صقلية وجنوب إيطاليا. فقد كانت كوكبة من فرسان الفرنج والنورمان قادمة حوالي عام (١٠١٥م) من بيت المقدس إلى جنوب إيطاليا لزيارة ضريح القديس ميخائيل، علم بوصولهم جوايمار الثالث Guionar III أمير سالرنو، فاستنجد بهم للدفاع عن المدينة ضد الحصار الإسلامي المقام عليها، فاستطاعوا أن يدخلوها، وأن يشدوا عزائم أهلها الذين لم يلبثوا أن فكوا الحصار، وهزموا المسلمين، ففرح أهل سالرنو وأميرهم بذلك، فأجزلوا عطاء أولئك الغرباء ودعوهم إلى الإقامة بين ظهرانيهم(١).

ومع أن أولئك الحجاج لم يرضوا بذلك، لرغبتهم في رؤية وطنهم مرة ثانية، فقد وعدوا بأن يبعثوا فتية منهم للدفاع عن النصرانية ضد هجمات المسلمين، ثم توجهوا إلى وطنهم واخذوا معهم كهدايا ثمين النسائج، وفاخر الحلل، وزاهي السروج الذهبية والفضية، وناضج البرتقال الذي لم تعرفه فرنسا قبل ذلك الزمن، قاصدين بذلك أن يرى بنو قومهم تلك المنتجات وأن يتشوقوا إلى زيارة ذلك القطر الذي ينتج مثلها(٢)، ولم يكد هؤلاء الحجاج النورمان يصلون إلى وطنهم حتى أخذوا يقصون على أهله من الأنباء ما ألهبوا به حميتهم، وما دفعهم به إلى غزو إيطاليا وصقلية(٣).

ويرجع الفضل في تأسيس دولة النورمان في إيطاليا وصقلية إلى روبرت جويسكار Guiscard بعد أن تم اعلانه دوقاً على أبوليا وكلابريا (قلورية) في عام (١٠٥٩م)(٤)، وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على مسينا في عام (١٠٦١م)، واوترنتو وبرنديزي في العام

---

(1) cf. Bertolini, Francesco : Op. cit P.68

Also : Taaffe, John : Op. cit P.4

(2) Haskins, ch. H. : Op 6 cit P.199

أيضاً : لوبون ، جوستاف : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ط ٢٣ بيروت ص ٣٧٢

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق نفس الصفحة وعن شخصية جويسكار انظر :

The Alexiad of Anna Commne P.54 seq

التالي، ثم باري عام (١٠٧١م) وبالرمو في العام التالي(١)، وقد اقترف النورمان في سبيل ذلك فظائع من أعمال السلب والنهب والتخريب(٢)، بحيث اعترف أهل هذه البلاد بأن صداقة هؤلاء الغزاة المسيحيين اشد وقرا من عداوة العرب(٣).

وفي بداية الأمر حاولت البابوية ممثلة في شخص البابا ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤م) أن تحد من سلوك هؤلاء النورمان استجابة لاستغاثات أهالي البلاد التي احتلوها، فلم تجد آذاناً مصغية من جانبهم، لذا اتجهت إلى تكتيل القوى المسيحية المعاصرة ضدهم وإعلان الحرب عليهم(٤)، لكن انتهت هذه المحاولة بهزيمة البابوية وجنودها، مما اضطرها إلى تغيير سياستها ازاءهم وتعمل على التحالف معهم للاستفادة بهم في حروبها ضد الإمبراطورية(٥)، وتم ذلك في اتفاق أبرم في ملفي Melfi إحدي مقاطعات جمهورية أمالفي - التي سبقت الإشارة إليها بين البابوية والنورمان في عهد البابا نيقولا الثاني Nicolas II (١٠٥٨ - ١٠٦١م)، وتحت تأثير ووساطة الكاردينال

---

(1) cf. Haskins, ch H. : Op. ckt p. 200,207

(٢) عن هذه الطبائع التي عرفت عنهم منذ كانوا في موطنهم الأول في فرنسا انظر :

Chronico De gestis Normannorum in Francia, R. H. G. F. , Tome V11, p. 204

وعما أقترفوه من هذه الأعمال في بيزنطة انظر :

The Alexiad of Anna P.188

(٣) لوبون ، جوستاف : المرجع السابق ص ٣٧٢.

(٤) سجل هذا الموقف البابا ليو في خطاب بعث به إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع يقول فيه : "يكاد قلبي ينفطر من الأخبار المحزنة التي أنبأني بها رسل إبني ارجيروس ، فعزمت على تطهير إيطاليا من ظلم هؤلاء الأجانب النورمان .. الذين لا يحترمون شيئاً عن اندفاعهم ، والذين يذبحون النصارى ويسومونهم أشد العذاب غير راحمين ولا مفرقين بين الجنسين والاعمار ، والذين ينهبون الكنائس ويحرقونها وهدمونها ، والذين ينظرون إلى كل شيئ على أنه فريسة يباح سلبها ، والذين قد اكثرت من لومهم على فسادهم ، ومن انذارهم بسوء احكامي، وخوفتهم من سخط الرب ، فلم يذدهم ذلك إلا عتواً ... فتراني قد عزمت على شهر الحرب الدينية المشروعة على هؤلاء الغربا، الثقلاء الذين أمعنوا في الظلم فصار امرهم لا يطاق ، وذلك دفاعاً عن الشعوب والكنائس" . لوبون ، جوستاف ، المرجع السابق ص ٣٧٣.

(٥) اشارت انا كومينا إلى ظروف البابوية الصعبة في صراعها مع الإمبراطورية التي كانت كمدعاة إلى هذا الاتفاق ، كما ساعدت على تقدم النورمان. انظر

The Alexiad PP. 61-62

Also : Roger of Wendover : Op. cit I P. 336 seq

هلدبراند حيث تم الاعتراف من جانب البابوية بشرعية حكم النورمان لجنوب إيطاليا مقابل اعترافهم بالتبعية للبابا، ودفع مبلغ معين من المال له سنوياً. وفضلاً عن أن مقر الاتفاق كان مدينة أمالفية فإن حضور رئيس أساقفة أمالفي وعدد من الأمالفيين البارزين توقيع هذا الاتفاق(١)، إنما يدل على مركز جمهورية أمالفي المتقدم بالنسبة للجنوب الإيطالي وهو ماكان له أثره في تحديد معاملة قائمة على الاحترام والتقدير من جانب النورمان لهؤلاء الأمالفيين، رغم ما عرف عن هؤلاء الغزاة من طبائع اتسمت بالعنف والقسوة كما أشرنا سلفاً.

على أي حال، فقد استمر النورمان يبتلعون المدن الواحدة تلو الأخرى سواء في جنوب إيطاليا أو في صقلية. وتم لهم الاستيلاء على الجزء الجنوبي بأكمله سواء الممتلكات البيزنطية، أو امارة بنفنتو التابعة للبابوية مما أثار قلق هلدبراند الذي أصبح بابا في عام (١٠٧٣م)، وحاول أن يحد من ذلك الخطر عن طريق الاستعانة بوليم كونت برجنديا. إلا أن محاولات هذا البابا - المعروف بالعنف والصداقة - لم تفلح في وقف التوسع النورماني، إذ لم يلبث روبرت جويسكارد أن غزا أيضاً كلا من سالرنو وأمالفي(٢).

وبالنسبة لأمالفي، فنظراً لانها كانت أكثر ارتباطاً ببيزنطة لتشعب مصالحها في الإمبراطورية، فقد دأب الأمالفيون منذ أن استشرى الخطر النورماني في أوصال

(١) انظر نص اتفاقية ملفى هذه والأسماء التي وقعت الاتفاقية في

Pansa, Francesco : Op. cit I P. 60

والاشارة إليها في

The Alexiad of Anna Commena P.63
Also : Haskins, ch. H. : Op. Cit P.204
Taaffe, Jhon : Op. Cit P.5
(2) Bertolini, Francesco : Op. cit P.72
Haskins, Ch. H. : Op. Cit P.202
Cam. Med, Hist. Vo1. V. P. 179

سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣١٩.

الجنوب الإيطالي على بذل كل ما في وسعهم لتكتيل الجهود ضد هؤلاء النورمان. ويبدو أن أمالفي الوطن الأم كانت مضطربة من جراء هذا الخطر المحدق بها، فجاءت هذه المساعي من جانب رجالها البارزين المقيمين في الخارج فماورو Mauro السالف الذكر الذي كان رئيساً للجاليات الأمالفية في المشرق، والذي اتخذ من القسطنطينية مقراً له لمتابعة أعماله، يذكر عنه المؤرخ وليم هايد أنه كان يضع قوته الحربية تحت خدمة الأباطرة البيزنطيين في أوقات الشدة، وحتى يقضي على تفوق النورمان في إيطاليا سعى في الفترة ما بين عامي (١٠٦٢م - ١٠٦٨م) من أجل إقامة تحالف ضد هؤلاء النورمان يجمع بين الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر دوكاس Constontine X Ducas (١٠٥٩ - ١١٠٥م) والقوى الرئيسية في الغرب الأوربي متمثلة في البابا هونوريوس الثاني Honarius II (١٠٦١ - ١٠٧٣) والملك هنري الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٥م)، واتخذ ماورو في هذا السبيل طرقاً شتى سواء من خلال الاتصال بهذه الأطراف بنفسه، أو عن طريق إرسال الخطابات لعمل هذه الدعوى المشتركة ضد النورمان(١).

ونظراً لأن البابوية والإمبراطورية كانتا منشغلتين في الغرب بالصراع القائم بينهما، فلم تجد نداءات ماورو الأمالفي آذاناً صاغية لدى أي منهما، فقرر كل طرف الاعتماد على نفسه في مواجهة هذه الصعاب. فبينما قام الإمبراطور البيزنطي بحشد الفرق المحاربة في بوليا Pouille لمحاربة النورمان، قام مارور باتباع نفس الأسلوب الذي سلكه إبنه بانتاليون وهو توجيه النصح والمخططات التي تساعد على مقاومة النورمان إلى دوق سالرنو جيسولف Gisulf لمحاربة النورمان.

وعندما ذهب هذا الأخير إلى القسطنطينية، بحجة أنه ذاهب للحج إلى بيت المقدس، وذلك لاستمالة الإمبراطور وحثه على إعلان الحرب ضد النورمان، أكرم ماورو وفادته

(1) cf. Histoire du Commerce de Levant au Mayen Age, Tone I. P. 101

واستضافه في منزل إبنه بانتاليون الكائن في العاصمة الإمبراطورية رغم ما كان بين أمالفي وسالرنو من خلاف سياسي(١).

ورغم كل هذه المحاولات من جانب الأمالفيين، فإن سيطرة النورمان ظلت تقوى وتتزايد. ويرى البعض أن أمالفي اسهمت في ذلك كثيراً حينما أذعنت ارادتها لروبرت جويسكارد عام (١٠٧٣م)، ومرة ثانية عندما ساعدته في الاستيلاء على سالرنو عام ١٠٧٦م(٢).

والواقع أن هناك ظروفاً تتعلق بالوضع بالنسبة للأمالفيين في الخارج والداخل فرضت عليهم اتخاذ هذا الموقف الذي ينم عن بعد نظر وذكاء اكتسبوه من مهارتهم وخبراتهم في ميداني السياسة والتجارة. ففي الخارج أصبح النورمان كما راينا هم المسيطرين على معظم الجنوب الإيطالي، ويحتلون المدينة تلو الأخرى في غياب أية قوة تحول دون تقدمهم، وبالتالي كان على الأمالفيين أن يلجأوا إلى مصانعة هؤلاء الأعداء والاستسلام للأمر الواقع، والتكيف مع الوضع الجديد بالقدر الذي يحميهم من هجمات النورمان المخربة، ومن فقدان حريتهم التي يحرصون عليها.

أما بالنسبة للداخل، فإن الحالة السياسية التي كانت العامل الأكثر قوة في الرخاء التجاري الأمالفي لم تستمر طويلاً، والمتمثلة في استقلالهم في إدارة أعمالهم الداخلية. فالأمالفيون بسبب إنتشار جالياتهم والقوات التي تصحب كل جالية لتوفير عنصر الدفاع عنها في أنحاء متفرقة في الشرق : في مصر والشام وبيزنطة وفي الغرب حيث المراكز الأمالفية المتركزة في أماكن الحصول على السلع المنتجة، وتصريف منتجات الشرق، لم يكن لديهم القوة الكافية للصمود في مواجهة أعدائهم من الجيران، ومن ثم تمكن هؤلاء الأخيرين ـ في ظل هذه الظروف ـ من السيطرة على أمالفي.

(1) cf. Heyd, W. : Op. Cit Tome I P. 101
(2) Ibid Jdem

فقد استولى جوايمار الرابع Guaymar IV أمير سالرنو على أمالفي وفي عام (١٠٥٢م) ثار الأمالفيون ضد هذا الاحتلال، وانتهى الأمر بمقتل جوايمار(١) فاعتقدوا أن ذلك خلّصهم من السطوة التي أثقلت كاهلهم، لكن إبنه جيولف السالف الذكر استطاع أن يفرض سلطته على أمالفي، وجعل مواطنيها يحسون بقسوة هذه السيطرة. وإزاء عجز الأمالفيين على استعادة حريتهم بأيديهم، فقد التمسوا من روبرت جويسكارد في عام ١٠٧٣م أن يساعدهم على بلوغ هذه الغاية(٢). لذلك تحالف جسكارد مع الأمالفيين وشن هجوماً من ناحيتي البر والبحر على سالرنو. وقد قام أسطول أمالفي بمهمة الهجوم البحري، وسد طريق البحر على أهالي سالرنو حتى اضطروا للتسليم في عام (١٠٧٧م) واستولى روبرت جسكارد على المدينة، وضمت إلى باقي ولايات النورمان(٣)، وفي مقابل ذلك قدمت أمالفي بعضاً من التنازلات فقدت بسببها حريتها إلى الأبد، فقد عاشت الجمهورية، لكن كجزء من مملكة النورمان(٤).

ويؤكد ذلك الوضع الذي آلت اليه أمالفي المؤرخ ليوجي شاركي ورغم أنه يتفق مع وليم هايد في النتائج، إلا انه يورد تفاصيل مختلفة. فيذكر أنه من الأخطاء التاريخية الخطيرة تأكيد البعض بصفة مستمرة على أن أمالفي سقطت في أيدي النورمان بقوة السلاح لأن ذلك تم بالنسبة لروبرت جويسكار بسبل دبلوماسية(٥)، والدليل على ذلك يراه في عدم اجتماع أمرين متناقضين في أن واحد وهما : استيلاء النورمان على مقاليد

(1) cf. Pansa, Francesco : Op. Cit Vol. I P. 55 seq.

(2) Heyd, W. : Op. Cit Tome I p. 107

(3) cf. Sismondi, D. S. J. : Op. cit, P. 276

(4) cf. Heyd, W. : Op. Cit Tome I J dem

(5) cf. Le Repubbiche Marinare d, Amalfi P.36

وقد اشار إلى أن السبب في اختلاف الآراء في هذا الموضوع هو أن بعض المؤرخين القدامى ذكروا في تواريخهم أن روبرت جويسكارد حصل على دوقية أمالفى في عام ١٠٧٥م دون أن يحددوا كيف تم ذلك ومنهم السومنتي

ii Summonte Anno 1075 Robertis guiscardus Dncatum, Obtinint

السلطة في أمالفي، واستمرار الجمهورية الأمالفية لمدة ستة وخمسين عاماً بعد هذا التاريخ، أي حتى عام ١١٣١م (١).

وعلى النقيض مما يراه هايد كنتيجة لهذا الوضع يضيف شاركي بأنه رغم أن أمراء أمالفي استنجدوا بملك أجنبي هو روبرت جيسكارد لتولي مقاليد الحكم في مدينتهم لم يريدوا بذلك الغاء جمهوريتهم، لكنهم أرادوا فقط إبعاد الأسرة الحاكمة عن هذا المنصب، ومن ثم فإن جيسكارد لم يتم استدعاؤه من أجل الاستيلاء على أمالفي، وإنما لكي يتولى الحكم مع الالتزام بالمحافظة على الأنظمة السياسية قائمة كما هي دون مساس(٢). وفضلاً عن ذلك فقد اشترط الأمالفيون في اتفاقهم معه على ألا تطأ أقدام الجنود النورمان مدينة أمالفي على أن يتكفلوا هم أنفسهم بحراسة تحصيناتهم دون عون خارجي(٣). ولقد قبل جويسكارد بالفعل هذه الشروط، ولهذا يكمن السبب في بقاء الجمهورية الأمالفية في ظل الحكم النورماني حتى عام (١١٣١م)، فبعد أن تولى روبرت جويسكارد مقاليد الحكم في أمالفي أبدى احترامه على الوجه الأكمل للنظم السياسية للدولة(٤) ومن ثم احتفظت المدينة بكيانها الجمهوري، وباستقلالها وبقوانينها، وعملاتها. وهكذا أصبح هناك جمهورية تحكم بواسطة ملك دولة أخرى، وهو شيء يُعد حدثا فريداً

(1) Ibid Jdem

وملخص التفاصيل التي أوردها شاركي في هذا الصدد أن الأمراء الأمالفيين المعارضين لاسرة الأمير سرجوا الرابع
Sergio IV
(١٠٦٩ - ١٠٧٣) التي حكمت أمالفي بالوراثة ، انتهزوا فرصة وفاة هذا الامير واستدعوا روبرت جويسكار وقلدوه حكم مدينة أمالفي انظر

Lerepubliche Marinare d, Amalfi P.37

(2) cf. Carci, Lingi : Op. Cit P. 37

وقد نقل هذه الرواية عن المؤرخ الايطالي فرانشيسكوبانسا.

(3) cf. Sismandi, De S. J. : Op. Cit J dem

(4) cf. Carci, Lingi : Op. Cit Jdem

من نوعه في التاريخ(١).

وعن أثار هذا الوضع بالنسبة لتجار أمالفي وعلاقاتهم بالشرق اختلفت وجهات النظر، وهذا الاختلاف - كما يبدو للباحث - منشأة النظر إلى وضع التجارة الأمالفية في ظل الحكم النورماني من زاوية واحدة تختص بأحد المجالات الهامة بالنسبة لهذه التجارة. فوليم هايد يعلق أهمية كبرى على وضع أمالفي في الإمبراطورية البيزنطية، والذي استطاعت من خلاله أن تستحوذ على تجارتها المزدهرة وسلعها النادرة(٢)، فضلاً عن تجارة مصر والشام، والربط بين هاتين التجارتين عن طريق الوساطة التجارية، وتحقيق اتصال دائم بين موانئ الشرق ومدن الغرب بما تحتاجه كل منها من سلع، أو بما تقدمه من إنتاج فائض لأغراض التبادل التجاري. بمعنى أن بيزنطة كانت قاعدة للعمليات التجارية الأمالفية سواء مع مصر والشام والشرق بصفة عامة، أو مع الغرب الأوربي.

ولما كان العداء سافراً بين النورمان والبيزنطيين، لحنق هؤلاء الاخيرين وغضبهم إزاء طرد النورمان لهم من جنوب إيطاليا، بل وقيامهم بمهاجمة البيزنطيين في عقر دارهم(٣)، وطالما أن الأمالفيين تحولوا من التبعية للإمبراطورية البيزنطية إلى رعايا للنورمان أعداء

(1) cf. Carci, Lingi : Op. Cit Jdem

Also : Sismondi, Des. J. : Op. Cit P. 284.

(٢) يذكر المؤرخ ايورجا N. Jarga أن أمالفي كانت تنقل البضائع الشرقية التي كان الإمبراطور نقفور يتباهى بأنه يملك اشيا، يفتقدها الأوربيون مثل الملابس الثمينة والعطور الشرقية وغيرها بحيث كان من الممكن بالنسبة للمعاصرين أن يجيبوه بأنهم يملكون أيضاً هذه السلع عن طريق الأمالفيون

cf. Points De Vue Sur L Histoire Du Commerce De L, Orient P. 60

(٣) في خطاب أرسله روبرت جويسكار إلى البابا معتذراً عن عدم استطاعته مساندة البابوية في حروبها ضد الإمبراطورية . ويؤكد أن سبب ذلك هو رغبته في التفرغ لحرب البيزنطيين. يقول : "من الدوق روبرت إلى السيد والقس السامي العظيم . برحمة من الله. رغم انني سمعت عن الاعتدا، الذي وقع عليك من أعدائك ، فانني لم أعط القصة مزيد من الاهتمام لاعتقادي بأنه لا يجرؤ أي فرد أن يرفع يديه ضدك ، لأنهم لا يمكن أن يهاجموا هذا الأب العظيم إلا إذا كانوا معتوهين. وأرجوا أن تتأكد أنني أسلح نفسي لحرب هامة ضد أناس من الصعب قهرهم وهم الروم أعدائي الذي عاثو في البر والبحر بانتصاراتهم .."

The Alexiad of Anna Camnena P.65

هذه الإمبراطورية فإن هذا التغيير في الوضع السياسي - من وجهة نظر هايد - قضى نهائياً على تجارة أمالفي مع الشرق، إذ أن مواطنيها فقدوا منذ ذلك الحين حماية الإمبراطور البيزنطي الذي حول كل رضاه عنهم إلى منافسيهم البنادقة(١)، وهو ما يؤكده المؤرخ كلود كاهن بقوله إن ذلك الوضع أدى إلى إفساد تجارة أمالفي الشرقية(٢).

وفضلاً عن ذلك، فان البيزنطيين الذين كانوا ينظرون دائماً إلى الأمالفيين على أنهم الحلفاء المخلصون للإمبراطورية، بدأوا يتشككون في نواياهم(٣)، ويعملون على إرضائهم ببعض المغريات، خشية أن ينحازوا إلى سادتهم النورمان في حروبهم ضد الإمبراطورية. وقد ظهر ذلك بوضوح في الحرب بين النورمان والبيزنطيين عند دراخيوم التي كان الأمالفيون يشكلون أغلبية بين سكانها - كما تذكر انا كومنينا - ويفهم من سياق الأحداث أن روبرت جويسكارد تمكن من هذه المدينة(٤).

ورغم أن جماعة من الأمالفيين كانت في صفوف العناصر الأخرى التي تكون منها الجيش البيزنطي، إلا أن أمالفي - في هذه الفترة - كانت - فيما يبدو - لا تزال حريصة على الاستمرار في اتباع سياستها القديمة الخاصة بالحفاظ على العلاقات الطيبة مع الأطراف التي ترتبط معها بمصالح تجارية، كموقفهم من الصراع البيزنطي الإسلامي، أوحروب ملوك الغرب أو أمرائهم مع مسلمي شمال إفريقيا، وترتب على موقف أمالفي هذا أن الكسيس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨) اتجه إلى الاعتماد في طلب المساعدة على كل من البنادقة والأتراك المسلمين(٥).

وبالنسبة للبنادقة طلب منهم الكسيس إعداد حملة بحرية على أن يعوضهم بأضعاف

(1) cf. Histoire du Commerce, Tome I PP. 107-108
(2) cf. La Syrie du Nord A L Epoque des Croisades PP. 488-489
(3) cf. Cahen, Claude : Op. cit P. 488
(4) cf. The Alexead PP. 192-193
(5) Ibid: P. 137

ما ينفقوه على هذه الحملة، هذا فضلاً عما يحصلون عليه من غنائم(١)، الأمر الذي عوضهم للانتقال من جانب روبرت جويسكار(٢) لكنهم نجحوا في تحقيق نصر على قواته لصالح بيزنطة وبذلك كان على الإمبراطور أن يسارع بتنفيذ وعوده لهم ، وقد كانت عبارة عن امتيازات ومنح، معظمها كان على حساب الأمالفيين(٣). فقد رفع دوق البندقية Domenico Silvo إلى مرتبة Frotasebastas كما حصل بطريرك المدينة على لقب Hypertimas ومنح الاثنان معاشاً مجزياً، كما خصص لكنائس البندقية مبلغ من الذهب (لا يستهان به)، يصرف سنوياً من الخزانة الإمبراطورية بناءاً على أوامر الإمبراطور، أما كنيسة القديس بطرس، فقد فرض الكسيس في هذا المرسوم الذي أصدره على جميع الأمالفيين الذي يملكون مصانع ومحلات في القسطنطينية أن يدفعوا ضريبة لهذة الكنيسة وحدد هذا الوضع على المحلات الكائنة في المنطقة من مرسى اليهود القديم حتى موقع يسمى فيجلا Vigla بما في ذلك المراسي الواقعة بين هذين المكانين، يضاف إلى ذلك هبات بأملاك كثيرة سواء في العاصمة أو مدينة دراخيوم، أو في أي مكان يحدده البنادقة بأنفسهم(٤)، والأكثر من ذلك أنه أعطى للبنادقة حق البيع والشراء في جميع الأراضي التابعة للإمبراطورية البيزنطية دون الرجوع إلى رجال الجمارك أو المالية أوالمواني، وجرد هؤلاء جميعاً من أي حق يتعلق بفرض مكوس على بضائع البنادقة، وقد حدد هذا المرسوم البلاد التي ينطبق عليها هذا الوضع وجميعها تطل على البحار أو من السهل وصول البضائع إليها عن طريق البحر - وتبدأ القائمة بمدن شمال سوريا، ثم أجزاء من آسيا الصغرى وماتلا ذلك شمالاً، وكذلك البلدان الأوربية وخصوصاً في الجزء البيزنطي الموازي لإيطاليا(٥).

(1) I bid PP. 137-138, 139
(2) Ibid P. 190
(3) Ibid PP. 190-191
(4) Ibid : Jdem
(5) Heyd, w. Op. cit Tome I p. 119

وهكذا أصبح للبنادقة وضع متقدم على الأمالفيين في الإمبراطورية البيزنطية، وهو ما حدث بالنسبة لهم أيضاً في موانيء مصر والشام من الآن فصاعداً، في الوقت الذي أخذ فيه نفوذ الأمالفيين في الانحسار رويداً رويداً عن هذه المناطق(١)، وكانت نقطة البداية في هذا الوضع ذلك المرسوم الذي غير التوازن السائد بين كل من أمالفي والبندقية بالنسبة لعلاقات المدينتين بالشرق، ولكن منذ أن أصدره الكسيس، تدهور حال الأمالفيين، وأصبحوا تجاراً في المرتبة الثانية(٢)، ورغم ذلك فقد حرص رجال أمالفي على ألا يخسروا مكانتهم في الإمبراطورية البيزنطية بشكل كلي حيث الامتيازات والتجارات المربحة، بل حاولوا أن يستعيدوا ثقة الأباطرة فيهم في أي مناسبة تواتيهم، وحدث ذلك بعد وفاة روبرت جويسكار فقد طلب الكسيس من الأمالفيين المقيمين في دراخيوم - بواسطة البنادقة - أن يسلموه المدينة (ويرضخوا لرغباته)، وبذل لهم نظير ذلك الوعود السخية، فاستجابوا على الفور لرغبات الإمبراطور، وقتلوا الرجل الذي قادهم لتسليم دراخيوم إلى روبيرت جويسكار، وكذلك الموالين له، ثم سلموا المدينة إلى الكسيس، ومقابل ذلك حصلوا على عفو شامل(٣) وبالتالي ألغيت الضريبة التي فرضت على الأمالفيين(٤)، ولعل هذه النتيجة التي آل إليها وضع تجار أمالفي في بيزنطة تخفف من حدة الحكم الذي قضى به البعض على تجارة أمالفي مع الشرق على أنها انهارت تماماً في ظل تبعية المدينة للنورمان(٥).

(1) The Alexiad P. 191 N.4
(2) cf. Conigli, Y. : Op. Cit P. 104
Also : Heyd, W. : Op. cit Tome I PP. 107-108
(3) The Alexiad P. 193
(4) Coniglio, g. : Op. Cit P. 104-105
(5) cf. Jarga, N. : : Op. Cit P. 60
Heyd, W. : Op. Cit Tome I pp 107-108
Cahen , Claude : : Op. Cit P. 489
The Alexiad P. 191 n-4.

ويوضح وجهة النظر هذه المؤرخ كلود كاهن بقوله إن خضوع أمالفي للنورمان كان يعني طاعة الأمالفيين وانقيادهم وراء السياسة العامة النورمانية، وتمثيل أيضاً لسياسة هؤلاء الأخيرين الحربية ضد المسلمين في شمال إفريقيا، وضد بيزنطة، مما كان له أثره على المصالح أو الإهتمامات التجارية الأمالفية في سوريا نفسها، وإعاقة لتجارة أمالفي مع الشرق بصفة عامة(١).

وقد أيد هذا الرأي أيضاً المؤرخ أرماندو شيتاريللا بقوله : إنه قبل الغزو النورماني، كانت أمالفي المنافس الوحيد للبندقية في التجارة ـ فقد كانت في الحقيقة المركز الوحيد في إيطاليا باستثناء هذه المدينة الأخيرة، الذي يملك تنظيماً لاستخدام المنتجات الزراعية في التبادل التجاري عبر البحار، وذلك عن طريق سلسلة من جاليات التجار التي منحت امتيازات حرة وإعفاءات محلية سواء في مراكز الإنتاج الضخمة، أو داخل أسواق ماوراء البحار، وأيضاً تسهيلات مينائية وملاحية، والأكثر أهمية من كل ذلك أنهم كان لديهم رأس المال اللازم للاستثمار في هذه التجارة، أما الغزو النورماني فقد سلب أمالفي استقلالها السياسي، ووضع حدوداً لحريتها في ميدان التجارة بتكريس اتجاه المشروعات إلى الاعتبارات السياسية(٢).

وعلى النقيض من ذلك هناك وجهة نظر أخرى ترى أن فقد أمالفي لاستقلالها السياسي بخضوعها للنورمان لم يترتب عليه أي ضمور في معاملاتها التجارية فبالرغم من ظروف التأخر التي تعرضت لها المدينة، فقد استمرت الجمهورية متماسكة ومواظبة على العمل من أجل تقدم جالياتها في الدوارزو (دراخيوم) وعكا، وطرابلس الشام، وأنطاكية. هذا بالإضافة إلى أن استيلاء النورمان على صقلية ضمن للأمالفيين أسواقاً مزدهرة كانت مقصدهم في الماضي، وأصبح في إمكانهم دخولها في ظل هذا الوضع

(1) cf. La Syrie Du Nord PP. 488-489
(2) cf. The Commerce of Amalfi PP. 542-543

بأمان أكثر في الواقع بالنسبة لهم مما كان عليه الحال في العصر الإسلامي(١).

ورغم انضمام أمالفي من الناحية السياسية إلى النورمان الذين كانوا معادين للبيزنطيين والمسلمين، فإن هؤلاء النورمان مع ما امتازوا به من ميول استعمارية كانوا حريصين على عدم خلق صعوبات أمام أعوانهم (الأمالفيين) تحول دون دخول هؤلاء الأخيرين أسواق المسلمين، هذا فضلاً على أن السياسة الضريبية النورمانية كانت في صالح التجار والتجارة، وبالتالي أتيح لتجار أمالفي الاحتفاظ بمراكز قوية في مجال التجارة، وظلوا يحظون برضاء وترحيب مسلمي حوض البحر المتوسط بما فيهم الأفارقة(٢).

والخلاصة - كما يراها المؤرخ جيوزيبي كوينجليو - هو أن العلاقات بين أمالفي والمسلمين في حوض البحر المتوسط بصفة عامة لم يطرأ عليها توقف بسبب الخضوع للنورمان، بل إنه بتبعية المدينة لنظام أوسع مجالاً أعطاها حرية أكثر في الحركة بحيث شغل الأمالفيون مركزاً متقدماً بين ملاحي هذا البحر، وترددت سفنهم على آسيا الصغرى واليونان والقسطنطينية، وموانيء سواحل إفريقيا الشمالية وغربي البحر المتوسط، ولاسيما عكا والأسكندرية اللتان كانتا مقصدهم المعتاد(٣).

وهكذا أصبحنا أمام وجهتي نظر على طرفي نقيض : إحداهما : ترى أن تجارة أمالفي مع المشرق إنهارت بسبب خضوع هذه المدينة للنورمان على أساس أن هؤلاء الأخيرين كانوا أعداءً لبيزنطة والمسلمين، وترتب على ذلك فقدان الأمالفيين لوضعهم

(١) يمثل وجهة النظر هذه كل من

Coniglio, Y. Op. Cit PP. 104-106
Carci, Liugi Op. cit P.37
Camera, M. Op, cit Tome I P. 281
Gver, G: le Commerce et Les Merchands I. Italie Meridionel Au X111 et au X1V siecle; Paris 1903, P. 138
(2) Coniglio, Y. : Op. Cit P. 10
(3) I bid P. 113

التجاري في هذه المنطقة وخصوصاً في الإمبراطورية البيزنطية مما ترتب عليه آثار جانبية أيضاً بالنسبة للتجارة مع بلاد الشام.

أما وجهة النظر الأخرى فترى أن خسارة الأمالفيين لهذا الوضع في بيزنطة كانت موقوتة بحروب روبرت جويسكار ضد الإمبراطورية في عامي (١٠٨١ ـ ١٠٨٢م)، وأن الإجراءات الانتقامية التي فرضها الكسيس كومنين على الأمالفيين لصالح البندقية انتهت بوفاة جسكارد، وبالتالي فإن مركز أمالفي التجاري في كل من بيزنطة ومصر والشام وشمال إفريقيا لم يتأثر بهذا التغيير السياسي، بل أن الأمالفيين بتبعيتهم لنظام شمل نطاق مكاني أكثر اتساعاً، فتح أمامهم أسواقاً جديدة وزاد من نشاطهم التجاري، خصوصاً وأن النورمان أنفسهم كانوا من المشجعين للعمل التجاري كما يتضح من سياستهم الضريبية إزاء التجار والتجارة.

والواقع الذي تؤكده التطورات التالية هو أن الأمالفيين في ظل التبعية النورمانية اجتهدوا في الحفاظ على وضعهم في أسواق الشرق وفي مراكزهم ومنشآتهم في كل من مصر والشام، وأيضاً في الاحتفاظ بمكانتهم لدى حكام هذه البلاد بقدر قريب مما كان عليه الحال من قبل، ولم تتأثر هذه المكانة بذلك التغيير السياسي الذي طرأ على أمالفي، وإنما كان تأثرها بدرجة كبيرة ناجما عن تغير الأوضاع السياسية لدى المسلمين في مصر والشام، وإن امتاز هؤلاء التجار ـ كما رأينا ـ بقدرتهم على التكيف مع أية متغيرات في سبيل الحفاظ على مصالحهم الخاصة(١).

وأبعد ما يكون قد وصل إليه تأثير التبعية للنورمان هو ـ كما يرى بعض المؤرخين ـ هجرة التجار الذين ألفوا حياة الحرية من مدينة أمالفي (الوطن الأم) إلى المراكز التابعة لهم، والمنتشرة في الشرق والغرب حيث تتمركز جالياتهم، وهؤلاء دعموا العمل التجاري

(١) يذكر سيسموندي أنه بينما كانت أمالفى في أوربا تتعرض لهذه الازمات السياسية ، كان رعاياها في الشرق بأعمالهم يرسون قواعد عظمتها في البحار. انظر
Histoire des Repubbliques Jtaliennes au Moyen Age P. 282

لهذه المراكز ووسعوا مجاله، كما اتجه البعض منهم إلى العمل وكلاء تجاريين، ولعبوا من خلال حظوتهم لدى الحكام، وتمتعهم بسمعة طيبة لدى أهالي البلاد، التي تأجروا معها دوراً كبيراً في تنشيط تجارة بعض المدن الأخرى.

وقد استفاد الأمالفيون كثيراً من وراء قيامهم في ذلك العصر بدور الوسيط التجاري، فضلاً عن أنهم أبقوا على علاقاتهم مع هذه البلاد، وظلوا التجار المفضلين لدى أهلها إلى أن حدثت متغيرات كانت أقوى من أن يواجهوها وهم في خضم نضال ضد ما قد يعتري تجاراتهم من جراء فقدان استقلالهم السياسي، ويؤكد احتفاظ تجار أمالفي بوضعهم التجاري، وشهرتهم في الموانيء الإسلامية المهمة في كل من مصر والشام في عصر السيادة النورمانية، قصيدة لشاعر عاش في العصر النورماني، هذا تغنى فيها بمجد أمالفي البحري والتجاري وهو الشاعر وليم بوجليزي gugliemo Pugliese، فقد ذكر أن الأمالفيين في هذه الفترة كانوا يجلبون إلى الغرب السلع الهندية والعربية، وكانوا يقومون بهذا العمل جميعاً على اختلاف طبقاتهم سواء أكانوا من النبلاء أم العامة، وهؤلاء التجار كانوا دائبي السعي بتجاراتهم ما بين الأسكندرية وأنطاكية، وإفريقيا وصقلية، وأحرزوا تقدماً كبيراً وشهرة فائقة في مجال الملاحة(١).

(1) cf. Camera, M. : Op. Cit; I P. 197

وقد أوردنا نص هذه القصيدة كاملاً في لغته الأصلية اللاتينية لما حوته من معلومات مفيدة تخص موضوع البحث ذكرها شاهد عيان على هذا العصر. ومن المفيد أن نورده هنا كدليل له قيمته التاريخية

Urbs (Amalphis) haec dives Opum populoque referta
Videtur; Nulla magis locuples argento, vestibus, auro
Partibus innameris, ac Plurimu Orbe maratur:
Naute Maris, Coelque Vias A peire Peritus
Hic et Alexandri diversa Feruntur ab urbe.
Regis et Antiochi ; haec Freta Plutima transil;
Hic Arabes, Juni, Siculi nas cuntur Afri;
Haec Yens est totum Fure nobilitat per Orbem;
Et mercanda Ferdn et amans mercande Ferens et amans mercata refferre. cf. Ibid P. 197 n.2.

وبالنسبة لجزيرة صقلية، فمبجرد أن وطد النورمان حكمهم فيها، جنى الأمالفيون الكثير مما أفاد هذا الغزو، وفتحت لهم أسواق جديدة، فضلاً عن أن ذلك زادهم قرباً في الاتصال بالشواطيء الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط حيث إفريقيا الشمالية ثم مصر والشام، فقد حصل تجار أمالفي على إذن من سادتهم النورمان يقضي لهم بدخول جزيرة صقلية، وإقامة مراكز تجارية وصناعية فيها، بحيث أصبح لهم شوارع وأحياء بأكملها خاصة بهم(١)، وسمح لهم بالمساهمة في التجارة والصناعة القائمة على المنتجات الطبيعية الوفيرة بالجزيرة كالبلح والقطن والحرير، والتي شيَّد صرحها حكام الجزيرة السابقون من المسلمين بعناية ورعاية على مدى عدة قرون(٢)، واستطاع الأمالفيون عن طريق مراكزهم الجديدة هذه، أن يزودوا مراكزهم التجارية الأخرى المنتشرة في الشرق والغرب بهذه المنتجات التي كانوا يحملونها على سفنهم الخاصة(٣).

ورغم ما يراه البعض من أن الأمالفيين ظلوا، حتى ذلك الوقت وفي ظل التبعية للنورمان، في اتباع سياساتهم الخاصة، بالحفاظ على علاقات الصداقة مع المسلمين بصفة عامة، دون أن يتورطوا ضدهم في حروب أو أعمال عدائية من شأنها أن تفقدهم مصالحهم التجارية في البلاد الإسلامية(٤). إلا أنهم من واقع الدفاع عن هذه المصالح التي أصبحت عرضة للتهديد بسبب الغارات المتعاقبة وأعمال الجهاد التي كان يقوم بها

(1) cf. Berza, M. : Op. Cit. P. 441
Also : Camera, M. : Op. Cit Tome 1
gver, y : Op. Cit P. Cit P. 184
(2) cf. Heyd, W.: Op-cit Tome I P. 122

أيضاً : ارشيبا لدلويس : المرجع السابق ص ٣٧٦

(3) Heyd, W. : Op. Cit, Tome I P. 123
(4) cf. Citarella, A. O. : The Relations of Amalfi PP. 311-312

ويدعم شيتا ريللا وجهة نظره هذه بأمور استوحاها مما ذكره المؤرخون عن الحملة ، لكنه لا ينفي اشتراك الأمالفيين في الحملة. وكل ما أراد أن يخفف من وقعه على سياسة أمالفي العامة تجاه المسلمين، هو أن الأمالفيين لم يكونوا المتزعمين لهذا العمل العدائي ضد المسلمين بشمال إفريقيا ، وأدلته على ذلك تتلخص في :
إشارة المؤرخين العرب صراحة إلى البيزنزيين والجنوبيين، بينما أشاروا للباقين من عناصر الحملة بأنهم كانوا من الروم أو الإيطاليين.

الزيريون وأنصارهم من الساحل التونسي القريب من جزيرة صقلية وأمالفي، فقد تزعموا حملة قوامها أربعمائة سفينة بقيادة بانتاليون الأمالفي - ابن ماورو السالف الذكر - في صيف عام ١٠٨٧م/٤٨٠هـ(١)، وسبب هذه الحملة أن الأمير الزيري تميم بن المعز بن باديس (١٠٦٢ - ١١٠٧م/٤٥٤ - ٥٠٠هـ) اشتهر بولعه بالجهاد الذي يسميه الغربيون (القرصنة)، وكثرت حروبه على القسم الأوسط من البحر المتوسط حتى نشر الخوف والهلع على السواحل والجزر القريبة، وكان يوقع في الأسر بالعديد من المسيحيين المقيمين في هذه المناطق، وينزلهم في منزل العبودية، فضلاً عن أنه كان يتعرض للتجار الإيطاليين ولسفنهم المحملة بالتجارات ويعاملهم بقسوة(٢).

ورغبة في الانتقام من تميم بن المعز، تم إعداد حملة أشرف على تجهيزها البابا فيكتور الثالث (١٠٨٧ - ١٠٨٨م)، الذي عين لها مندوباً بابوياً هو الأسقف بندكت أف مودنا Bendict of Modena إلى جانب قائدها الأمالفي بانتاليون السالف الذكر، وبالإضافة إلى فرق من أمالفي وعناصر أخرى أشير إليهم بأنهم من الروم، وكان الجنويون والبيزيون يشكلون الأغلبية بين قوات الحملة(٣).

(1) Heyd, W. : Op. cit Tome I P. 122

Krueger, H. V. Op cit PP.52

(2) Amari, M. : Op. cit ; Tome I Jdem

Krueger, H. C. cit PP.52-53

(3) cf. Heyd, W. : W. : Cit, Tome I PP. 124-125

أيضاً : ارشيبالدلويس : المرجع السابق ص ٣٧٢ وهناك نقطة تثير انتباه الباحث وهي ان الحملة التي تزعمتها أمالفى كانت ضد الزيريين الخارجين على الخلفاء الفاطميين في مصر أصدقاء الأمالفيين. ومن الممكن أن كان اتصال خفي بين الفاطميين والامالفيين للانتقام من الزيريين ـ وهو امر غير مستبعد بالنسبة للفاطميين. يضاف إلى الدوافع الرئيسية الكامنة وراء قيام هذه الحملة. لكن ذلك مجرد افتراض ينقصه الدليل الذي يدعمه، نأمل العثور عليه من خلال دراسات مقبلة. كذلك :

cf. Amari, M. : Op. Cit , Vo1 111 P. 171 n-4

Oltre i Pisani ei yenovesi Cita un Pantaleo

Amalfitanus inter Yraecos, Sp antus (curruzione di hypatas).

Also ; Krueqer, H. C. ; Op. Cit P. 52

وقد اقتصر المؤرخين العرب على الاشارة إلى العناصر التي تكونت منها هذه انظر :

ابن الاثير : الكامل حوادث هذه السنة وكذلك : النويري : نهاية الارب

وقد كان هدف هذه الحملة مدينة المهدية معقل الزيريين ونجحت نجاحاً كبيراً، إذا استطاع الإيطاليون إنزال قواتهم إلى البر والاستيلاء على ضاحية المدينة التجارية زويلة (أو زوايلة) ثم الميناء والمدينة ذاتها، وحصلوا على قدر كبير من الغنائم والأسلاب(١)، ولم يفلت من أيديهم سوى القلعة التي اعتصم بها تميم بن المعز، الذي اضطر أن يشتري انسحاب هذه القوات من بلاده بمبالغ ضخمة من المال، كما أطلق سراح كل الأسرى النصارى الموجودين لديه، ووعد بعدم التعرض لسفن المدن الإيطالية في المياه الإفريقية والأكثر من ذلك أنه سمح لتجارهم بالمتاجرة في بلاده(٢).

وتُعَد هذه الحملة على جانب عظيم من الأهمية بالإضافة إلى أنها كانت بداية ظهور سفن جنوة وبيزا في أقاصي غرب البحر المتوسط، فإنها دلت أيضاً على إهتمام كبير بالتجار، كما يبدو من الوعد الذي قطعه تميم بن المعز بعدم التعرض للملاحة الإيطالية، والسماح للتجار الإيطاليين بالمتاجرة في بلاده، وقد كان باعث على الحصول على هذا الوعد راجعا إلى سياسة أمالفي أكثر من رجوعه إلى سياسة ـ مدن إقليمي ليجوريا وتسكانيا. فأهل جنوة وبيزا لم يبدأوا تجارتهم مع الشرق إلا مع قيام الحروب الصليبية، وحتى ذلك الحين كانت تلك التجارة في يد الأمالفيين الذين كانت لهم مصالح في المياه الشرقية منذ أمد بعيد أكثر مما كان لأي مدينة إيطالية أخرى، باستثناء البندقية(٣).

وهكذا دأب الأمالفيون على تأمين طريق تجارتهم إلى مصر والشام ذات الأهمية القصوى حيث تأتيهم هناك سلع الشرق الأقصى، وحيث يحصلون على ما يلزم أسواق

(1) cf. Amari, M. : Op. Cit Tome I p. 122
Heyd, W. : Op. cit Tome I P. 122
(Krueger, H. V. ; Op cit P.52
(2) Amari, M. : Op. cit: Tome I Jdem
Krueger, H. C. cit PP. 52-53
(3) cf. Heyd, W. : W. : Cit, Tome I PP. 124-125

الغرب من المنتجات المصرية والشامية، والتي يرى وليم هايد أن الأمالفيين كانوا أصحاب الفضل في شهرتها لدى أهل الغرب، وفي ارتقاء الذوق والتقاليد هناك باستعمالها(١)، وفضلاً عن ذلك فقد فتح تجار أمالفي أسواقاً جديدة لتجارتهم، ساعدت على اتساع نطاق التبادل التجاري مما زادها ثراءً، وهذا دليل يضاف إلى ما سبق أن أكدناه من أن الأمالفيين رغم تبعيتهم للنورمان احتفظوا باستقلالهم في مجال العلاقات السياسية مع المسلمين، وبالتالي لم تتأثر علاقاتهم بكل من مصر والشام كثيراً من جراء هذه التبعية.

على أية حال، فإنه في غضون هذه السنوات القلائل السابقة على مجيء الحملة الصليبية الأولى، كانت الأوضاع السياسية في مصر والشام في سبيلها إلى التمزق الذي كان سبباً في نجاح هذه الحملة، ففي بلاد الشام انقسمت سلطنة السلاجقة إلى دويلات صغرى يحكم كل منها أمير مثلما حدث في حلب وأنطاكية ودمشق(٢)، كما تبع وفاة السلطان ملكشاه عام (١٠٩٢م) نزاع على العرش السلجوقي، فسقطت إمبراطوريتهم في أتون الفوضى لفترة من الوقت استغلها البيزنطيون في استعادة بعض البلاد في آسيا الصغرى(٣). وفي مصر والشام الفاطميتين، كلما استقرت الأحوال فيهما، اتجه الفاطميون إلى العمل على استعادة ما ضاع منهم من البلاد والمدن الشامية على يد السلاجقة، وقد تمكنوا من استرداد ثغرى صور وصيدا(٤)، ثم بيت المقدس قبل

(1) cf. Histoire du Commerce de Levant .. Tome I PP.124-125.

(2) cf. Michel Le Syrien : Op. Cit PP. 1720173

أيضاً : الراوندي ، محمد بن علي : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية نقله إلى العربية الدكتور ابراهيم الشواربي وآخرون " القاهرة ١٩٦٠ . ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ١١٥ - ١٢٠

(3) cf. The Alexiad of Anna Comneaa PP. 163-164.

ايضاً : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ١٢١ - ١٢٢

(4) cf. Sismondi, Bes. J. : Op - Cit P. 283

Also : Porter, Whitworth; Op. Cit P. 7

قدوم الصليبيين إليها بعام واحد(١)، وهذا الوضع وماترتب عليه من انقسام المسلمين في هذه المنطقة إلى عدد من الدويلات والقوى المختلفة المتصارعة كان من العوامل التي أدت إلى ضعف قوتهم واضطراب أحوالهم السياسية(٢).

لكن من الناحية الاقتصادية يبدو أن مصر والشام استعادتا قدراً كبيراً من رخائهما السابق، بفضل إصلاحات الوزير الفاطمي بدر الجمالي بعد أن طحنتهما الفوضى والأزمات، ومع ذلك فإن انخفاض سعر الدينار الذهبي الفاطمي، ليدل على انخفاض مستوى الرخاء في ذلك الإقليم، ويحتمل أن يكون مرجع ذلك إلى قلة الذهب الوارد لمصر من شمال إفريقية بسبب الانقسام الحادث بين الفاطميين وبين الزيريين وقتذاك، أو بسبب حركات الهلالية وقطعهم طرق القوافل الذاهبة جنوباً إلى السودان.

كذلك ظل الاقتصاد السوري سليماً لم يصب بسوء برغم ما نشب هناك من حروب أهلية، وبرغم غزوات السلاجقة، وعندما استولى الصليبيون وحلفاؤهم الإيطاليون أهل المدن البحرية على المدن الساحلية بين غزة والاسكندرية، وجدوا مخازن التجار مليئة بالبضائع والتوابل وسائر نفائس الشرق، وهذا كله دليل على استمرار مصر في علاقاتها التجارية مع بلاد فارس والهند والصين(٣).

وبالنسبة للأمالفيين فإنهم خلال هذه الحقبة، وفي ظل تلك الظروف الصعبة التي أحاطت بالمنطقة، كانوا يعملون على الحيلولة دون توقف عملياتهم التجارية مع المسلمين بما أحضروه معهم من سلع الغرب، وفي الوقت نفسه كان عليهم أن يواصلوا جهودهم الخاصة بتوفير سبل الراحة والرعاية للحجاج الغربيين في المنشآت التي أقاموها خصيصاً لهذا الغرض بموافقة السلطات الفاطمية، وللإشراف على العمل في المستشفى ودار الضيافة، عيّن الأمالفيون أحد الحجاج القادمين إلى بيت المقدس من سكالا Scala،

(1) cf. Michel Le Syrien ; Op. Cit Tome 111, PP. 184-135

(٢) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي، ص٨٥

(٣) انظر : اشيبالدلويس : المرجع السابق ص ٣٨٧ - ٣٨٨

إحدى المقاطعات التابعة لأمالفي ويدعى جيرار gerard(١)، وظل جيرار هذا ورفاقه من الأمالفين، وممن كرّسوا أنفسهم طوعاً للخدمة في هذه المنشآت يؤدون واجباتهم إزاء الحجاج اللاتين حتى مجيء الحملة الصليبية الأولى إلى بيت المقدس(٢) فأمدوهم بالطعام، ووفروا لهم المأوى الذي يحميهم مما قد يتعرضون له من أخطار، هذا إلى جانب ما يلزمهم من مساعدات في أثناء تنقلهم بين الأماكن المقدسة(٣) واستمر الأمالفيون ينفقون على هذه المنشآت من أموالهم إلى أن آلت المستشفى ودار الضيافة إلى جماعة رهبانية تأسست بصفة رسمية في عام(١١١٢م)، هي جماعة فرسان القديس يوحنا(٤).

وقد ازدادت مهمة رجال أمالفي صعوبة بتزايد أعداد القادمين إلى بيت المقدس من أجل الحج أو الزيارة بحيث أصبحوا عبئاً ثقيلاً على كاهلهم، لكثرة المرضى والجرحى بينهم ممن كانوا في حاجة إلى فترة إقامة أطول، ومزيد من العناية المتمثلة في تدبير العلاج اللازم، وتوفير سبل الراحة، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يتولون مهمة دفن من

---

(١) عن حياة جيرار وأعماله أنظر :

Bosio, Jacomo : L, Jmaini de Beati eSanti della

Sacra Religione de S. Giervonni Gierosa-liwitano, Roma 1633, PP. 6-11

Also : Donnadiew, Artistide: Le Bienbeurux Gerard Tenques in A.O. S.M.M, no I Annee XV111 eme Roma 1960, PP. 6-13.

(2) cf. Sismondi, Bes, J. : Op-Cit P. 283

Also : Porter, Whitworth: Op. Cit P.7

(3) William of Tyre : Op. Cit Vo1. I P. 80

Also : Prim aradium 11: Op. Cit P. 434

وقد بالغ وليم الصوري وغيره من المؤرخين الغربيين كثيراً في وصف أحوال الحجاج اللاتين، الذين قدموا إلى الأراضي المقدسة أثناء خضوعها للأتراك السلاجقة.

cf. William of Tyre : Op cit Vo1. J PP. 79-81

Also: Roger of Wendever : Op. Cit Vo1. I P. 336

(4) cf. Si Mondi, Be S. J. : Op. Cit Jdem

وعن تاريخ هذه الجماعة بالتفصيل انظر للباحث :

جماعة الفرسان الاستبارية ودورها في الصراع الصليبي الاسلامي ، رسالة ماجستير لم تنشر ، الأسكندرية ١٩٨٠م.

عاجلتهم المنية من بين هؤلاء المرضى، رغم أن العمل كان فوق طاقتهم(١).

ولم يقتصر دور الأمالفيين على ذلك، بل إن معظم الحجاج كانوا يفضلون الإبحار على متن السفن الإيطالية - وكانت سفن أمالفي من بينها - إلى القسطنطينية ليزوروا هناك الآثار الدينية الشهيرة، ثم يذهبوا بطريق البر إلى فلسطين(٢)، وكانت مدينة دراخيوم - حيث يكوّن الأمالفيون أغلبية هناك بجاليتهم الكثيرة العدد، ولهم أيضاً عدد من المباني الدينية والتجارية، كما سبق أن أشرنا، محط رحال هؤلاء الحجاج بعد عبورهم الأدرياتيك، مثلما كانت أيضاً بعد ذلك بالنسبة لرجال الحملة الصليبية الأولى(٣)، هذا فضلاً عما كان للأمالفيين من مراكز أخرى في الغرب على طريق الحج أقيمت لنفس الغرض، وبالتالي لعب الأمالفيون دوراً كبيراً في تنشيط حركة الحج التي نمت بشكل ملحوظ في القرن الحادي عشر الميلادي(٤).

وقد تطورت حركة الحج هذه إلى قدوم المسيحيين الغربيين إلى الشرق وهم مدججون بالسلاح في حملات تنوعت ميول رجالها، وإن اجتمعوا على الرغبة في السيطرة على مصر والشام بحجة رعاية الأماكن المقدسة، لكن في الحقيقة طمعاً في ثرواتهما التي سمعوا عنها من قصص هؤلاء الحجاج، أو الرحالة، أو التجار الذين كانوا يترددون على هذه البلاد، وغير هذا الوضع مسار العلاقات، التي كانت قائمة بين مصر والشام وبين بلاد الغرب الأوروبي، بحيث غلبت الحروب وروح العداء على سماتها العامة، لذلك يمكن

(1) William of Tyre : Op. Cit , Vol . I P. 80. II p.248
=Also : De Prima Jnstitutione ; Op. Cit P. 402
Jasjshi Historrographi ; Op. Cit P.408
(2) cf. Krueger, H. C. : Op. Cit PP. 73-75
(3) cf. Gesta Tudebobodi Historia De Hierasolymitano
Jtinere, R. H. C. O. cc. T. 111 P. 14
Also ; Krueger, H. C. : Op. Cit P.75
(4) cf. Cahen, Clande : La Syrie De Nord P. 199

القول أن تجار أمالفي من خلال استفادتهم بعلاقات الصداقة مع حكام مصر والشام، أسهموا - بقصد وبغير قصد - في تطوير حركة الحج، وفي تمهيد السبيل لقيام الحركة الصليبية في ظروف سيئة بالنسبة للشرق الأدنى الإسلامي اطلع الغرب الأوربي عليها وسمع بها من تقارير هؤلاء الحجاج الذين، بفضل التسهيلات التي كانت تقدم لهم على طول طريق الحج وفي منتهاه تشجعوا على القدوم في أعداد كبيرة(١).

لكن مسلك الأتراك السلاجقة ضد الحجاج الغربيين أثناء عبورهم آسيا الصغرى والبلاد الشامية، لم يكن مسلكاً تعصبياً إزاءهم وحدهم دون غيرهم، وإنما اتسمت هجماتهم على المدن والبلاد التي اجتاحوها بالعنف الذي لم ينج منه كل من قابلوه من الأجناس على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، وعلى الرغم من ذلك فقد اتخذ كذريعة لإثارة عطف واهتمام أولئك الذين لديهم جانب من الورع والتدين، أو أصحاب المصالح الذين يهمهم أمر الأراضي المقدسة بالقدر الذي يضمن لهم مكانتهم في قلب العالم الكاثوليكي، أو يحقق لهم مجالاً أوسع للسيطرة والنفوذ، إزاء أحوال المقيمين في بيت المقدس أو القادمين إليها للحج أو الزيارة.

ومن ثم فقد ازداد اهتمام الغرب الأوربي بشئون الأراضي المقدسة، خصوصاً بعد أن أفسحت بيزنطة الطريق أمام الكاثوليك بعد هزيمتها أمام السلاجقة، في الوقت الذي كانت تسعى فيه البابوية جاهدة لاستغلال الظروف القائمة في الشرق، من أجل إخراج هذه الاهتمامات إلى حيِّز الوجود، على هيئة حملات صليبية تنتزع هذه الأراضي من أيدي المسلمين لتنتقل إلى حوزة اللاتين الكاثوليك(٢).

على أية حال، فإنه بينما كانت الدعوة للحرب الصليبية قائمة في الغرب على قدم وساق، كان على رأس حكومة أمالفي هناك روجر بن روبرت جويسكار Roger.

وروجر هذا منذ أن تولى الحكم وهو يعمل على إرغام الأمالفيين كي يعدلوا أو يتنازلوا

(1) Cahen, Clande ; La Syrie Du Nord Jdem

(٢) مصطفى محمد الحناوي : المرجع السابق ص ٦٣ - ٦٤

عن الشروط والامتيازات التي احتفظوا بها لمدينتهم في اتفاقهم مع أبيه، زاعماً لهم أن هذه الامتيازات تتعارض مع سلطاته كملك(١).

وفي عام(١٠٩٦م) إزاء هذه الضغوط والمضايقات من جانب روجر، شعر مواطنو أمالفي بضرورة تحررهم من السيادة الأجنبية، فقاموا بانقلاب أطاحوا فيه بروجر، وانتخبوا بدلا منه مواطناً أمالفيا، هو مارينو ساباستو دوقاً لمدينتهم (١٠٩٦ - ١١٠٠م)(٢)، وعلى إثر ذلك خرج روجر بجيش وأسطول من صقلية لمهاجمتهم حتى يتسنى له احتلال أمالفي من جديد، وإرغام مواطنيها على الامتثال لأوامره، لكن باءت محاولته بالفشل نتيجة العوائق الطبيعية الموجودة على الشاطيء الأمالفي(٣)، وبسبب انشغال جنود روجر ذهنياً بالحماس المتقد لدى الأوربيين في كل مكان للخروج في حملة صليبية.

فخلال هذه الأثناء وصلت إلى إيطاليا جيوش الصليبيين القادمة من فرنسا بقصد الرحيل إلى الأراضي المقدسة، وما اتصف به الصليبيون الفرنسيون من الحماس، أثار حمية الجنود النورمان المرابطين أمام أمالفي، وشجعهم على ذلك بوهيمند، الذي رأى أنه من الخير أن يقيم لنفسه مملكة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، فأعلن لهم عزمه على الاشتراك في الحملة الصليبية، وكان أن عبروا عن فرحتهم بهذا النبأ من خلال صيحات التهليل (إنها مشيئة الله)(٤)، وقد رحل هؤلاء جميعاً صوب الشرق، وكانت

(1) cf. Sismondi, Be S. J. : Op. Cit P.284
Also : Jorge, N. : Op. Cit P. 60
(2) Carci, Liugi : Op. Cit P. 37
(3) Sismondi, De S. J. : Op. Cit Jdem
Also : Carci, Liugi : Op. Cit PP. 37-38
(4) cf. Guiherto Abbatis Novigenti : Historiae quae Dicitur Dei Gesta Per Francas, R. H. C. Oce T. 1V p.151
Also : Petri Tudebodi Historiae De Hierosolymitano Jtinere, R. H. C. Occ. T 111 P. 15 Deus hoc Vult, Omnes Simul una Voco Conclamant

دراخيوم مستقر الأمالفيين مركزاً لتجمعهم(١).

ويذكر المؤرخ كلود كاهن أن مواطني أمالفي الثائرين ضد قادتهم النورمان لم يستطيعوا الاشتراك في هذه الحرب الصليبية(٢)، وبالتالي اتجه النورمان إلى الاعتماد على مساعدة الجنويين البحرية، وقدموا لهم في مقابل ذلك العديد من الامتيازات المجزية في البلاد التي آلت إليهم(٣).

ولم تشر المصادر الصليبية والغربية المعاصرة التي بين أيدينا صراحة إلى إنضمام الأمالفيين إلى صفوف صليبيي الحملة الأولى الذين رحلوا من الغرب الأوربي، رغم أن هذه المصادر في كل إشارة إلى الأمراء النورمان تؤكد تبعية أمالفي لهم(٤).

ويمكن القول إنه إذا حالت ظروف مواطني أمالفي المقيمين في الغرب، الذين كانوا مشغولين بالدفاع عن حريتهم واستقلالهم، دون إنضمامهم إلى صفوف صليبيي الحملة الأولى القادمين إلى الشرق، فإن الأمالفيين المقيمين في دراخيوم، وفي العاصمة البيزنطية، وفي المراكز التجارية الأمالفية الواقعة على ساحل الشام، وفي أنطاكية حيث كان لهم حي بأكمله هناك بقي كما هو(٥)، من المستبعد أن يكونوا قد وقفوا مكتوفي الأيدي أمام ذلك الحماس الدافق لجموع الصليبيين الزاحفة صوب الأراضي المقدسة، ولا نغالي كثيراً إذا ما ذهبنا إلى أن حماس صليبيي فرنسا الذي هز مشاعر النورمان المرابطين أمام مدينة أمالفي جعلهم يطرحون جانباً مهمة مهاجمة المدينة التي جاءوا من

---

(1) cf. Tudebodus Jmitatns et Continuatus Historiae Peregrinorum, R. H. C. Oce Tome 111 P. 176
Also : Petri Tudebodi Historiae : Op. Cit P. 14
Roger of Wendover ; Op. Cit ; Vo1 I P. 389
(2) cf. La Syrie Du Nord ... p. 489
(3) cf. Cafari De Caschifelone Genuensis Consulis; De Liberations Civitatum Orientis Liber, R. H. C. Oce , Tome V PP. 49-51
(4) cf. Petri Tudebodi Historiae : OP. Cit P. 15
Also : Historia Peregrinarun : Op. Cit P. 176
(5) cf. Cahen, Cland : Op. Cit P. 147

أجلها، وتهللوا فرحاً بحمل الصليب، لابد وأنه أثر كثيراً فيمن عرفوا بأنهم أكثر تديناً وإخلاصاً لعقيدتهم وهم الأمالفيون، فانحازوا إلى صفوف الصليبيين الذين كانوا يبحرون من الموانيء القريبة من مدينتهم، أو على الأقل جماعة منهم بينما بقي الآخرون للدفاع عن الجمهورية، ويؤكد ذلك بعض المؤرخين بقوله إن المدن الإيطالية التي كانت تتقدمها أمالفي في حملة كبيرة عام (١٠٨٧م) ضد المسلمين بناءً على طلب البابوية، وتحت قيادة مندوب بابوي، كان اشتراكها في الحملة الصليبية الأولى أمرا طبيعيا(١).

كما يؤكده روجراف وندوفر الذي يذكر أن بوهيمند اصطحب معه إيطاليين من على جانبي التيراني والأدرياتيك(٢).

وقد كان فريق من القادة الصليبيين على رأسه ريموند دي سان جيل، الذي قاد الحرب ضد المسلمين في أسبانيا، يرى ضرورة القضاء على المسلمين في كل مدينة يتم لهم الاستيلاء عليها، إلا أن القادة النورمان كانوا يعملون على إنقاذ المسلمين من هذا المصير، ويذكر المؤرخ كلود كاهن أن مرجع ذلك هو أن النورمان رحماء، ومنشأ هذه الرحمة معرفتهم بالإسلام قليلاً، واتصالهم بالمسلمين عن طريق رعاياهم الأمالفيين الذين كانت لهم تجارة مع شرقي البحر المتوسط، وعاشوا بين ظهرانيهم(٣)، أي أن علاقات أمالفي بالمسلمين كان لها أثرها في تخفيف حدة التعصب لدى من كانوا حديثي عهد بمعرفة الإسلام والمسلمين، ودليل أيضاً على أن الأمالفيين - من واقع هذه الصلات - يكنون في دواخلهم الاحترام والتقدير للمسلمين وحضارتهم التي كانوا أقرب المتعرفين عليها.

يضاف إلى موقف الأمالفيين من الحركة الصليبية ذلك الدور الذي ينسب إلى جيرار

(1) cf. krueger, H. C. : Op. Cit P.53

(2) Roger of Wendover : Vol i P. 389

(3) cf. La Syrie Du Nord ... PP. 201-202

وتمثل موقف النورمان في موقف بوهيمند في المعرة (معرة النعمان) وتنكريد في بيت المقدس.

ورجال أمالفي الذين كانوا داخل بيت المقدس في أثناء حصار الصليبيين لها(١)، وقد خص المؤرخ ج. سيسموندي هذا الدور في أن جيرار دي سكالا هذا أمد المقيمين في الدير من الأمالفيين بالسلاح ليساعدوا الصليبيين على احتلال بيت المقدس(٢)، أما الروايات القديمة فتجنح إلى المبالغة والتهويل في وصف هذه الدور، والواقع التاريخي الذي يحتويه هذا الوصف يدل على أن هؤلاء الأمالفيين كانوا يمدون الصليبيين المحاصرين لمدينة بيت المقدس بالمؤن التي كانوا يفتقرون إليها بطريقة سرية حتى لا ينكشف أمرهم لدى رجال الحامية الإسلامية، وذلك من قبيل المساعدة في تسهيل أمر الحصار على هؤلاء اللاتين، الذين نال منهم الجوع والعطش إلى حد كاد أن يثنيهم عن مداومته، أو على الأقل يثبط من همتهم، هذا فضلاً عما قاموا به في مجال ترتيب الاتصالات اللازمة في المكان، وإطلاع هؤلاء الغزاة من بني جلدتهم وعقيدتهم على أسرار المسلمين، ونقاط الضعف في تحصينات المدينة كل ما من شأنه أن يساعد على تسهيل مهمة اقتحامها والاستيلاء عليها(٣)، وهو ما ألمح إليه المؤرخ الصليبي وليم الصوري، عندما ذكر أن المسلمين خوفاً مما يمكن أن ينالوه من أذى بسبب وجود جيرار ورجاله داخل المدينة المقدسة، واعتقاداً منهم أن لديه خزانة من الأموال من الممكن أن تعينهم على مواجهة الحصار، قاموا بضربه، وألقوا به في غياهب السجن حيث تعرض

(١) عن تفاصيل الحصار انظر :

Fuleher of Charters ; A History of the Expenition to Jerusalem, trans from the original Latin by Frances Rita Ryan, M. S. A. 1969 PP. 119-120

Also : William of Tyre : Op. Cit Vo1. I PP. 333-335

Jasphi Historiographi : Op. Cit P. 409

Roger of Wendevr : Op. Cit Vo1 I PP. 427-429

وقد اقتصر ابن القلانسي على الاشارة الى مقاومة اهل بيت المقدس للصليبيين ووصول الافضل في العساكر المصرية "وقد فات الاوان" انظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ - ١٣٧

(2) cf. Historire des Republiques Italiennes au Mayen Age P. 283

(3) cf. Primardium et Origo Sacri Xenodoc P. 431

Also, Jasphi Historiographi, Op. cit P. 409

Leroulx, J. D. : Op. Cit P.34

لتعذيب اعوجت بسببه مفاصل يديه وقدميه(١).

وهكذا لعب الأمالفيون دوراً لصالح اللاتين في الحرب الصليبية الأولى خوّل لهم الحصول على مكاسب وامتيازات كتلك التي حصلت عليها مدن أخرى شاركت في الحملة بأساطيلها، بل كان الأمالفيون هم المتقدمين في الحصول على هذه الامتيازات(٢).

وقد ترتب على هذا الوضع الجديد في بلاد الشام أن "جود فري دي بوايون" حامي الضريح المقدس عمل على تحويل أكبر قدر من تجارة المسلمين المقيمين شرقي الأردن إلى الموانيء الصليبية، وفي الوقت نفسه شجع الإيطاليين على أن يمنعوا قيام تجارة بين مدن الشام الإسلامية ومصر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، بحيث يجعلوا هذه المدن تعتمد في تجارتها على الصليبيين، وبذا أخذت فلسطين كلها تندمج في وحدة اقتصادية شاملة، بما صار لها من علاقات عبر البحر مع أوروبا(٣)، ومن ثم فإنه بعد عام (١١٠٠م) أصبحت بضائع سورية وفلسطين ومعظم البضائع المصرية تنقل على سفن تابعة للغرب، كما صارت التجارة نشاطاً اقتصادياً رئيسياً يعتمد على رأس المال بدلاً من غارات القرصنة، وإن لم تراع النزاهة كثيراً في جمعه، وفضلاً عن ذلك بدأت المدن الإيطالية في الجمع بين نقل الحجاج إلى الأراضي المقدسة، ونقل توابل الشرق وبضائعه الأخرى الوافرة في المدن الساحلية، في سورية وفلسطين(٤)، ولا يعني هذا أن الأمالفيين ركزوا أعمالهم في الشام حيث قامت مملكة بيت المقدس الصليبية، بينما أهملوا مصالحهم في مصر، فهناك وثيقة ترجع إلى هذه الفترة احتوتها جنيزا القاهرة، وقام بنشرها لأول مرة س. م. ستيرن، وهي عبارة عن خطاب مرسل إلى الخليفة الفاطمي الامر (١١٠١ - ١١٣٠م/ ٤٩٥ - ٥٢٤هـ)، يقدم فيه كاتبه تقريراً إلى الخليفة عن الوصول

(1) cf. A History of Deeds Done Bey and the Sea, Vo1. I P. 335

(2) cf. Cahen, Clande ; Op. Cit P.489

Also : Torga, NO : Op. Cit p.60

(3) cf. Albert d Aix : Historia Hierosolymitana; R. H. C. O. cc IV P. 516

(٤) ارشيبالدلويس : المرجع السابق ص ٣٩٠ - ٣٩١

المستمر للتجار الروم الذين يجلبون معهم الأخشاب، وهم من الأمالفيين والجنويين، وقد ذكر كاتب هذا الخطاب أسماء هؤلاء التجار محددة بجنسياتهم كقوله : «جراسوين ليو الأمالفي، ويون الجنوي ... إلخ»(1)، مما يدل على أن هؤلاء التجار كانوا معروفين لدى كبار رجال القصر، وأيضاً لدى الخليفة الفاطمي نفسه، كما كانوا على اتصال مباشر به، وهذا كان من شأنه تسهيل مهامهم في بلاد خلافته، هذا فضلاً عما يتمتعون به من وضع متميز بين سائر التجار لاشتهارهم بإحضار سلعة استراتيجية هامة من أجل بناء السفن الحربية في وقت كان الصراع قد استؤنف، وفي هذه المرة بين الصليبيين الغربيين - الذين تنتمي إليهم أمالفي - والفاطميين، وهو ما يشير إلى أن أمالفي - كغيرها من المدن الإيطالية - كانت تضع المصالح التجارية فوق كل اعتبار. وفي ظل الوجود الصليبي في بلاد الشام احتفظ الأمالفيون بمراكزهم ومنشآتهم التي كانت لهم قبل مجيء الصليبيين، باستثناء المنشآت ذات الأغراض العامة كدور الضيافة والمستشفيات فهذه - كما سبقت الإشارة - تطور العمل فيها بشكل ضم جماعات من الصليبيين من مختلف الجنسيات، ولم تعد كما كانت قاصرة على الأمالفيين، لكن دور هؤلاء الأخيرين في هذا الصدد فيما تلا ذلك تمثل في أنهم وضعوا اللبنات الأولى لقيام جماعة رهبانية محاربة تطورت عنها جماعات أخرى، وهؤلاء جميعاً لعبوا دوراً كبيراً في إذكاء نار الصراع الصليبي الإسلامي، واستفادوا من وضعهم الذي وصلوا إليه في المجالين السياسي والاقتصادي.

وقد كان نصيب الأمالفيين في المنح التي وزعها الصليبيون على بحارة المدن الإيطالية وتجارها بعد أن استقرت الأوضاع لهم في الشام عبارة عن دار وسوق في طرابلس

(1) Stern, S.M. An Original Document From the Fatimid Chancery Concerning Italian Merchants in Studi Orientalistic in Onore di yiorgio Levi Della Vida, Roma ; Istituto Per L. Oritnte, 1956; Vo1 11 PP. 529-539
Also ; Camera, M. : Op. Cit : Vo1. II P.200

أعطيت لرؤساء أساقفة أمالفي وهؤلاء بدورهم تنازلوا عن إيراداتهما لمواطني المدينة(١). وفي عكا حصل الأمالفيون على مقر لجاليتهم الكبيرة الموجودة في هذه المدينة، وأيضاً على أملاك أخرى جاورت أملاك البيازنة(٢)، كما كان لهم في مقابر القديس نيقولا St. Nicolas مكان خاص لدفن موتاهم(٣)، بينما قدم لهم الأمير بوهيمند الثالث بعد ذلك ثلاثة محلات في ميناء اللاذقية(٤)، وقد احتفظ تجار أمالفي بهذه الأملاك إلى أن حرر المسلمون هذه المدن من قبضة الصليبيين(٥).

وهذه المنح أو الامتيازات تعد ضئيلة إذا ما قورنت بالهبات التي لا تحصى، وما تم التنازل عنه من الأمراء الصليبيين إلى أهالي البندقية وجنوة وبيزا ، وعلى الرغم من ذلك فإن ما حصل عليه الأمالفيون من أملاك في بلاد الشام فضلاً عما كان لهم قبل مجيء الصليبيين بحوالي أكثر من قرن، يعد دليلاً على أن تجار أمالفي أبقوا على اتصالهم التجاري بهذه المنطقة، وحرصوا على الاستفادة من الوجود الصليبي هناك - كغيرهم من الإيطاليين - رغم تغيّر الظروف والأوضاع بالنسبة لهم.

أما في مصر، فقد أخذت علاقات أمالفي بها تعاني من تباطؤ وفتور متزايد، وانتهت بالتوقف نهائياً، وذلك بسبب معاناة التجارة الأمالفية من عاقبة المصائب السياسية، التي ألمّت بأمالفي(٦)، فبعد أن كان الأمالفيون محتفظين باستقلالهم السياسي، وبالشكل

---

(1) cf. Pansa, Francesco ; Op. Cit Vol. II P. 97 soq

Camera, M. : Op. Cit : Vol. II PP. 202-203

(2) Pansa, Francesco ; Op. Cit Vol. II P. 53 seq, 137 seq

(3) cf. I bid

(4) Pansa, Francesco ; Op. Cit Vol. I P. 94

Also : Camera, M. : Op. Cit : Vol. II P.202

وقد اورد هذا الاخير نص المنحة باكلمه وبشكل أكثر دقة .

(5) Cahen, Claude ; Le Syrie Du Woed P.148

(6) Cahen, Claude ; O P. cit P.389

الجمهوري لدولتهم(١)، استطاع روجر الثاني في أواخر عام (١١٣٠م) توحيد الأراضي التي فتحها النورمان في مملكة واحدة، واتخذ لقب ملك. ففقدت أمالفي بذلك حريتها ونظامها الجمهوري، وظلت مدمجة في كل من صقلية ونابلي، خصوصاً بعد أن تعرضت لعمليات نهب واسعة النطاق على يد البيزيين(٢)، وبدأت منذ ذلك الوقت السيطرة الأجنبية الفعلية، وكان سقوط الجمهورية الأمالفية في عام (١١٣١م) بعد أن نعمت أمالفي بالاستقلال حوالي مئتين واثنتين وتسعين عاماً (٨٣٩ ـ ١١٣١م)(٣)، ومن ثم دخلت تجارتها وعلاقاتها بالعالم الخارجي في طور جديد.

---

(1) Carci, Liugi ; Op. Cit P.39
Sismondi, Des, J. ; Op. Cit PP. 286-287

(٢) انظر التفاصيل في

Sismondi, Des, J. ; Op. Cit PP. 286
Also : Heyd, W. ; Op. Cit Tome I P. 188
(3) cf. Carci, Liugi ; op. Cit PP. 39-40
Also : cf. Pansa, Francesco ; Op. Cit Vol. II P. 97 soq
Camera, M. : Op. Cit : Vol. II PP. 202-203

الفصل الرابع

تجارة أمالفي في مصر والشام

- سياسة أمالفي التجارية في الداخل والخارج.
- طرق التجارة العامة التي سلكتها تجارة كل من مصر والشام من ناحية، وأمالفي من ناحية أخرى.
- مراكز أمالفي التجارية في الشرق والغرب.
- السلع المتبادلة بين الطرفين.
- الاتفاقات والنظم التجارية التي كان معمولاً بها في هذا المجال.

يتناول هذا الفصل مختلف النواحي التجارية التي تعد تطبيقاً عملياً لموضوع العلاقات الذي تناولناه بالدراسة في الفصول السابقة، من حيث المؤثرات التي أحاطت به، والشواهد الدالة على استمرار هذه العلاقات. أما التجارة فقد كانت المجال الرئيسي للعلاقات الأمالفية الإسلامية، بحكم أن الأمالفيين كانوا تجاراً منذ نشاتهم. وقد ساعد على ذلك أن أمالفي لم يكن لديها أية مشغولات إقليمية، فقد كانت مؤمنة خلف تحصيناتها الشهيرة المدعمة بقوات بحرية لها اعتبارها. كما أن المدينة كانت منتعشة بشكل غير عادي، وميناؤها كان من أكثر الموانيء تكدساً بالتجارات في غربي البحر المتوسط، وبين مواطنيها شكّل التجار أضخم وأكبر مجموعة من حيث قوة التأثير في سياسات المدينة(١)، وألفت الاهتمامات التجارية أية اعتبارات أخرى، وفرضت سياسة خارجية ذات أستمرارية، ومباشرة فعلية على هذا النحو(٢).

وقد لعبت التجارة دوراً كبيراً في تحديد هذه السياسة، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ حنا بوفيو giovanni Bovio أن البلاد البحرية أساساً لايمكن لها أن تمارس نشاطها الطبيعي دون سياسة محددة، أي دون هذا الشيء الذي يضمن للأفراد والجماعات حريتهم في العمل التجاري، ويتولى حمايتهم بالسلاح عند الضرورة(٣).

وبالنسبة لأمالفي كانت التجارة هي التي تحدد سياسة الجمهورية، وهذه السياسة قامت على عاملين اثنين هما : احترام حرية العمل، وحماية التجار في البلاد الخارجية وطبقاً للتواريخ وما احتوته الوثائق من إشارات خاصة بهذا الموضوع فإن العمل التجاري سواء للأفراد أم الجماعات كان يتم بحرية كاملة دون أي تدخل من حكومة أمالفي، وبنظرة فاحصة إلى القوانين والعرف البحري الذي كان معروفاً وسائداً يتضح أنه لم توجد أية قيود أو حظر على عمليات ممارسة التجارة، ولا يوجد أي نوع من

(1) cf. Del Treppo, M. & Leone, A. : Op. Cit P. 81
(2) cf. Citarella, A. O. ; The Relations P. 303
(3) Disegno di Una storia del Diritto, Rome 1895. P. 347 cf. Liugi Carci ; Op. Cit. P.46

الرقابة على مبيعات السفن، مما يجعلنا نؤكد بكل ثقة أن حكومة أمالفي كانت لا تضع أية عراقيل أو عقبات أمام أية أعمال حرة يقوم بها الأفراد(١).

فقد كان منافسوهم التجار البنادقة يمارسون أعمالهم في ظل قوانين تمنعهم من بيع السفن للأجانب، بينما لم تضع أمالفي كما ذكرنا - أية قيود من هذا القبيل خارج حدود الجمهورية، وبالتالي كان من الضروري وجود حماية سياسة وعسكرية من جانب الدولة(٢).

وفي الخارج كانت الجمهورية تبلغ غاياتها المنشودة في مجال السياسة عن طريق التسهيلات التي كان يمنحها الحكام للتجار، وهي إعطاؤهم امتيازات تتمثل في إعفاء من الرسوم الجمركية، وضمان لحرية المرور(٣)، ورغم ذلك فإن الحماية السياسية للتجارة كانت تواكبها أيضاً حماية عسكرية بقدر لم ينل كثيراً من الإهتمام من جانب الدولة، وإنما اقتصر على النواحي الدفاعية العادية، كما يبدو ذلك من كتابات المؤرخين(٤).

ففي لائحة أمالفي، وفي البند رقم (٥٣) ذكر أن بحاراً أصيب، وآخر أسر، وثالث توفي أثناء قيامه بعمله(٥)، مما يجعلنا نعتقد بوجود دفاع مسلح عن السفن ضد القراصنة والأعداء، وهذا الاعتقاد يؤكده البند رقم (٤٧) الذي يرخّص للربان أن يلقي بالبضاعة في البحر للتخفيف من حمولة السفينة حتى يتسنى للبحارة الدفاع الجيد، وصد الأعداء(٦)، لذلك فإن جميع البحارة الأمالفيين، أو بعضاً منهم، كانوا يجمعون في أعمالهم بين الناحيتين التجارية والحربية، مكونين جيشاً وطنياً من أجل الدفاع عن السفن والبضائع، لدرجة أن ربان أي سفينة أمالفية يجد نفسه وجهاً لوجه أمام العدو،

(1) Carci, Liugi ; Op. Cit P. 46
(2) I bid
(3) Pansa, Francesco : Op. Cit P. 47
(4) Carci, Liugi : Op. Cit P. 47
(5) La Tabula de Amalfa, Cap 53, I bid P. 157
(6) Ibid Cap. 47 PP. 153-154

لم يكن من الأفضل بالنسبة له أن يسلك سبيل المعاهدات، أو الصلح، أو دفع الفدية، بل كان يرد على العدو بالسلاح(١)، وفضلاً عن ذلك فإن الجمهورية كان لها أسطول حربي مسلح، كما يشير إلى ذلك فرانشيسكو بانسا بقوله : «إنه كان في ترسانة السفن يتم إنشاء السفن اللازمة للتجارة إلى جانب السفن الخاصة بالجمهورية»(٢).

وقد كانت مصادر التجارة الأمالفية تتمثل بصفة عامة فيما يحصل عليه تجار المدينة من بضائع الشرق في كل من مصر والشام وبيزنطة، هذا بالإضافة إلى تجارتهم مع شمال إفريقيا، إلا أن الأسواق الإسلامية كانت هي الأكثر ربحاً بالنسبة لأعمالهم التجارية(٣)، وخصوصاً تلك التي كانت في المدن والموانيء المصرية والشامية. ففضلاً عما كان لهذين القطرين من مكانة مرموقة في مجال التجارة العالمية بحكم موقعهما الجغرافي في مفترق طرق التجارة بين الشرق والغرب، فقد اشتروا بوفرة منتجاتهما المتنوعة بالقدر الفائض الذي يمكن استخدامه في مجال التبادل بسلع أخرى هم في مسيس الحاجة إليها، وتتوفر في الغرب الأوربي، ولعل في وصف الجغرافيين والرحالة للوضع الاقتصادي في مصر والشام ما يبين مزايا التجارة فيهما، ومن هؤلاء المقدسي الذي يقول عن إقليم مصر : «هو بلد التجارات .. من الصعيد الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب، ومن تنيس، لا دمياط، الثياب الملونة، ومن دمياط القصَب، ومن الفيوم الأرز وكتان دون، ومن بوصير قريدس الكتان الرفيع، ومن الفرما الحيتان»(٤).

وفي الخصائص يقول : «لا نظير لأقلامهم - أي المصريين - وزأجهم، ورخامهم، وخلهم، وصوفهم، وخيشهم، وبزهم، وكتانهم، وجلودهم، وحذوهم، وأيفهم، ووزهم، وموزهم، وشمعهم، وقندهم، ودقهم، وصبغهم، وريشهم، وغزلهم، وأشنانهم، وهريستهم،

(1) Carci, Liugi : Op. Cit Idem
(2) Istoria dell Antica Rep.d Amalfi, Idem
(3) Citarella, A. O. : Op. Cit 302

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ - ٢٠٤

ويندنهم وحمصهم، وترمسهم، وقلقاسهم، وحيثانهم، ومعايشهم، وتجاراتهم، وصدقائتهم، كل ذلك في غاية الجودة»(١) . أما إقليم الشام فيه «معادن الرخام، وعقاقير كل دواء، ويسار، وتجار، ولباقة وفقهاً، وكتاب، وصناع وأطباء». والتجارات به مفيدة، يرتفع من فلسطين الزيت والقطين، وزبيب العينوني والدوزي غاية، والتفاح، وقضم قريش الذي لا نظير له، والمرايا، وقدور القناديل والإبر ... ومن عمان الحبوب، والخرفان، والعسل. ومن طبرية : شقاق المطارح والكاغد (القراطيس)، ويز. ومن قدس : ثياب المنيرة، والبلعيسية والحبال. ومن صور : السكر، والخرز والزجاج المخروط والمعمولات. ومن مآب : قلوب الوز. ومن بيسان : الرز، ومن دمشق : المعصور والبلعيس وديباج .. والكاغد، والجوز، والقطين والزبيب. ومن حلب : القطن، والثياب، والأشنان والمغرة .... »(٢).

وبالإضافة إلى هذا الوضع الاقتصادي المميز لكل من مصر والشام، فقد اخترقت البلدين طرق تجارية هامة تحمل تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندي، حيث يشتد الطلب في أوربا على سلعها، مما جعل المدن والمرافيء المصرية والشامية بمثابة أسواق قريبة لتجار الغرب الأوربي، يتيسر لهم الحصول منها على هذه السلع، فقامت تجارة نشطة بين هؤلاء التجار وتلك المناطق منذ وقت مبكر.

وأهم هذه الطرق التي ربطت تجارة الشرق بالغرب عبر مصر والشام طريقان، أحدهما بحري، والآخر بري.

(أ) الطريق البحري إلى سواحل البحر المتوسط :

ويبدأ هذا الطريق من موانيء الشرق الأقصى (في الهند والصين، وجزر المحيط الهندي)، ثم يدور حول سواحل جزيرة العرب حتى عدن (مرفأ اليمن العظيم)(٢)، وقد

انظر أيضاً ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٣٣٢هـ ص ٢٥٢

(١) المصدر السابق : نفس المكان

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٨٠-١٨١

(٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٦١

اشتهر بنقل التجارة الشرقية عبر هذا الطريق إلى مصر تجار عمان وسيراف(١).

وهناك طريق بحري آخر يصل بلاد الإسلام بأوربا عبر البحر المتوسط، وتبدأ الرحلة من موانيء جنوب إيطاليا في هذا البحر حتى الفرما(٢)، المدينة التجارية الهامة التي يقول عنها المسعودي : « .. فجميع البلدان تحمل إليها، وتفرغ فيها»(٣). ومن الفرما تبدأ المرحلة الثانية من الرحلة على ظهور الدواب إلى القلزم، ثم البحر الأحمر إلى ميناء عدن، ومواصلة السير بعد ذلك إلى السند والهند والصين. وفي رحلة العودة يحمل التجار معهم منتجات الشرق مثل : المسك، العود، الكافور، الدارصيني وغير ذلك، ويعودون من نفس الطريق إلى القلزم ثم إلى الفرما، لتُحمّل هذه السلع في البحر المتوسط إلى أوربا، أو يتجه منها تجار الغرب إلى القسطنطينية مارين بالسواحل الشرقية للبحر المتوسط(٤).

ونخلص من وصف ابن خرداذبه إلى نتيجة هامة، هي أن سفن البحر الأحمر كانت تصل إلى مياه الشرق الأقصى، وتعود محملة بالبضائع إلى القلزم، ثم إلى الفسطاط، ومنها إلى الأسكندرية حيث تصل هذه البضائع إلى أوربا عن طريق البحر، وقد كان لهذا التحول في طريق التجارة إلى البحر الأحمر أثره في انتعاش التجارة في بعض موانيه كمينائي عيذاب والقلزم(٥)، وكانت عيذاب مقصداً لتجار مصر واليمن، وما يأتي إليها من أطراف السودان، لينقلوا ما تجمع فيها من البضائع الثمينة، وقد أشار اليعقوبي إلى هذا الميناء(٦)، بقوله : « .. ويأتيه التجار، فيحملون التبر والعاج وغير ذلك في

(١) السيرافي : ذيل كتاب سلسلة التواريخ ص ١٣٦ - ١٣٧
(٢) ابن خرداذبه: المصدر السابق ص ١٥٣
(٣) التنبيه والاشراف، ص ١٩
(٤) ابن خرداذبه: المصدر السابق ، ص ١٥٤
ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص٢٧٠
(٥) عن العوامل التي تضافرت على توجيه حركة التجارة الدولية عبر مصر والبحر الأحمر
انظر : عمر كمال توفيق: المرجع السابق ص ٢٨٢-٢٨٤
(٦) كتاب البلدان ص ٢٣٥

المراكب»(١). كما حفل بمراكب الهند، وبه كانت تحصل مكوس هذه التجارة، لتنقل بعد ذلك بقوافل إلى قوص ومنها في النيل إلى الفسطاط(٢). كما كانت مدينة القلزم مخزناً كبيراً تتجمع فيه التجارات الواردة من الشرق عن طريق هذا البحر، ومن الغرب عن طريق البحر المتوسط، وقد أشار المسعودي إلى كميات البضائع الهائلة في هذه المدينة بقوله : «يصل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين من أنواع الأمتعة والطرائف، والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها(٣)، وقد كان لذلك آثاره في ازدهار مصر اقتصادياً، وازدياد أهميتها التجارية بالنسبة لتجار الغرب الأوربي وفي مقدمتهم الأمالفيون، بعد أن أصبحت سوقاً كبيراً مليء ببضائع الشرق، ومنتجاته الخاصة التي تلقى رواجاً لدى هؤلاء التجار.

(٣) الطريق البري إلى الشام ومصر حتى تونس :

عبر هذا الطريق كانت تستقبل تجارة الشرق الأقصى في بغداد ثم تمر بالأنبار، ومنها إلى الرقة ثم إلى دمشق وطبرية، ثم إلى الرملة، ومن الرملة إلى غزة ورفح، والعريش، وبلبيس، وأخيراً إلى الفسطاط بمصر، ومن الفسطاط استمر الطريق نحو الشمال إلى مدينة الأسكندرية، وقد يتجه الطريق من الرقة إلى حلب، ثم إلى قنسرين ومنها إلى أنطاكية، حيث تشحن البضائع في مينائها إلى بيزنطة أو إلى الغرب الأوربي مباشرة(٤) . أما الطريق الذي ينتهي عند الأسكندرية فإنه يتصل بالطريق الممتد إلى

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٧٢

أيضاً : القلقشندي : صبى الاعش ج ٣ ص ٤٦٤

(٢) التنبيه والإشراف ص ١٩ - ٢٠

(٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٧٢، ٧٧-٧٩

(٤) البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٨٤-٨٦ أيضاً : ابن خرداذبه : المصدر السابق ص ١٥٤-١٥٥ وكذلك : لومبار ، موريس : الذهب الإسلامي منذ القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، ترجمة توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادي، القاهرة ١٩٦١م ص ٧٠

المغرب الأقصى، بعد مروره بمراكز التجارة الهامة مثل برقة ثم إلى تونس، ليتجه بعد ذلك عبر جزيرة صقلية إلى جنوب إيطاليا حيث يقع ميناء أمالفي(١).

وبالنسبة لتجارة الأمالفيين مع مصر والشام، كانت سلع الشرق الأقصى تصل إلى المدن المصرية والشامية عبر أي من هذين الطريقين، وكان على تجار أمالفي بعد أن يحصلوا على ما يلزمهم من هذه السلع، فضلاً عما كانوا يستوردونه من المنتجات المصرية والشامية، أن يسلكوا بهذه التجارة طريق دائري، نقطة البداية فيه عند القدوم إلى مصر والشام ميناء أمالفي في الغرب. وتبدأ رحلة العودة إلى مدينتهم عبر هذا الطريق من أي من المرافيء الهامة الواقعة على ساحل مصر والشام حيث كانت تقيم جاليات أمالفية، تتولى مهام هذه العمليات التجارية.

فإما أن تبدأ الرحلة من البحر التيراني بحذاء الساحل الإيطالي، ثم عبور الأدرياتيك إلى دراخيوم، حيث تقيم أيضاً جالية كبيرة العدد للأمالفيين ـ كما سبقت الإشارة ـ ومن دراخيوم جنوباً إلى بلاد الشام ومصر(٢)، أو أن تبدأ من أمالفي جنوباً عبر مضيق مسينا وصقلية صوب مدينة المهدية على ساحل القيروان (محط السفن لمن قصدها من جميع الجهات)، ثم تسلك السفن الأمالفية بعد ذلك الطريق بحذاء ساحل إفريقيا الشمالي حتى الأسكندرية(٣)، ومن الأسكندرية إلى (بوقير) إلى دمياط، إلى بحيرة تنيس إلى جزيرة دبقوا، إلى غزة، إلى عسقلان، إلى قيسارية، إلى يافا، إلى عكا، إلى صور، إلى صيدا، إلى بيروت، إلى طرابلس الشام، إلى اللاذقية إلى أنطاكية ثم إلى أنطاكيا (الأناضول)(٤). وهناك يلتقي بطريق أجناتيا القديم من دراخيوم إلى سالونيك حتى

---

(1) cf. Tudebodus l mitatns et Continnatus Historiae Peregrinorum ; Op. Cit P. 176

(٢) البكري : المصدر السابق ، نفس الصفحات

(٣) البكري : المصدر السابق ص ٨٦

(٤) رنسيمان، ستيفن: الحضارة البيزنطية، ص ٢٥٣ أيضاً : لومبار، موريس : المرجع السابق نفس الصفحة.

القسطنطينية، أو مباشرة عبر الأدرياتيك إلى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية(١)، ويذكر المؤرخ وليم هايد طريقاً آخر سلكه الأمالفيون اتخذ من الجزر محطات للتوقف حتى الوصول إلى الشرق. ويبدأ من مضيق مسينا في اتجاه مستقيم صوب الشرق من خلال البحر الأيوني، ويمر بكريت، ورودس، وقبرص مباشرة إلى عكا أو المراكز الهامة على ساحل الشام، أو جنوباً صوب موانيء مصر : الأسكندرية أو رشيد أو دمياط(٢)، ولم يكن هذا الطريق أكثر أمناً فحسب، بل كان أيضاً أقصر الطرق التي تصل أمالفي بشرق البحر المتوسط، وزادت ميزات هذا الطريق بالنسبة للأمالفيين بعد الغزو النورماني لصقلية، إذ أصبح لأمالفي مخزن في مسينا، يضم بضائع الشرق الآتية على ظهر سفنها(٣). وفي عصر الحروب الصليبية عمل حكام الشرق اللاتيني على الاستفادة من تجارة الترانزيت، وجعلها مصدر دخل هام بالنسبة لهم، وفي نفس الوقت يمكنهم محاربة حكام مصر المستفيدين من وراء هذه التجارة المارة عبر أراضيهم عن طريق البحر الأحمر، فأخذوا يشجعون قدوم تجارة الشرق الأقصى عبر فارس والعراق إلى الموانيء الصليبية على ساحل الشام، وذلك بأن منحوا تجار الغرب المشترين للبضائع القادمة عن هذا الطريق تعويضاً يتناسب والنفقات الإضافية الزائدة عن تكاليف نظيرتها الآتية عن طريق مصر(٤).

على أية حال، فالأدلة قليلة فيما يتعلق بتحديد وجهة الرحلات التجارية الأمالفية إلى مصر والشام، أو رحلة العودة من هذه البلاد. ولا يعرف ما إذا كان لأمالفي رحلات بحرية منتظمة - مثل البندقية - أم لا. ويعزى ذلك إلى ما كان معروفاً عن تجار العصور

(1) Histoire de Commerce du Levant, T. I P. 181
Also : Yoitein, S. D. : Op. Cit P.214
(2) Heyd, W. : Op. cit I. I P. 181
Also : Cahen, Claude : La Syrie Du Nord P. 488
(3) I bid PP. 476-477
(4) cf. Citarella, A. O. : The Conmerce of Amalfi P.547

الوسطى المبكرين، فقد كانوا يتجنبون الإشارة إلى الطريق الذي تسلكه رحلاتهم، أو المقصد المتوجهين إليه، أو أية معلومات أخرى عن هذه الرحلات من الممكن أن يستفيد من وراء الحصول عليها أو معرفتها منافس أو عدو(1)، ولذلك فإن الصيغ التي استعملت في الوثائق الرسمية للأمالفيين كانت مجرد إشارات غامضة عن هذه الأسفار، لا تفصح عن مكان رحلتهم أو الطريق الذي قطعوه في سبيل ذلك(2).

فقد كان التجار الأمالفيون (سردابيين) كهؤلاء الذين أشارت إليهم أيضاً الوثائق الدبلوماسية الخاصة بالمراكز البحرية الأخرى في ذلك العصر، وتركزت الفائدة بالنسبة لنا في الإشارة إلى حدوث رحلات بحرية طويلة فيما وراء البحار في ذلك الوقت، ومعرفة إلى أي حد كان هؤلاء التجار روتينيين في تقاريرهم. ويستثنى من ذلك الوثيقة الخاصة برحلة ليو الأمالفي إلى مصر لسببين : أولاً : أنها ذكرت صراحة مقصد الرحلة، ثانياً : هو أن الشكل الروتيني للوثيقة يتعلق بعمل أو مشروع وهو أمر غير عادي. لذلك فإن عدم وجود أخبار عن الرحلات البحرية إلى الشرق، سواء في الوثائق الأمالفية، أم في التواريخ المعاصرة، ليس مثاراً للدهشة أو العجب، هذا فضلاً عن أن طول الرحلة اكتنفته صعوبات كانت بالقدر الكاف لأن تجعل مثل هذه الرحلة عملاً استثنائياً أكثر منه أمراً شائعاً(3).

والاكثر من ذلك، أن طبيعة الأنشطة العملية للتجار الأمالفيين في القسطنطينية كانت سبباً في تحديد مسار رحلتهم، فقد ذهبوا إلى هناك للحصول على الملابس الرسمية

(1) J bid : I dem.

(2) cf. Cod . Dipl . Amalfitans, das no. XL 11, XLV, XLV111, LX1, LXV111, LXIX, LXXIV.
ففي هذه الوثائق أشير إلى تجار أمالفي الذين في رحلات بحرية أنهم (المبحرين) أو الذين خارج البلاد، أو الذين لم يعودوا بعد

esse ad navig an dum . esse Foris de istam terram
non posse hic venire

(3) Citarella, A. O. : Op. Cit P. 548

الخاصة بالاحتفالات والطقوس الدينية، وأدوات الفن، والمجوهرات، باختصار ذهبوا إلى هناك بصفة رئيسية كمشترين أكثر منهم بائعين، وقد تأثروا باثنين من السياسات التقليدية للبيزنطيين : الأول : المكس المقرر على كل سفينة تدخل ميناء العاصمة البيزنطية، فقد كان عليها أن تدفع اثنين بيزنط من الذهب، وعند المغادرة تدفع خمسة عشر بيزنط أي بنسبة ٢ : ١٥، وتمثل على وجه التقريب النسبة بين قيمة الوارد إلى بيزنطة، وقيمة الصادر منها إلى الموانيء الإيطالية(١).

والثاني : يتمثل في المرسوم الذهبي الصادر في عام (٩٩٢م) من الإمبراطورين بازل وقسطنطين، فبينما منح هذا المرسوم تخفيضات على رسوم الميناء للبنادقة، منعهم من حمل أي تجارة خاصة بالأمالفيين، واليهود واللمبارديين من باري(٢)، فنوعية البضائع المشتراة من القسطنطينية جعلت الطريق البحري البري على امتداد طريق اجناتيا - السالف الذكر - عبر الأدرياتيك إلى أحد موانيء بوليا، ماراً بملفي وافيللينو إلى كامبانيا، أكثر جاذبية. والدليل على ذلك هو وجود جاليات أمالفية في تراني Trani وباري، وبرنديزي، المرافيء الطبيعية لمغادرة ووصول المسافرين إلى ومن الإمبراطورية الشرقية والأراضي المقدسة(٣).

يضاف إلى ذلك عوامل أخرى كانت تتدخل في تحديد مسار السفن الأمالفية المحملة بتجارات الشرق، مثل مسألة الأمان، خصوصاً حينما تكون البضائع مرتفعة القيمة، وخير مثال على هذا الوضع قصة تاجر التوابل الأمالفي الذي كان مضطراً إلى السفر من الأسكندرية إلى أمالفي، بشحنة ثمينة من الفلفل والبخور، عبر الطريق الدائري الأطول والمار بالأسكندرية(٤).

---

(١) انظر : لومبار، موريس : المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠

(2) Citarella, A. O. : Op. Cit I dem

(3) cf. Musea, g. : Op. Cit P.70 n. 15

Also : Bernard the Monk. Op. Cit P.141

(4) Citarella, A. O. : Op. Cit P. 549 , Also : gaitein, S.D, Op. cit P. 81

ومن ناحية أخرى، فإن التجارة مع المسلمين جعلت البحر بالنسبة للأمالفيين الوسيلة الوحيدة للاتصال، ليس فقط بسبب نواح جغرافية، بل أيضاً لطبيعة البضائع كالمواد الغذائية، والخشب، والنسيج الكتاني، والفواكه التي كانوا يحضرونها معهم إلى موانيء تونس ومصر والشام، فهذا الظرف جعل اتخاذ الطريق البحري المباشر أمراً ضرورياً(١)، والمصادر المعاصرة تؤكد ذلك بشكل كلي، فالرحلة إلى تونس ومصر كانت تتم عبر صقلية، وكما سبقت الإشارة، فإن السفينة الأمالفية التي كانت تحمل الحرير والعسل إلى الأسكندرية عام (١٠٦٠م)، وكانت باتخاذها لهذا الطريق لابد وأن تحمل الحرير من صقلية، لأن الحرير الصقلي أثناء عصر الجنيزا كان مرتفع القيمة، وشائع استيراده إلى مصر(٢). أما العسل فكان بالتأكيد من تونس، التي كانت واحدة من مناطق الإنتاج الرئيسية لهذه السلعة، وكذلك الشمع في غرب البحر المتوسط(٣). وهكذا تحكمت طبيعة السلع التي تحملها السفن الأمالفية، وأماكن تسويقها من ناحية، ودواعي الأمن من ناحية أخرى، وارتباط أمالفي التجاري ببيزنطة من ناحية ثالثة في تحديد خط سير الرحلة من وإلى موانيء الشرق في مصر والشام، عبر خط دائري يبدأ من أمالفي وينتهي إليها ماراً بالموانيء البحرية الهامة في هذين البلدين.

وقد مارست أمالفي العمل التجاري مع مصر والشام من خلال عدة مراكز تجارية في كل من الغرب والشرق، وامتاز كل منها بأهمية خاصة من الناحية التجارية، سواءً كان مركزاً لإنتاج سلع يزداد الإقبال عليها في هذه التجارة، أم سوقاً لتصريف المنتجات الواردة من أماكن أخرى، أم الاثنان معاً، وهي الخصائص التي كانت من دواعي قيام عمليات التبادل التجاري بين الأقاليم المختلفة(٤)، فبعض هذه المراكز كانت في مناطق

(1) Citarella, A. O. : Op. Cit I dem

(2) goitein, S. D. : Op. Cit P. 102, 222-224

(3) I bid P. 125

(٤) في هذا الصدد يقول ابن الفقيه : «ولولا أن الله عزّ وجل خصّ بلطفه كل بلد من البلدان، وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء، منعه غيرهم لبطلت التجارات، وذهبت الصناعات، ولما تغرب أحد، ولا سافر رجل، ولتركوا التهادي،

منتجة لسلع لا تتوفر في أماكن أخرى، والبعض منها كان مركزاً لتوزيع منتجات مناطق أخرى ويشتد عليها الطلب في الأقاليم المحيطة بها، والبعض الثالث كان يختص بإنتاجه لسلع معينة ضرورية بالنسبة لمناطق أخرى، ويحتاج في نفس الوقت إلى حاجيات لم تكن متوفرة لديه، وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا آخذة بأسباب النهوض على نحو بطيء كان تجار أمالفي ذوو أفق متسع، ودراية كبيرة بالأوضاع الاقتصادية للأقاليم المحيطة بها في الغرب، وتلك التي تتردد عليها في الشرق. ومع ظهور الأسواق والمعارض كنتيجة للتأثر بالظروف الاقتصادية العامة، أخذ الأمالفيون ينتشرون في العديد من المدن الإيطالية، حيث برزت أهميتهم، وازداد حجم معاملاتهم التجارية في هذه المدن(1)، وهو ما كان عليه الحال أيضاً بالنسبة لهم في مدن الشرق وموانيه.

على أية حال، فإنه بالنسبة للمدن الإيطالية في الغرب احتلت روما المركز الأول في تجارة الأمالفيين، بحكم مركزها الديني في العالم الكاثوليكي بصفة عامة، وازدياد الحاجة فيها إلى سلع الشرق الثمينة، مما كان مثار لتنشيط حركة التبادل التجاري بين الشرق والغرب منذ وقت مبكر، سمحت الظروف فيه لتجار أمالفي أن يكونوا هم أصحاب هذه الدور، ويتولون أمر الوساطة التجارية بين الطرفين.

فالكنيسة الكاثوليكية التي ورثت مركز الإمبراطورية الغربية، أخذ نفوذها في الازدياد حتى بلغ مبلغاً عظيماً منذ القرن الحادي عشر، كما يتضح من دراسة تاريخها وعلاقاتها بالدول الأوربية، وبخاصة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فبعد أن أصبحت قوة زمنية عظيمة السلطان، أخذت تفقد بساطة العهد المسيحي الأول برسله وقديسيه لتحل محل ذلك روح طابعها الترف ـ ولما كانت روما قبلة المسيحيين في أوروبا، انتقلت هذه الروح منها إلى الكنائس الأخرى في القارة وتطورت الطقوس الدينية، وتعقدت مظاهرها بشكل

= وذهب الشرى والبيع والأخذ والإعطاء، إلا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات، ومنع الأخرين، ليسافر هذا إلى هذا، ويستمتع قوم بأمتعة قوم، ليعتدل القسم وينتظم التدبير، انظر : مختصر كتاب البلدان ص ٢٥١

(1) f. Coniglio, Y. : Op. Cit P. 102

يؤثر في نفوس الشعوب الجرمانية خاصة التي لم يكن قد مضى على اعتناقها المسيحية إلا القليل، فأسرف رجال الدين في استعمال البخور والعطور، كما اشتدت الحاجة إلى توابل الشرق، لحفظ الأطعمة تبعاً للحياة الدينية وما فيها من صوم، وهكذا بدأت تنشط التجارة بازدياد الطلب في أوربا على هذه السلع الشرقية(١)، وحظيت روما بأهميتها في هذا المجال كمركز بدأت منه صيحة الحاجة إلى هذه المنتجات.

وسير البابوات من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر توضح كثيراً هذه النقطة، فقد حفلت هذه السير بالتفاصيل التي تصف الهبات والهدايا التي أغدقت على هؤلاء البابوات ومن دونهم من رجال الدين كالأساقفة، ومعظمها كان من المنتجات الشرقية كالذهب، والفضة، والعاج، والمجوهرات، واللؤلؤ، والأحجار الكريمة، والصلبان، والشمعدانات المزخرفة، والأصباغ والبخور والعطور والتوابل بأنواعها المختلفة، والأقمشة المنقوشة أو المزخرفة، والأردية الحريرية(٢). وكان النبلاء في العالم المسيحي الغربي، سواء أكانوا رجال دين أم علمانيين، في إمكانهم الحصول على مثل هذه السلع كهدايا من البابوات، أو عن طريق الشراء عند زيارتهم لمدينة القديس بطرس(٣).

وهكذا كانت روما سوقاً على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للأمالفيين(٤)، الذين استفادوا من وراء حرية التجارة بأن حصلوا على احتكار شاركهم فيه البنادقة، في بيع الملابس الرسمية الخاصة بالاحتفالات والطقوس الدينية(٥)، مما زاد من قيمة وأهمية السلع التي يجلبونها إلى هذه المدينة.

(١) راشد البراوي : المرجع السابق ، ص ٢١١

(2) Heyd, W. : Op. cit T. I P.94

Also : Citarella, A. O. :The Commerce of Amalfi p. 554

(3) Heyd, W. : Op. cit T. I PP. 94-96

(4) Coniglio, Y. : Op. Cit P. 104

Also : Citarella, A. O. :The Relations of Amalfi p. 302

(5) Lopez, R. S. : Silk Industry In the Byzantine Empire P. 38

وفضلاً عن ذلك، كانت روما منفذاً لتسويق أدوات الفن الشرقية وسلع أخرى أحضرها الأمالفيون من مصر والشام وبيزنطة، وكان لهؤلاء التجار الفضل فيما طرأ على الفن الغربي من تطور في مرحلة تالية، إذ أنهم نقلوا من الأسكندرية والقسطنطينية إلى روما إنتاج المشتغلين بتصنيع المعادن من الشرقيين، وكذلك أعمال الرسامين وفنانو الزخارف والنقوش(١)، وقد امتدت التجارة الأمالفية من روما على طول طريق فرانشيجنا إلى بافيا، حيث اشتهر تجار أمالفي بما كانوا يجلبونه من بضائع الشرق إلى أسواق هذه المدينة(٢)، كما كان لهم نشاطاً كبيراً أيضاً في أسواق رافنا(٣)، ونجد دليلاً على ذلك في وثيقة عبارة عن عقد لرحلة بحرية تجارية من أمالفي إلى رافنا عن طريق صقلية(٤).

وفي جميع مراكز الإنتاج الهامة في إيطاليا، أقام الأمالفيون لأنفسهم جاليات ثابتة، تأسست قبل خضوع أمالفي للنورمان بفترة طويلة(٥)، ومن هذه المراكز بوليا Puglia، التي كانت إحدى المناطق الهامة لإنتاج الغلال، فانتشر في مزارعها مواطنو أمالفي بأعداد كبيرة، واتخذوا أماكن موزعة بين هذه المزارع أقاموا فيها من أجل شراء المحاصيل الزراعية المنتجة(٦)، وقد احتفظوا بهذا الوضع في بوليا منذ فترة مبكرة. والدليل على ذلك مرسوم للإمبراطور فردريك الثاني في عام (١٢٣١م)، أقر فيه كل الامتيازات والإعفاءات التي كانت للأمالفيين في المنطقة (منذ أوقات غير معلومة)(٧).

(1) Citarella, A. O. :The Commerce of Amalfi p. 554
(2) Solmi, A. : Honarantie Civitatis Papie, Op. Cit
(3) Conighio, M. : Op. Cit P.104
(4) Codice Deplm Amalfitano, Vo1, dec. no DXCV1 p.304
(5) Citarella, A. O. :The Commerce of Amalfi p. 540
(6) I bid P. 541
Also : Carabillese, F. : Saggio distoria del
Commercis della Pughia, Bari 1897. p.117
(7) Huillard - Brehalles, J. L. A.: Historia Diplomatica Frederici Secundi, Paris 1852. T. 111. P.300.

كما أن كلاً من شارل الأول، وشارل الثاني أف انجوا حينما منحوا تجار أمالفي امتيازات أخرى جديدة في هذه المدينة، أشاروا في نصوص هذه الامتيازات إلى قدم الجاليات والمؤسسات الأمالفية المستقرة في هذه المنطقة(١)، وكذلك كان الوضع بالنسبة للأمالفيين في مدينة باري، التي فضلاً عن أهميتها التجارية بالنسبة لهم كميناء هام، فقد استقروا في المناطق الزراعية هناك للحصول على المنتجات المطلوبة في التبادل التجاري مع الشرق الإسلامي بصفة عامة(٢).

وقد كان للأمالفيين جاليات منتشرة في دوقية بنفنتو(٣)، وزادت أعداد هذه الجاليات بعد خضوع أمالفي للنورمان، حيث انتقل جانب كبير من أهالي أمالفي إلى هذه الدوقية للقيام بأعمال تجارية هناك، وحققوا من وراء ذلك أرباحاً وفيرة(٤)، وكان الثراء الناجم عن هذه الأرباح مصدراً للعجب من جانب البابا كالكستس الثاني Callixtus II (١١١٩ - ١١٢٤م) أثناء زيارته لهذه المنطقة في عام ١١٢٠م(٥).

وتوقفت أهمية هذه الجاليات على المكانة الاقتصادية للإقليم، وأهمية المدينة التي تقيم بها من الناحية التجارية، وقد ترك التجار الأمالفيون أعضاء هذه الجاليات آثاراً في هذه المناطق تدل على وجودهم، وتوزيعهم المنظم في البلاد الإيطالية للاستفادة من الميزات الاقتصادية لهذه البلاد، ففي سان جرمانو كان لهم منطقة تجارية(٦)، وفي كابوا كان لهم حي خاص بهم(٧)، بينما وجد في ريجيا Rhegium نقش على أحد أبواب المدينة يذكر

(1) Loffredo, S.: Storia di Borletta, Trani 1893, Vol, P.179

(2) Citarella, A. O. :Cit p. 541

(3) cf. Pactum Sicaedi ; Op. Cit Idem.

(4) Coniglio, 9 : Op. Cit p. 105

(5) Camera, M. : Op. Cit. Vo1 I p. 208

(6) Area Mercatorum Amalphitanarum cf. gattula :

Historia Cas inensis, Vevice 1732, Vo1. 11 p.749.

(7) cf. Rinaldi, O. : Memoriedi Capue, Naples 1756, Vol 11 P.168

بحضورهم إليها(١)، هذا فضلاً عن منشئاتهم الدينية المنتشرة في عدد من المدن مثل برنديزي، حيث كان للجالية الأمالفية كنيسة خاصة بهم عرفت باسم (كنيسة القديسة ماريا الأمالفية ST. Maria Amalfitana)(٢) وملفي Melfi ، حيث بنى الأمالفيون ديراً بندكتيا، وكنيسة واحتفظوا لأنفسهم في هذه المنشئات بامتياز العبادة والطقوس الجنائزية(٣)، فهذه وتلك مؤشرات تدل على انتشار الجاليات الأمالفية في عدد كبير من المدن الإيطالية، واتخاذهم من هذه المدن مستقراً لهم لتدعيم عملهم التجاري وتوسيع نطاقه، سواء بالحصول على منتجات المناطق المحيطة بهذه المدن، وتصديرها إلى مدن الشرق الإسلامي وموانيه، أو ببيع ما جلبوه معهم من هذه البلاد الأخيرة من البضائع التي تلقى إقبالاً على شرائها من جانب أهل الغرب.

وقد تجاوز وضع الأمالفيون ما هو أكثر من ذلك في مدن جزيرة صقلية، فهذه الجزيرة كانت تابعة للفاطميين، واشتهرت بثرائها وما تنتجه من الكتان الرقيق، والثياب المنقوشة التي كانت تجلب إلى مصر مع ما تحمله السفن من أموالها(٤). وفي هذه الجزيرة أقامت جاليات أمالفية مشابهة في معظم مدنها، كما كان للأمالفيين شوارع وأحياء مسماة بهم في بعض المدن الرئيسية، وإذا وضعنا في الاعتبار ما كانت عليه علاقات أمالفي بالأغالبة والفاطميين من بعدهم، فإن هذه المؤسسات الأمالفية ترجع - بلا شك - إلى العصر الإسلامي(٥). وباستيلاء النورمان على صقلية ضمن الأمالفيون لأنفسهم وضعاً مستقراً وثابتاً في بعض الأسواق الرائجة التي كان مقصدهم في

(1) Camera, M. : Op. Cit: Vo1. II P. 351

(2) Ibid P. 531 -352

(3) Citarella, A.O. Op - Cit P.541

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه

(5) Luzzatto, G : Storia Economica P.99

Also : Citarella, A. O. : The Commerce of Amalfi P. 541

الماضي(١)، كما جعلوا من بالرمو ومسينا مخازن لبضائع الشرق(٢)، مما يشير إلى ازدهار تجارتهم مع موانيء مصر والشام أكثر من ذي قبل.

وبينما كان للأمالفيين جاليات من التجار أقامت في المدن الإيطالية المشار إليها سواء كانت مناطق إنتاج، أو سوق لبيع البضائع الشرقية أو الإثنان معاً، فإنه كانت لهم أيضاً مراكز تجارية في المدن والموانيء الهامة في مصر والشام، حيث كانت تنقل إلى هناك منتجات المحيط الهندي، وحيث اختص هذين البلدين بإنتاج سلع كانت عماد التجارة الأمالفية في الغرب(٣)، فمع تزايد النشاط التجاري للأمالفيين في هذه المنطقة، وجدوا الكثير من المنافذ فيها لتجارتهم، وكثرت عقود الملاحة المبرمة بغرض نقل التجارات إلى هذه البلاد، وظهرت لتجار أمالفي عمليات تبادل تجاري واسعة النطاق في جميع موانيء البحر المتوسط، كانت فيها العلاقات مع المسلمين على قدر أكبر من الأهمية، بفضل الوضع الذي كان لهؤلاء التجار في المدن والمرافيء الإسلامية الهامة الواقعة على طريق التجارة العالمية(٤).

وأهم المراكز التجارية التي كان يتردد عليها تجار أمالفي في مصر وأقامت بها جاليات لهم، كانت مدينة القاهرة بما فيها مدينة الفسطاط القديمة والمسماة عندهم (بابلون). فقد كانت هذه المدينة ذات شهرة واسعة في التجارة، إذ عندها تلتقي قوافل التجار القادمة من الشرق الأقصى، ومن العراق والشام(٥)، وتحط بها قوافل التجار القادمة من المغرب والأندلس، وقد عبر المقدسي عن ذلك بقوله : «في ميناء الفسطاط يجيء إبدا إليه ثمرات الشام والمغرب، وتسير الرفاق إليه من العراق والمشرق، ويقطع

(1) Coniflio, g. : Op. Cit P.186
(2) Ibid P. 104
(3) Cahen, Clande : La Syrie Du Nord P.476
(4) cf. Conishio, Y. : Op Cit PP. 102-103
(٥) ابن خرداذبه : المالك والممالك ص ٧٩ - ٨٠

إليه مراكب الجزيرة والروم، تجارته عجيبة، ومعايشه مفيدة، وأمواله كثيرة»(١). كما أبدى هذا الجغرافي إعجابه بكثرة الأسواق في هذه المدينة، وكثرة السفن الراسية والسائرة في مينائها(٢) وفي (الخطط) ما يدل على كثرة القياسر، والخانات، والفنادق التي كانت مخصصة للتجارات والتجار، ويؤكد ذلك المقريزي بقوله : «إنه كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيئاً كثيراً جداً .. وكفاك دليلاً على كثرة عددها أن الذي خرب من الأسواق فيما بين أراضي اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقاً أدركناها عامرة، فكيف ببقية الجهات الثلاث من القاهرة ومصر ...»(٣).

وقدم الرحالة الفارسي ناصر خسرو تقريراً عن الحركة التجارية في هاتين المدينتين، والتي رآها بنفسه حينما كان في زيارة لمصر حوالي منتصف القرن الحادي عشر، ففي القاهرة : «ما لا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك السلطان، وكثير منها (كان) يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر(٤)، أما مصر ففيها دور كثيرة فيها حجرات للاستغلال، وأسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائماً، لأن الضوء لا يصل إلى أرضها، ويسير فيها الناس .. وفيها سوق يسمى (سوق القناديل) لا يعرف سوق مثله في أي بلد، وفيه كل ما في العالم من طرائف(٥). وعن تجار مصر يضيف الرحالة الفارسي : «إنهم يصدقون في كل ما يبيعون .. وأهلها في غنى عظيم»(٦).

وفي المدينة التي توفرت فيها تلك الخصائص ـ كما يفهم من كتابات المعاصرين ومن نقلوا عنهم ـ مارس الأمالفيون نشاطاً تجارياً كبيراً(٧).

---

(١) أحسن التقاسيم ، ص١٩٩

(٢) المقدسي : المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) المقريزي : ج٢ ص ٦٠ ٩٤ وعن الأسواق التي أحصاها ، واسم كل سوق، انظر المصدر السابق، الصفحات من ٩٥ -١٠٧

(٤) سفرنامة، ص ٤٨

(٥) المصدر السابق ص ٥٨ - ٦٠

(٦) المصدر السابق ص ٦١-٦٢

(7) cf. Coniglio. Y. Op. Cit P. 104

وكان مقرهم فيها - كما يستنتج من المصادر المعاصرة - (دار مانك) التي لا يعرف موضعها بالتحديد، والتي يرجح أنها كانت على مقربة من دار صناعة السفن بالمقس، حيث كانوا المزودين الدائمين لهذه الترسانة بما يلزمها من الأخشاب المستوردة من المغرب(١)، كما أن من لم يكونوا مقيمين منهم في هذه المدينة، كانوا يترددون عليها لقضاء أعمالهم التجارية، أو السعي لدى بلاط الخلافة من أجل الحصول على امتياز أو تصريح بمقر جديد، كما حدث أثناء حصولهم على ترخيص بقطعة أرض واسعة في بيت المقدس لإقامة منشآتهم عليها(٢).

أما الأسكندرية فقد كانت من كبريات المدن التجارية في البحر المتوسط، وحفل ميناؤها بتجارات الشرق والغرب. وكان يتم فيها تبادل السلع بين التجار من كلا الجانبين(٣)، وقد اهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بهذه المدينة، وجعلوا منها قاعدة لأسطولهم في البحر المتوسط(٤)، وبالنسبة للأمالفيين كانت مقصدهم المعتاد، وموئل نشاطهم التجاري الكبير(٥)، حيث توافدت سفنهم على مينائها(٦)، خصوصاً وأنها كانت بالنسبة لهم نهاية طريق الرحلة ومكان انتظار السفن الأمالفية حتى لحظة العودة لتقلع منها محملة ببضائع الشرق(٧)، هذا فضلاً عن أن جالية من التجار الأمالفيين استقرت في هذه المدينة وكان لها فندقها الخاص(٨).

ومن مدن مصر التي كان الأمالفيون أيضاً يترددون عليها، بغرض الأعمال التجارية، مدينتي تينس ودمياط، وقد اشتهرت هاتان المدينتان بموقعهما على البحر في الطريق

---

(١) انظر التفاصيل حول هذا الموضوع في الفصل الثاني

(٢) المرجع السابق نفس المكان

(٣) عن نشاط الجاليات الأوربية بالاسكندرية انظر : عمر كمال توفيق، المرجع السابق ص ٢٧٨

(٤) المرجع السابق ص ٢٧٨

(5) Coniglio, y. : Op. Cit P. 104,112

(٦) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٢٨٠

(7) Cahen, Clande : La Syrie Du Nord PP. 495 -496

(٨) بنياكين التطيلي : الرحلة ص ١٧٨ الرحلة ص ١٧٨-١٧٩

الذي كانت تسلكه السفن الأمالفية بحذاء الساحل إلى بلاد الشام، هذا بالإضافة إلى ما امتازت به كل مدينة منهما من شهرة فائقة في إنتاج أنواع من الأقمشة والثياب التي كانت من السلع التجارية الهامة بين صادرات أمالفي من مصر إلى الغرب أو بيزنطة. وفي هذا الصدد ذكر ابن حوقل ما خصّت به تنيس ودمياط، إذ يقول: «إن فيهما يتخذ ويعمل رفيع الكتان وثياب الشرب، والدبيقي، والمصبعات من الحلل التنسية، التي ليس لها في جميع الأرض ما يدانيها في القيمة والحسن والنعمة والترف، والرقة والدقة(١).

وقد ذكر المؤرخ كلود كاهن دمياط كأحد البلاد المصرية التي كان الأمالفيون يقصدونها للتجارة(٢)، ويعني هذا أنهم كانوا يأخذون منها المنسوجات الراقية الصنع(٣) . أما تنيس فقد فاقت دمياط في شهرتها، إذ يذكر عنها المقدسي أنها (بغداد الصغرى) وجبل الذهب ومتجر الشرق والغرب(٤)، وبها مصانع كثيرة .. ويرابط حولها، دائماً، ألف سفينة، منها ما هو للتجار، وكثير منها للسلطان(٥).

كما اشتهرت المدينة بفخامة أسواقها وما بها من حوانيت تجارية، ومصانع لأنواع نادرة من النسيج، منها نوع يعرف بالقلمون، الذي لا ينسج في مكان آخر من جميع العالم، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار وتحمل أثوابه من تنيس إلى المشرق والمغرب(٦).

وهكذا يتبين لنا أن تجار أمالفي حددوا لأنفسهم أكبر المدن المصرية شهرة في مجال التجارة والصناعة كميدان لنشاطهم ومستقر لجالياتهم، أو مرافيء تتردد عليها سفنهم

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٢ أيضاً ض ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤١٩
المقريزي : الخطط ج١ ص. ١٧٦ وما بعدها

(2) cf. La Syrie Du Nord P.495

(٣) انظر : المقدس أحسن التقاسيم ص ٢٠٢
(٤) المصدر السابق : ص٢٠١
(٥) ناصر خسروك : سفرنامة ص ٣٩
(٦) ناصر خسروك : سفرنامة ص ٣٩

كي تتزود بما في هذه البلاد من المنتجات والبضائع التي تلزمها، أو تلقي بما حملته من متاجر أحضرتها من الغرب. وكان ذلك موقف الأمالفيين أيضاً بالنسبة للمدن والموانيء الشامية التي فضلاً عن أهميتها التجارية، كان لبعضها أهمية دينية، مما زاد من ارتباط هؤلاء التجار بها، واتساع منشئاتهم فيها

وفي مقدمة هذه المدن عكا التي كانت ميناءً هاماً على البحر، ومنفذاً للجليل ودمشق، إلى جانب أنها كانت على مسافة متوسطة من بيت المقدس، ويكفي دور هذا الميناء في عملية نقل الحجاج التي أسهم الأمالفيين بدور فيها، مما دفع سفنهم إلى الرسو فيه، وأصبح بالنسبة لهم مثل الأسكندرية نهاية لطريق رحلة وانتظاراً من أجل العودة إلى الغرب(١). هذا فضلاً عن أنه كان مركزاً للتجارات القادمة من الشرق الأقصى بالطريق البري عبر بغداد وبلاد الشام إلى الساحل، مما أتاح لتجار أمالفي أن يحصلوا من هذا الميناء أيضاً على ما يلزمهم نقله من هذه التجارة إلى إيطاليا(٢). ونظراً لأهمية عكا البحرية والتجارية، فقد كان للأمالفيين فيها جالية كبيرة، وأملاك جاورت أملاك البيزيين، كما كان لهم مكان خاص بدفن موتاهم في مقابر القديس نيقولا(٣)، مما يدل على كثرة أعدادهم، وقدم استقرارهم في هذا الميناء الهام.

وفي أنطاكية كان لتجار أمالفي حي تجاري وجالية كبيرة (٤)، وقد اشتهرت هذه المدينة بوفرة منتوجاتها الزراعية من القطن، وقصب السكر، وأشجار التوت، لتربية دودة القز وإنتاج الحرير، والعنب، حيث يباع نبيذ أنطاكية في أسواق عكا، وكذلك الزيتون، والتين، والفستق(٥)، وارتبطت الصناعات فيها بهذه المنتجات المحلية وكانت صناعة

(1) Cahen, Clande ; OP. Cit. p. 196

(2) Pansa, Francesco. : Op. cit. Vol I P. 91 Vol 11. P. 53, 137

Also: Camera. M. ; Op. Cit Vol 11 P. 200

Coniglio, 9. : Op. Cit. P.105

(3) I bid Idem

(4) Cahen. Claude : Op. Cit P.473

(٥) معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٤

الأقمشة من أهم هذه الصناعات. وقد وجد مصنع لصناعة الحرير قرب القديس بطرس في أنطاكية، كما حقق سوق الأقمشة في بلدة صغيرة مثل جبلة ثروات كبيرة، وكانت حرائر وأقمشة أنطاكية من سلع التصدير وتمثلت صادرات أنطاكية عبر فلسطين في عصر الحروب الصليبية إلى أوروبا في الأقطان والأقمشة والحرائر النفيسة والنبيذ(١).

كما كان لأنطاكية ميناؤها في السويدية حيث كانت ترسو السفن الأمالفية القادمة من العاصمة البيزنطية أو دراخيوم صوب الشام، أو تلك الآتية من الأسكندرية إلى عكا في اتجاه الشمال(٢).

وقد أخذت اللاذقية هي الأخرى بحكم موقعها أهمية في هذا المجال، وكان للأمالفيين فيها مركز تجاري وجالية تجارية(٣). وتتضح أهميتها بالنسبة لهم أنها كانت إحدى مدن ثلاثة في الشام حصل فيها تجار أمالفي على امتيازات وأملاك جديدة بعد استيلاء الصليبيين على الشريط الساحلي، وإقامتهم مملكة وإمارات صليبية في هذه المنطقة(٤).

وقد كانت حلب هي الأخرى مدينة تجارية هامة يمر بها التجار القاصدون إلى الشرق والغرب، وقد وصفها ناصر خسرو بقوله : «وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام، والروم، وديار بكر، ومصر، والعراق، ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد(٥)، فكانت أسواقها حافلة بضروب الأمتعة»، وقد أعجب ياقوت بسوق القماش الموجود فيها وقال عنه : «ومن عجائب حلب قيسارية البز»(٦). ومن أشهر أسواقها أيضاً الزجاج(٧)، والبعض من هذه الأسواق كان يباع فيه حجر الشب الذي كان يستخدم في

---

(١) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٨٣ ، ١٨٤

(2) Cahen, Cloude : Op. cit P. 476

(3) Conglio, g : op. cit p.104 also : Cahen, CLaude : op. cit p. 475

(4) Pansa, Francesco : op. cit vop. 11 p.202

(٥) سفرنامة ص ١٢

(٦) معجم البلدان : مجلد ٢ ص ٢٨٤

(٧) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٨٣ ، ١٨٤

مصابغ إيطاليا(١)، وغيره من المنتجات احلية التي كانت تصدر إلى الغرب الأوربي(٢). وفي هذه المدينة تمتع الأمالفيون بما كان يقدمه أمراء حلب من تسهيلات وامتيازات وتعهدات الحماية للتجار البيزنطيين في المعاهدات المبرمة مع أباطرة الروم(٣)، ويعد أن خسرت أمالفي هذا الوضع بسبب خضوعها للنورمان، وسقوط هذه البلاد في يد الأتراك السلاجقة، يبدو أن اتصال تجار أمالفي بهذه المدينة لقضاء بعض الأعمال التجارية قد استمر من خلال وجودهم الدائم في المدن الأخرى القريبة كأنطاكية واللاذقية.

وقد امتازت مدينة طرابلس هي الأخرى فضلاً عن موقعها على البحر، بوفرة منتجاتها من قصب السكر والفواكه، وشهرتها في مجال صناعة الورق الذي يذكر عنه ناصر خسرو أنه كان (مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه)(٤)، ونظراً لأهميتها التجارية فقد كانت المكوس تحصل بها، فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب (العشر للسلطان) - خليفة مصر في ذلك الوقت - وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة(٥)، وأقامت في هذه المدينة جالية للأمالفيين، كما ترددت السفن الأمالفية على مينائها بغرض التجارة(٦). وفضلاً عن ذلك فإنه عندما استولى الصليبيون على المدينة حصل الأمالفيون فيها على دار وسوق(٧)، وقد احتفظ تجار أمالفي بهذه الأملاك إلى أن استرد المسلمون المدينة في أخريات القرن الثالث عشر(٨).

(1) Cahen, Cloude : Op. cit P. 476

(2) I bid : I dem

(٣) انظر ابن العديم : المصدر السابق ج١ ص ١٦٣ - ١٦٥

(٤) سفرنامة : ص ١٢

(٥) ناصر خسرو : المصدر السابق ص ١٢ - ١٣

(6) Coniglio, g. : Op. cit P.105

(7) Pansa, Francesco : Op. Cit 11 P.97

Also : Camera. M. ; Op. Cit Vol 11 P. 22-203

(8) Cahen, Cloude : Op. cit P. 148

ويتجلى حرص التجار الأمالفيين في الحصول على مقر خاص بهم في بيت المقدس في أنه فضلاً عن الأهمية الدينية للمدينة، ومجيء وفود الحجيج من الغرب الأوربي إليها بأعداد كبيرة، الأمر الذي صاحبه أيضاً قيام عمليات تجارية نشطة، فإن الأمالفيين قد أشاروا في مطلبهم إلى خليفة مصر - كما ذكر المؤرخ وليم الصوري - أن تجارهم يأتون إلى هذه المدينة ولم يكن لهم فيها مأوى يقيمون فيه(١)، وترتب على ذلك أن أصبح لهم فندق تقيم به الجالية التجارية، بالإضافة إلى ما أقاموه من منشئات دينية. وتتمثل أهمية بيت المقدس التجارية فيما ذكره المعاصرون عنها، ومن بينهم ناصر خسرو الذي ذكر عنها : «إن الخيرات بها كثيرة ورخيصة، وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف (Mancos) من زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى أطراف العالم، وبها أسواق جميلة، وأبنية عالية .. وفي المدينة صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة(٢) ». كما أشار المقدسي إلى كثرة الفنادق بها، وبسبب ازدهار التجارة بها فإن الضرائبَ ثقال على ما يباع فيه(٣).

وقد سمح للجاليات الأمالفية المنتشرة في هذه المراكز بأن تقيم في كل منها فندق يقيم بها تجارها، ويحفظون فيه بضائعهم، ويكون إما داخل المدينة أو خارجها(٤).

وقد احتوى هذا المقر أيضاً كنيسة صغيرة يقيم فيها التجار شعائرهم الدينية، وبه فرن يصنعون فيه الخبز وفق عاداتهم، وحمام، ومكان يُصرّح لهم فيه بشرب النبيذ، وكانوا في العادة يختارون أحد أفراد الجالية للإشراف على حياة الفندق العامة، ويطلق على هذا الشخص اسم الفندقي(٥)، ولعله في هذه الحالة يمثلهم أمام السلطات، ويجوز أن أحد ذوي الجاه والمنزلة بينهم يقوم بإنشاء الفندق، وفي هذه الحالة يكون أشبه

(1) Ibid : La Syrie du Nord, P.498

(٢) ناصر خسرو : المصدر السابق ص ٣٥

(٣) احسن التقاسيم ص ١٦٧

(4) Mas latrie : Op. cit P. 89

(٥) راشد البرادي : المرجع السابق ص ٢٧١

برئيس لهم، مثلما كان عليه الحال بالنسبة لمورو الأمالفي - السالف الذكر - وإبنه بنتليون(١).

يضاف إلى ذلك ما ذكره المؤرخ ج. سيسموندي من أنه كان لأمالفي في جميع موانيء مصر والشام مكاتب مراسلة أشبه بنظام القناصل(٢). وكان قوام التجارة الأمالفية في هذه المراكز والمنشئات سواء تلك التي في الغرب الأوربي، أم التي في مدن وموانيء مصر والشام، المنتجات الزراعية لجنوب إيطاليا والبضائع الشرقية الآتية من مصر والشام وشمال إفريقيا وبيزنطة(٣).

ويلاحظ أن تجارة العصور الوسطى المبكرة لم تمدنا بنظام ثابت للتخصص، أي أنه لم يكن هناك تجار متخصصون في تجارة سلعة بعينها، وإنما كان التجار يتعاملون في كل ما تقع أيديهم عليه من سلع مطلوبة بالنسبة للأطراف التي يتعاملون معها، لذلك فقد كان هناك العديد من الأعمال الإضافية التي كان التجار يقومون بها، طالما أن هناك مسوغاً لدى هؤلاء التجار لحافز الربح وهو ما كان ينطبق على تجار أمالفي(٤).

والمنتجات الرئيسية التي استخدمها البنادقة كأداة للتبادل في الأسواق الشرقية معروفة جيداً وكانت تتمثل في العبيد، الخشب، الحديد، المنتجات الزراعية، لكن بالنسبة لأمالفي لم يقدم أحد تحديداً قاطعاً لسلع التبادل الرئيسية، التي استخدمها الأمالفيون في تجارتهم مع المسلمين في مصر والشام(٥)، ورغم ذلك فمن الضروري التعريف بالسلع الأساسية التي كانت عماد هذه التجارة وحجر الزاوية الذي ارتكز عليه رخاء

---

(١) انظر الفصل الثاني من الكتاب.

(2) Histore de les Repubblicues Italiens P.293

(3)cf. Berza, M. : Op. Cit. P. 441

Also : Camera, M. : Op. Cit Tome I

Yver, g : Op. Cit P. 184

(4) Citarella : A. O. : The Commerce P.533

(5) I bid : P.537

وانتعاش الجمهورية الصغيرة(١)، وذلك من خلال الأدلة المتناثرة لدى الجانبين الأمالفي والإسلامي والتي تعتمد بصفة خاصة على وفرة المنتجات وإمكانية الحصول عليها ومدى أهميتها بالنسبة لأحد الأطراف، وما ترتب على ذلك من تولد الحاجة إلى قيام عمليات بيع أو مبادلة، ومن قبيل التصنيف للسلع الأساسية في هذه التجارة وحتى يسهل التعرف على حجمها وأهميتها، فإنه من المفيد أن نتناول السلع التي كان يأتي بها الأمالفيون إلى أسواق مصر والشام على أنها صادرات أمالفية إلى هذه البلاد، وكذلك الأمر بالنسبة لما كان يحصل عليه الأمالفيون من سلع الشرق، فهي بمثابة الواردات التي كان الغرب الأوربي في حاجة إليها وكان لهؤلاء التجار الأسبقية في إحضارها إليه. وفي مقدمة الصادرات الأمالفية إلى مصر والشام كانت الأخشاب اللازمة لصناعة السفن، وهي سلعة إهتمت الدولة الفاطمية بتوفيرها، خصوصاً وأن الأخشاب المحلية كانت لا تكفي وحدها لصناعة السفن للأسطول الفاطمي(٢)، وقد تقدمت صناعة السفن في مصر في هذا العصر بالقدر الذي أدى إلى زيادة الحاجة إلى كميات ضخمة من الأخشاب المستوردة من الغرب، وقد تعجب المقدسي من كثرة المراكب الراسية والسائرة فيها(٣)، وقد كان هناك إمداد وفير بالخشب في غابات جنوب إيطاليا الشاسعة وحتى الضواحي القريبة من أمالفي، لكن حافز التصنيع لهذه الغابات كانت منخفضة بسبب كثرتها، وصعوبة النقل، ولذلك كان الأمالفيون يحصلون على امتياز قطع هذه الأخشاب نظير مقابل ضئيل. وهناك وثيقتان إحداهما ترجع إلى عام (٩٩١م)، والأخرى ترجع إلى عام (١٠٠٦م) منح امتياز من هذا القبيل فيهما إلى أمالفي يدعى بطرس وكان المقابل يدفع

---

(1) I bid : I dem

(٢) أحمد مختار العبادي، والسيد عبدالعزيز سالم تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام بيروت ١٩٧٢ ص ٩٣-٩٤

ايضا : راشد البرادي : المرجع السابق ص ١٢٤

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٨

بالعملة الأمالفية (التاري) TARI (١).

هذا الخشب كان بصفة خاصة سلعة هامة للتبادل أمام الرغبة الملحة في الحصول عليه(٢)، نظراً لافتقار البلاد الإسلامية في الشرق، وفي مقدمتها مصر، إلى الخشب الجيد. وهذه كانت مشكلة قومية منذ البدايات الأولى لتاريخها المسجل، ورغم ذلك فإن وثائق الجنيزا التي احتوت العديد من الشواهد التأريخية بالنسبة للمئات من السلع الأخرى التزمت الصمت إزاء هذه النقطة، إما لأن اليهود لم يتاجروا في هذه السلعة(٣)، أو لأنها كانت ذات قيمة استراتيجية ترتبط بالمسائل الحربية، وكان أمر الحصول عليها من الغرب يقابل بالمعارضة من جانب أباطرة بيزنطة، لذا اقترن وصولها إلى موانيء مصر بالسرية التامة التي تحول دون استطاعة المعاصرين الإفصاح عنها.

فقد حاول الأباطرة البيزنطيون، وبعض قوى العالم الغربي التأثير على الأمالفيين والبنادقة ـ سواء بالوعد أو الوعيد للحيلولة دون تصدير هذه السلعة إلى المسلمين، وخصوصاً الفاطميين الذين كانوا قوة بحرية تشكل خطراً على كل من بيزنطة وغرب أوروبا، وأصدروا في سبيل ذلك مراسيم لتحريم هذه التجارة معهم. وكثيراً ما التزم البنادقة بهذه الأوامر، بل وحاولوا التأثير على الأمالفيين للتحول عن هذه التجارة للمسلمين(٤)، لكن لا يوجد ما يشير إلى أن أمالفي اتخذت خطوة إيجابية في هذا السبيل(٥).

---

(1) cf. Codex Cavensis : Op. cit , Vo1 11 dos no CDXXV11, DLXXXV11.
(2) Citarella : A. O. : The Commerce P.538
(3) cf. Goitien, S. P. Amed Soc P.46
(4) cf. Lopez, R. S. Med Trade, I dem.
الوثيقة التي رد بها دوق البندقية وسبقت الإشارة إليها في الكتاب (الفصل الثاني)
Also :Lopez, R. S. : Silk Industry PP. 83 -93
Hoyd, W. Op. Cit I P.112
(5) Heyd, W. Op. Cit I P.113
Also : Citarella : A. O. : The Commerce P.538

وقد تزود الشام أيضاً من الأخشاب التي كان يجلبها الأمالفيون من الغرب أثناء خضوعه لحكومة مصر الممثلة في الخلافة الفاطمية، لكن بانحسار السيادة الفاطمية وقيام المملكة الصليبية، وتفتت الشام إلى إمارات ودول، اتجه مسلمو سوريا إلى شراء هذا الخشب من جيرانهم الفرنجة الذي قاموا بدور الوساطة في الاتصال ما بين الساحل والداخل رغم أنه كان اتصالاً محدوداً يضيق ويتسع وفقاً لما كان عليه حال العلاقات بين المسلمين والصليبيين(١)، والأرجح أن الأمالفيين خلال هذا العصر ظلوا قائمين بدورهم في إحضار هذه السلعة إلى بلاد الشام وتوريدها إلى المسلمين في هذه المنطقة عن طريق مراكزهم التجارية التي أسلفنا الإشارة إليها.

وكان الحديد السلعة الأخرى الاستراتيجية في هذه التجارة، وتقع المراكز الرئيسية لانتاج الحديد في تسكانيا، وفي إقليم الإلب الشرقي(٢)، وهذه الأماكن أكثر قرباً للبنادقة من الأمالفيين(٣)، ورغم ذلك فإن الخطابات الشهيرة للبابا ليو الثالث ومن تبعه من البابوات تشير إلى أن تجارة أمالفي مع المسلمين كانت تتكون في جملتها من السلع الاستراتيجية مما يدفع إلى التسليم بأن تجار أمالفي تاجروا مع المسلمين أيضاً في هذه السلعة متى كانت هذه التجارة متيسرة(٤).

أما الرقيق فكان من أهم السلع التجارية التي كانت تنشدها البلاد الإسلامية من أوروبا سواء أكانوا من (الصقالبه) أو (السلاف)، فقد كان الرقيق من الخصيان والجواري الحسان سلعة ثمينة اشتد الطلب عليها في كل العالم الإسلامي، وأصبحت

(1) cf. Cahen, Claude : La Syrie Du Nord P. 477

(2) cf. Nef, J. U. : Mining and Metaallurgy in Medieval Civilization, in Cam. Econ. History, Op. Cit I P. 434

(3) cf. Yver, g., Op. Cit P.82

(4) Citarella : A. O. : The Commerce P.538

ويضيف أن المصادر التي بين أيدينا لا تسعفنا بأي دليل يؤكد ذلك.

تجارتها في القرن العاشر أساس (الأرباح الفاحشة)(١). وفي الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر كان العبيد يستوردون من أقاصي البلاد بأسعار عالية(٢).

وقد كان في مدينة الفسطاط سوق كبير للعبيد القادمين من أوروبا(٣). ويعرف القليل عن حجم هذه التجارة وعمليات البيع، ومدى توفر هذه السلعة في ذلك السوق من وثائق الجنيزا لأن اليهود كانوا بعيدين عن ممارسة هذه التجارة(٤)، وحل محلهم البنادقة وأهل أمالفي(٥).

على أية حال، فإن أمالفي غير البندقية لم تكن على اتصال مباشر بسوق الإمداد الكبير في وسط أوربا، كما أن الرقيق كانوا سلعة موسمية للتجارة أكثر منها سلعة منتظمة يعتمد عليها في هذا المجال(٦)، هذا فضلاً عن المعارضة الشديدة لهذا النوع من التجارة من جانب البابوية لاعتبار أن المتاجرة في الناس هدر لآدميتهم وتقوية لأعداء المسيحية(٧).

ورغم ذلك فهناك من الأدلة ما يشير إلى أن الأمالفيين لم يكن لديهم أي مانع من ممارسة هذه التجارة، وأكبر هذه الأدلة وثيقتان : إحداهما (سلام سيكار) Pactum Sicardi، وتقرر صراحة وجود تجارة الرقيق على طول حدود إمارة بنفنتو، ووضع كشرط للسلام أن يتعهد أهالي نابلي وحلفاؤهم الأمالفيين بألا يبيعوا الرعايا اللمبارديين فيما وراء البحار(٨)، والأخرى من الجنيزا وتشير إلى قيام تجار من أمالفي بإحضار جماعة من

(١) لبار، موريس : المرجع السابق ص ٧٠ ، ٧١

(2) goitein, S. D. : Slaves and Slavegirls in the Cairo geniza Records, in Arabica Revue d, Etudes Arabes, Tome IX Janvier 1962 Fas I P. 2

(3) I bid : Op. Cit P. 7,9

(4) I bid : Op. Cit P. 8,12

(٥) نعيم زكي فهمي : دور اليهود في تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٧١ ص ١٤.

(6) Citarella : A. O. : The Commerce P.538

(٧) نعيم زكي فهم : المرجع السابق ، نفس الصفحة ج١ .

(8) Pactum Sicardi, in Padelletti : Op. Cit PP.6 3180324

العبيد إلى الأسكندرية حيث باعوهم هناك(١).

ويذكر مارك بلوك أن قيام هذه التجارة يفسر وجود العملات العربية الذهبية في إيطاليا(٢)، مما يشير إلى أنها كانت مصدراً للحصول على الذهب الذي كانت أمالفي في حاجة إليها لشراء السلعة الثمينة المرغوبة في الغرب من القسطنطينية(٣).

وتعد تجارة جنوب إيطاليا للحبوب ذات أهمية قصوى ليس بالنسبة للتاريخ الاقتصادي فحسب، بل أيضاً بالنسبة للتاريخ السياسي، لارتباط هذه التجارة باضطراب أحوال البلاد على أثر المجاعات التي كانت تحدث بسبب نقص هذه الغلات، وهو أمر كان كثير الحدوث في بلاد المسلمين، خصوصاً في شمال إفريقية(٤) ومصر(٥).

ففي منتصف القرن الحادي عشر أرسل لابافات ـ ب ـ موسى Labavat B - Moses رئيس القضاة اليهودي في المهدية خطاباً إلى مصر ينعي فيه الوضع المخرب الناجم عن غزوات بني هلال وبني سليم، ويبين أهمية صقلية وجنوب إيطاليا كمصدر للغلال، وبالنسبة لهذه البلاد فيقول : «معظم صقلية تم الاستيلاء عليه قبل ذلك، ونحن أكثر ضيقاً وقلقاً، لأن هذا البلد (تونس) يعتمد على هذه الجزيرة في الإمداد بالحبوب، وبسبب هذا الوضع أصبح الفائض من إنتاج الحبوب في جنوب إيطاليا سلاحاً قوياً من الناحية السياسية، كما هو تماماً من الناحية الاقتصادية(٦).

---

(١) عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي ، ص ٨٥

(٢) انظر : اشيبالدلويس : المرجع السابق ص ٣٨٧ – ٣٨٨

(٣) أنظر ما سبق في الفصل الثاني من الكتاب

Genitein,Documents S.D : Op. cit passim

(٤) بلوك ، مارك : مشكلة الذهب في العصر الوسيط، ترجمة توفيق اسكندر المرجع السابق المقدمة ص ج

Citarella : A. O. : The Commerce P.533

أيضاً :

(5) Amari, M. : Storia 11 PP. 358-359

(٦) أنظر عن هذه المجاعات المقريزي : في مواضع متفرقة من مؤلفاته.

أما مصر فإنه على إثر مجاعة حدثت بها على سبيل المثال في عام (١٠٥٤م/٤٤٦هـ) من خلال اتصالات بين بيزنطة والفاطميين وافق الإمبراطور قسطنطين التاسع على شحن أربعمائة ألف أردب من القمح إليه، فلما توفي الإمبراطور في نفس العام اشترطت زوجته ثيودورا على الخليفة الفاطمي المستنصر أن يتحالف معها ضد أعدائها، فلما رفض الخليفة ذلك التحالف منعت الإمبراطورة شحن القمح(١).

وقدم وأهمية تصدير الحبوب من جنوب إيطاليا إلى إفريقيا والشرق تم تأكيده بتوثيق كاف من جانب ج - بيفر g. y ver (٢) في دليلين مثيرين من الأدلة المعاصرة يؤكد أن الأمالفيين مارسوا هذه التجارة على نطاق واسع بشكل كان كافياً لجذب انتباه قوى العالم في ذلك الوقت، فالإمبراطور لويس الثاني اتهم أهل نابلي (وحلفاؤهم الأمالفيون) بأنهم يمدون الكفرة (يقصد المسلمين) بالمؤن(٣)، بينما ذهب ليتوبراند أسقف كريمونا إلى قلب الموضوع حينما قال : «إن تجار أمالفي والبندقية يحتاجون قمحنا كي يعيشوا ولكي يحصلوا عليه، فإنهم يمدوننا بهذه الحلى»(٤).

ومراكز إنتاج الحبوب في هذه المنطقة في ذلك الوقت كانت هضبة أبوليا، وسهل كمبانيا، وصقلية. ومن المثير أن نلاحظ أن هذه المراكز الرئيسية للإنتاج كان للأمالفيين فيها جاليات ثابتة مستقرة من التجار تأسست قبل الغزو النورماني لهذه البلاد بفترة طويلة(٥) . وقد كان أعضاء هذه الجاليات يعملون في المناطق التي يتم منها تصدير القمح إلى البلاد الإسلامية، وأسماهم بوكامشيو Procaceianti in atto di mercanzier Boccaccio

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج٢ ص ٦-٧

(2) Yver, g. : O p. cit Passim

(3) Arma Alimenta et Cetera Subsidia (df Citarilla : Op. Cit P.540

(4) Liutprand, s Report Op. Cit P.

(5) Citarella : A. O. : Op. Cit Jdem

وهم ما تسميهم اليوم (منوبي المشتريات)(١).

كما أن تسهيلات تخزين الحبوب كانت تتجاوز احتياجات المجتمع الأمالفي، وأيضاً العدد الضخم من الطواحين الذي أشارت إليه الوثائق الأمالفية(٢). مما يؤكد أن الأمالفيين كانوا يحصلون على الحبوب من مناطق الإنتاج لأغراض التجارة مع الشرق وليس للاستهلاك كما قد يظن البعض(٣).

والاستنتاج المعقول من هذه الشواهد هو أنه قبل الغزو النورماني لصقلية وجنوب إيطاليا كانت أمالفي المنافس الوحيد للبندقية في تجارة الغلال، فقد كانت في الحقيقة المركز الوحيد في إيطاليا، باستثناء البندقية الذي يملك تنظيماً لاستخدام المنتجات الزراعية لجنوب إيطاليا في التبادل التجاري عبر البحار، خصوصاً مع مسلمي شمال إفريقيا ومصر(٤).

ويمكن القول بأن تجار أمالفي لعبوا دوراً كبيراً في تصدير حبوب جنوب إيطاليا، خصوصاً في أوقات الشدة التي تعرضت لها مصر بسبب المجاعات واضطر الخلفاء على إثرها إلى إخراج ما في خزائنهم من ذهب ومجوهرات، وبذلك تحقق للأمالفيين الحصول على قدر كبير من هذا المعدن يتناسب وموقفها إلى جانب الخلفاء الفاطميين، في وقت كان أباطرة بيزنطة يلجأون إلى استخدام هذه السلعة كوسيلة للضغط أو الحصار الاقتصادي ضد أعدائهم حكام مصر والشام.

وقد أدى اتساع الأسواق وسهولة التبادل بالنسبة للأمالفيين إلى إتجاه هؤلاء التجار إلى تصدير منتجات جنوب إيطاليا الزراعية الأخرى كالملابس الكتانية والخمور

---

(1) Yever, Y. : Op. Cit P. 29 n.2

(2) cf. cod. dipl. Amalf. Vo1. 1 : dos 1-11.

IX, XIVi, LXXIV, Vo1.11 dos. No. D1 XXXV1

وتتضمن عمليات بيع أو استئجار لهذه الطواحين من أجل تجهيز كميات ضخمة من القمح.

(3) Citarella : A. O. : Op. Cit P.542

(4) I bid PP. 542, 553.

والفواكه(١). فالكتان اشتهر بإنتاجه مدينتي نابلي وكافا. وقد برعت نابلي في صناعة النسيج الكتاني، بحيث صارت في هذا المجال ذات شهرة عالمية(٢)، وكشهرتها في عمل هذا النسيج أسماها الإدريسي (نابل الكتان)(٣).

كما طلب المسلمون من المدينة أن تدفع ضريبة عليها في عام (٩٢٨م) عيناً من هذا النسيج الكتاني(٤)، كما انتشرت زراعة الكروم في جنوب إيطاليا، وتشير وثائق أمالفي الخاصة بعقود البيع أو الشراء أو التنازلات إلى انتشار العديد من مزارع الكروم في إقليم المدينة(٥). مما يشير إلى أن هذا المحصول كان مكسباً للغاية وله قيمة تجارية عليا(٦). إلا أن تجارة الخمور المصنعة عنه كثيراً ما عرقل تقدمها في مصر والشام تحريم الإسلام لشرب الخمر(٧).

وحمل تجار أمالفي في سفنهم إلى مصر والشام، بالإضافة إلى السلع السابقة الفواكه الموسمية التي اشتهرت بها بلادهم فضلاً عن القسطل والجوز والبندق(٨).

ولم يكن الأمر قاصراً على هذه السلع بالنسبة لصادرات الأمالفيين إلى مصر والشام بل أن تجار أمالفي - كما سبقت الإشارة - حملوا معهم إلى الشرق كل ما كانت تقع عليه أيديهم من البضائع طالما وجدوا إقبالاً عليها في أسواق المسلمين هناك(٩).

أما السلع التي كانت تستوردها أمالفي من أسواق مصر والشام لتصريفها في

(1) cf. Coniglio, G. opcit P. 106.
(2) cf. Schipa, M. : Op. Cit P. 262

(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص٧٩.

(4) Amari, M. Storia 11 P. 178 N.8
(5) cf. Cod. Dipl. Amalfy Passim.
(6) Citarella : q. O. : The Commerce P.547
(7) Heyd, W. Op: Cit : I P. 96 -97 N.1
Also : Schipa, M. : Op. Cit P.227
(8) Citarella : A. O. : The Commerce P.555
(9) Citarella : A. O. : The Commerce P.555

مراكزها التجارية، سواء في بيزنطة أو الغرب الأوربي فيأتي في مقدمتها التوابل الشرقية بأنواعها المختلفة من الفلفل والقرفة والقرنفل وجوز الطيب والبهار، وأهم هذه الأصناف من الوجهة الاقتصادية في العصر الفاطمي الفلفل(١)، وقد أثارت الأحمال الكبيرة منه دهشة ابن جبير حينما وصل إلى ثغر عيذاب. حتى خيل إليه أن هذه السلعة من الكثرة بحيث لو تزيد قيمتها على قيمة التراب إن كانت له قيمة، كما استرعى نظره كذلك أحمال القرفة لكثرتها(٢).

وقد كانت مراكز إنتاج التوابل سواحل مليار وجزر الهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو(٣)، وكانت مصر والشام بحكم موقعيهما على طرق التجارة الآتية من هذه البلاد ـ كما أشرنا ـ من المراكز التجارية الهامة بالنسبة لتجار الغرب كي يحصلوا على هذه السلع(٤).

هذا فضلاً عن أن بعض التجار المسلمين في هذين البلدين تخصصوا في جلب هذه المنتجات إلى المدن والموانيء الشامية والمصرية لبيعها للتجار القادمين من الغرب الأوربي، ومن بينهم الأمالفيون الذين ارتبطوا مع هذه البلاد بصلات تجارية وثيقة. واشتهر من بين هؤلاء تجار الكارمية الذين تخصصوا في تجارة التوابل وغيرها من سلع الشرق من المحيط الهندي حتى البحر الأحمر ومصر(٥). ونظراً لاهتمام الفاطميين بهذه الفئة لما يعود على خزانة الدولة من وراء تجارتهم المربحة هذه، فقد أعدوا لهم

(١) راشد البراوي ، المرجع السابق ، ص. ٢٥٦

(٢) ابن الجبير، الرحلة ، ص ٦٧

(3) GF. Chan - Ju - Kua : His work on the chinese and Arad trade in the 12th & 13th centurie, Ed & trans, by F. Hirthe and others, Amstrdam 1966, P.222

أيضاً : ابن بطوطة، الرحلة المسماة تحفة الانظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار دائرة معارف الشعب، صفحة ٣٧٣ - ٣٧٥، ٣٧٩، ٤١١ -٤١٢.

كذلك : Day, Clive : A history of Cammerce, Longmans, New York PP. 79-80.

(4) Citarella : A. O. : The Commerce of Amalfi P.553

(٥) صبحي لبيب : التجار الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، والمجلد الرابع، العدد الثاني القاهرة مايو ٩٥٢س١م ص ٦-٧.

أسطولهم بعيذاب لحمايتهم(١)، وقد بلغ شأن مصر في هذه التجارة مبلغاً عظيماً، الأمر الذي أثار انتباه من زارها من الرحالة في ذلك العصر أو في فترة تالية، ويتحدث بعضهم عن أنه كان في الأسكندرية شارع بأكمله مخصص لتجارة الفلفل(٢)، وكان الأمالفيون ينقلون هذه التوابل كغيرهم من التجار - إلى إيطاليا حيث تزايد الطلب عليها هناك(٣)، ومن جانب هؤلاء الذين في إمكاناتهم دفع مقابل تتبيل غذائهم بسبب أسعارها الباهظة(٤). وكانت هذه التجارة مصدر ربح كبير للمشتغلين بها، وموردا ماليا هاماً لبيت المال بسبب الرسوم المفروضة عليها(٥)، بما يدل على أهميتها في مجال التبادل التجاري وحرص الطرفان الأمالفي والفاطمي على تنشيط معاملاتهما في هذه السلعة الهامة من أجل الحصول على مورد هام من أهم الموارد التي غذت التيار الرئيسي للذهب الجديد المتجة إلى البحر المتوسط من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر ألا وهو ذهب بلاد السودان.

وقد كان الفاطميون منذ بدايات القرن العاشر سادة طرق الذهب كلها لفترة من الوقت، مما هيأ لهم إنشاء احتياطي ضخم من هذا المعدن النفيس لإتمام مشروعهم الكبير وهو غزو مصر، وفي أثناء غزوتهم الأخيرة هذه حملوا معهم إلى مصر ألف من الذهب لنفقات إقامتهم الأولى، منذ ذلك الحين غزت السوق المصرية الدنانير المغربية التي أعجب بها في القرن الحادي عشر الرحالة الفارسي ناصر خسرو(٦)، وظل الفاطميون أصحاب السلطان على الطريقين الشرقيين للحصول على ذهب السودان(٧).

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج٣ ص٥٢٤.
(٢) عزيز سوريال عطية، المرجع السابق ص ١٧٢.

(3) Coniglio, G. : P. 104 seq
(4) Day, Clive Op. Cit P.80

(٥) راشد البراوي ص ٢٥٦.
(٦) سفرنامة ص
(٧) لمبار ، موريس : المرجع السابق ص ٦٢ -٦٣.

ومن ناحية أخرى، فإن مصر نفسها وجد بها مناجم للذهب في الصحراء الواقعة إلى الشرق من النيل في الصعيد ما بين أسوان وعيذاب، وكانت أكبر مدينة لمنجمي الذهب هي (العلاقي) التي تقع على مسيرة خمس عشرة مرحلة من أسوان(١)، فكانوا يتجولون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر، ويعلمون على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً، ويذكر الرحالة بتاحيا Petahiah أنهم كانوا يعلمون على المواضع بالرماد أو الطباشير(٢)، ويظهر أن هذه الطريقة في البحث عن الذهب كانت مألوفة في جميع بلاد الشرق الأدنى(٣)، وهو الأمر الذي أكده أيضاً الرحالة الصيني تشانج تي Chau-Jn-Kua بقوله أن الذهب يوجد بأرض مصر(٤).

وقد كانت أمالفي تحصل على الذهب من مصر في مقابل ما يحضره تجارها معهم من منتجات الغرب الهامة(٥)، وهذا الذهب الذي كانوا يحصلون عليه هو الذي سمح للأمالفيين أن يقوموا بشراء السلع الثمينة والنادرة من القسطنطينية ويحملونها معهم إلى الغرب مما جعلهم يحققون من وراء هذه التجارة أرباحاً طائلة(٦).

ويذكر موريس لبار أن عودة تصدير المنتجات الثمينة للصناعة البيزنطية إلى الغرب، صحبها إعادة تصدير جانب من السلع التي تشتريها بيزنطة من الشرق الإسلامي، ثم يؤكد أن أساطيل أمالفي كانت بين هؤلاء الذين كانوا يقومون بعملية التصدير إلى الغرب

---

(١) جغرافية اليعقوبي ص ٣٣٤ وما بعدها ص نقلاً عن آدم تتر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري الجزء الثاني، نقله إلى العربية محمد عبدالهادي أبو ريده، القاهرة ط٣ ١٩٥٧م ص٢١٤.

(٢) تباجيا اف ريجنسبورج (١١٧٥-١١٩٠) رحل من راتسبوني إلى الشرق وزار مصر وفلسطين.

cf. The Jewish Encuclopedia, Vo1. IX P. 656.

(٣) ادم متز : المرجع السابق ص ٣١٤ ح ٤.

(4) His Work on chinese and Arab Trade

(5) cf. citare lla, A.O. : op. cit p.533

(6) cf. Ibid : Op. Cit. Idim.

وإعادة التصدير إليه، وجلبوا عن طريق هذه العمليات المنتجات الثمينة الغالية كالأقمشة الحريرية والقرمزية وغيرها من مواد الترف(١). وقد اشتهر الأمالفيون في الغرب الأوربي بتفوقهم في تجارة المنسوجات والأردية الحريرية(٢). سواء تلك التي كانوا يحصلون عليها من بيزنطة، نظير ما يدفعوه مما في جعبتهم من ذهب مصر، أو بما كانوا يأخذوه من أسواق المدن المصرية التي اشتهرت بصناعة هذا النوع من الأقمشة مثل سياط وتنيس(٣).

واحتكر تجار أمالفي - ومنافسيهم البنادقة تجارة هذه الملابس، بحيث قرر بيتويراند أسقف كريمونا بعد فشله في الخروج ببعض الأردية الحريرية من القسطنطينية أن البضائع الممنوعة كان من السهل الحصول عليها في إيطاليا من الأمالفين والبنادقة(٤). كما أنه في عام (١٠٦٢م) أثناء انتظار زيارة الامبراطور في الغرب ذهب ديزيديريوس Desideruis رئيس أساقفة مونت كاسينو إلى أمالفي ليشتري الأردية الحريرية المناسبة لإهدائها إلى مثل هذا الضيف العظيم(٥).

ولم تكن هذه الأقمشة قاصرة على ما تصنعه بيزنطة، بل أن منها ما صنع في مصر وفي الشام، وأتى إلى أسوان العاصمة الإمبراطورية على يد التجار الروم، أو بواسطة الأمالفيين والبنادقة، ثم أعيد تصديره إلى الغرب مثل الأقمشة الرقيقة الصورية Vela Tyrea نسبة إلى مدينة صور والأثواب الأسكندرانية Panni Alexandrini نسبة إلى الأسكندرية(٦).

---

(١) انظر الذهب الإسلامي منذ القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي المرجع السابق ص٦٩.

(2) Coniglio, G. Op. Cit P. 104

(3) Lopez, R.S. Silk Industry PP. 28-29, 38.

(4) cf. Liutprand, s Report : Op. Cit P. 469.

(5) cf. Chronicioni Cassinensis, Op. Cit. Lip 111 Cap. 20

Also : Citarella : A. O. : The relations PP.301-302.

(٦) لومبار، موريس - المرجع السابق، ص ٧٢

وفضلاً عن ذلك فهناك سلع أخرى حملها تجار أمالفي وغيرهم إلى الغرب وتحددت قيمتها بالنسبة لهم بمدى الإقبال على شراؤها هناك، وهذه مثل الأحجار الكريمة كالماس والزمرد والياقوت واللؤلؤ والعاج والنباتات الطبية والعود والكافور والعطور والبخور وسن الفيل، وغير ذلك من المواد والسلع التي كانت تجلب من أسوان وآسيا وإفريقيا(١)، هذا بالإضافة إلى سلع أخرى احتكرت الحكومة الفاطمية بيعها إلى تجار الغرب مثل النطرون والشب الذي كان يستخدم في صناعة الأصباغ(٢)، وهي جميعها سلع زاد الطلب عليها في الغرب بارتقاء الذوق لدى الغربيين وتطور أساليبهم المعيشية تأثراً بما كان عليه الحال في الشرق. وقد كان توسع التجار الأمالفيين على هذا النحو والتطور في طرق المعاملات والطبيعة المتنوعة للسلع المتبادلة، والقوانين والتقاليد المتشابكة التابعة للبلاد التي كانت البضائع تباع فيها وتشترى منها. كل ذلك بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الاعتبارات جعل من الضروري على كل من الطرفين أن يقيم نظامه التجاري الخاص بحيث يخضع لقانون مكتوب، أو لعرف وتقاليد معروفة(٣).

وقد كانت أسفار الأمالفيين في البحر كثيرة، وكان على سفنهم في ذلك الوقت المبكر قبل وصول البوصلة البحرية إلى أوروبا أن تسير بالقرب من الشاطيء، خشية أن تضل السفينة الطريق، أو تتعرض لأخطار المياه الضحلة والشواطيء الصخرية، كما كان على مواطني المدينة أن يحددوا القواعد التي يسير بمقتضاها العمل على هذه السفن، أو في الموانيء التي ترسو فيها بحيث لا تنجم (تحدث) أية مشاكل قد تكون سبباً في الإضرار بمصالح أمالفي التجارية بصفة عامة.

---

(1) cf. Day, Clive, Op. Cit PP. 80-81

أيضا : راشد البرادي، المرجع السابق ص ٢٦٢

(٢) ابن مماتي : قوانين الدواوين، جمع وتحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م، ص ٣٢٨، ٣٣٤.

Also, Day, Clive Op. Cit. PP. 81-82

(٣) عزيز سوريا عطية، المرجع السابق ص ١٨١.

ومن هذا المنطق وضع الأمالفيون قانوناً للتجارة البحرية، تضمنته لائحتهم الشهيرة المعروفة باسم Tabula de Amalfa. وهذا القانون كان من واقع خبرتهم بأمور التجارة والملاحة، ويرجع في معظمه إلى الفترة ما بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الحادي العاشر الميلاديين(١)، وحدد هذا القانون قواعد الأسفار البحرية وأنظمتها، ونظم أمور الموانيء ورسو السفن كما نظم أسلوب المعاملات التجارية على ظهر السفينة وأيضاً في الموانيء التي ترسو بها. وكذلك نظام الأجور والتعويضات والمقاسمة في الأرباح وغير ذلك(٢)، مما يضمن للتجارة الأمالفية تنظيماً دقيقاً في المعاملات بين التجار بعضهم والبعض، وبين هؤلاء والبلاد التي تربطهم بها مصالح تجارية وفي مقدمتها مصر والشام موضوع هذه الدراسة.

والمعروف أن وصول السفن الأمالفية إلى موانيء مصر والشام كان حدثاً شائعاً، كما كان يتم الترحيب بتجار أمالفي بتشوق من جانب الحكام المحليين الذين يقومون بحمايتهم من المتعصبين الدينيين، ويمنحونهم امتيازات سخية أو حق العبادة فيما يقيمونه من منشآت دينية أو ماشابه ذلك(٣).

ومما يدعو إلى الأسف حقاً عدم توافر الوثائق العربية التي تفصل أنواع الامتيازات التجارية التي كان الخلفاء الفاطميون يمنحونها لهؤلاء التجار بغية تشجيعهم على الاتجار مع هذه البلاد(٤)، كما أنه لا توجد معاهدة تؤكد ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين، رغم وجود شواهد تضمنتها المصادر العربية وكذلك الغربية المعاصرة جميعها تتفق على

(1) cf. Capitula et Ordinationes Curiae Mutimae Noblis civitatis Amalphae in Carci, Lingi : Op. Cit. PP.143-168.
Also : cf. Carci, Ligi : Op. Cit. P.75-78.
(2) cf. La Tabula de Amalfa Op. Cit. PP. 143-149
(3) Citarella : A. O. : The Commerce of Amalfi P 549.

(٤) راشد البراوي : ص ٢٤٦

وجود بعض أشكال من التفاهم(١). ويجزم راشد البراوي بأن هذه الاتفاقات والمنح كان يصدر بها مراسيم حتى تكون مرجعاً لما قد ينشأ في المستقبل من خلاف ولا يمكن أن تكون شفوية، ويرجع ذلك - في نظره - إلى احتمال ضياع هذه الوثائق أو تعرضها للتلف، أو أن بعضها لم يكشف عنه بعد(٢).

لكن المؤرخ الإيطالي أرماندو وشيتاريللا يعتقد في عدم وجود معاهدة رسمية بين أمالفي والمسلمين من الناحية العملية، ويفسر أسباب ذلك عن طريق المقارنة بالظروف التاريخية المعاصرة، فكما هو الحال بالنسبة لأمالفي لا توجد معاهدات تجارية أو قرارات مسجلة تؤكد الامتيازات والاتفاقات التجارية للبنادقة لدى الحكام المسلمين سواء في مصر والشام أو في شمال إفريقية(٣)، بينما هناك توثيق كاف بالطبع يدل على أن مثل هذه المعاهدات دخلت في الحيز الرسمي بالنسبة للجنويين والبيزيين الذين أتوا متأخرين في قدومهم إلى تجارة الشرق الأدنى الإسلامي(٤).

ومن ناحية أخرى، فإن البندقية مثل أمالفي تاجرت بنشاط مع العرب وإذا ما وضعنا في الاعتبار الحذر التقليدي لحكومة هذه المدينة فإن الدخول في معاهدات رسمية مع المسلمين من شأنه أن يعرض امتيازاتهم في الإمبراطورية البيزنطية للخطر، وهو الاتجاه الذي يمكن أن تكون أمالفي قد سلكته هي الأخرى(٥).

ومن ناحية أخرى فإن التباين بين وضع جنوة وبيزا ووضع أمالفي والبندقية في علاقاتهم مع المسلمين من الممكن أن يزيد الأمر وضوحاً، فكل من مدينتي بيزا وجنوة أتت إلى هذه المنطقة كي تتعامل مع المسلمين منذ البداية كأعداء من وراء نقطة التهديد

(1) Citarella : A. O. : The Relations PP.302-309

(٢) حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ٢٤٦-٢٤٧.

(3) The Commerce of Amalfi P.550

(4) cf. Heyd, W. Op. Cit. Tome.1 PP. 124 -125.

(5) cf. Heyd, W. Op. Cit. T.1 PP. 124 -125.

بالسيف ومن ثم بدأ موقفهم بعداء صريح في أول اتصال لهم بالمسلمين، واستمروا متعنتين معهم خلال القرن الحادي عشر، والمعاهدات الرسمية كانت خطوات دبلوماسية ضرورية لتأمين العلاقات الطبيعية بين الناس الذين يعرفون بعضهم البعض فقط، كأعداء لما يربو على المائتي عام.

ومن ناحية أخرى فإن أمالفي، والبندقية إلى حد أقل أتيا وجهاً لوجه مع المسلمين عند ظهورهم الأول في غربي البحر المتوسط، وبالنسبة لأمالفي بصفة خاصة فقد ظلت لا تعتمد على إيجاد موائمة على العيش بسلام مع المسلمين، فأقامت الصلات وتعلمت في الحال كيف توافقهم وتتكيف معهم على أن يكونوا بالنسبة لها بمثابة شركاء.

والتعاون التام الذي بدأ كضرورة تاريخية ملحة قاد إلى البحث بشغف عن الاتصالات التجارية بسبب الباعث على تحقيق الربح والمنفعة، والنتيجة كانت نوعاً من التفاهم الصامت القائم على أساس من العلاقات المثمرة والمربحة عن طريق التبادل بين أناس جمعت بينهم عبر القرون اتصالات اقتصادية وثقافية قوية فاتوا إلى أن يتفاهم ويحترم كل منهم الآخر جيداً(١).

ويمكن حصر الامتيازات التي حظي بها الأمالفيون في مصر والشام في ظل الخلافة الفاطمية في عنصري الحماية والرسوم الجمركية، فمن عناصر استقرار التجارة أن يطمئن التاجر على حياته وأمواله وبضاعته فهو حريص كل الحرص أن يحصل على الأمان الكافي والضمانات اللازمة التي تهيىء لنشاطه أوسع الحدود في البلد الأجنبي الذي كان يتاجر معه أو على الأقل في المناطق التي تحدد له، وهذه الحماية تشمل بالطبع عدم الاعتداء على التجار بلا مسوغ سواء من قبل السلطات أو الشعب نفسه(٢).

وكانت الاتفاقات تنصب بوجه خاص على الرسوم التي يدفعها التجار على الواردات

---

(1) Citarella : A. O. : Op. Cit P.550- 551

(٢) راشد البراوي ، المرجع السابق، ص ٢٤٧.

والصادرات، وذلك بتحديد نسبة مئوية معقولة، ويبدو أنه لم تكن هناك قاعدة مقررة ثابتة، بل كانت الحكومة الفاطمية تتبع نظام التفصيل لاعتبارات مختلفة، وبعبارة أخرى كانت تستخدم الرسوم الجمركية سلاحاً في يدها ووسيلة من وسائل الضغط(١)، ولذا اهتم التجار بالحصول على تخفيض للمبالغ التي كانوا يدفعونها نظير ما ينقلونه من متاجر، خصوصاً وأنها كانت باهظة(٢)، ويدل على ذلك ماوعد به روجر الثاني أهل أمالفي بالسعي لدى الحكومة المصرية في الحصول لهم على تخفيض من هذا القبيل(٣).

وإذا كانت مصر والشام قد حققتا ازدهاراً ورخاءاً في مجال الحياة الاقتصادية نجما عن تشجيع حكامهم للتجارة، وتقديم التسهيلات التي تجعل التجار يقبلون على المتاجرة في هذه البلاد، مامن شأنه أن يعود عليها بالنفع من خلال ما يذهب إلى خزانة الدولة من رسوم على هذه التجارات، وما يأتي به هؤلاء التجار من سلع تساعد على النهوض بالصناعة، فإن التبادل التجاري بين أمالفي ومصر والشام حقق للأمالفيين فضلاً عما حصلوا عليه من امتيازات في هذين البلدين نتائج اقتصادية مفيدة زادت من ثراء مدينتهم وتتمثل في :

(١) بيع تجار أمالفي لسلع الغرب أو إبدالها بالذهب وتوابل الشرق المرتفعة القيمة نجم عنه حصول الأمالفيون على رأس المال الذي أفضى إلى هذا النمو الضخم والانتشار السريع لتجارة امتدت إلى مجالات ذات أسفار بعيدة وملاحظة حادة(٤).

(٢) التبادل المستقيم لفضة الغرب بذهب الشرق أو العكس والذي برع فيه

---

(١) راشد البراوي : المرجع السابق ص ٢٥٠.

(٢) انظر : المقدسي، أحسن التقاسي ص ٢١٣

(3) Heyd, W. : Op. Cit. T. I PP.391-392.

(4) Citurella, A.O : The Commerce of Amalfi P.553

الأمالفيون، زاد بدرجة محسوسة من هامش *الربح الذي* كان مرتفعاً(١).

(٣) الأرباح الناجمة عن هذه التجارة كان الأمالفيون يستثمرونها في شراء الأراضي والعقارات، مما زاد من ثرواتهم وأملاكهم في الشرق والغرب على حد سواء(٢).

---

(1) I bid PP. 554

(٢) وثائق أمالفي مليئة بعمليات لشراء الأراضي والعقارات بقدر كبير الأمر الذي كان ناجما عن تحقيق فائض كبير من الأرباح، انظر :

Cod. Dipl, Amalfi, Coc No. DIxxIv P.292 & Passim.

الخاتمة

وهكذا دفعت الطبيعة مواطنوا أمالفي إلى التجارة والبحر منذ وقت مبكر، ليلعبوا دور الوساطة في هذا المجال بين الشرق والغرب، بعد أن أصبحت مدينتهم مركزاً لحياة تجارية ذات اقتصاد متطور واسع الانتشار في عصر ساد فيه غرب أوروبا نظام دوميني مغلق.

وقد استفادت أمالفي كثيراً من هذه الظروف التي تهيأت لها في أن طورت أعمالها في المجالين البحري والتجاري، خصوصاً وأنها كانت بمنأى عن هجمات البرابرة، والحروب المضنية التي اندلعت في إيطاليا، فظلت سالمة وسط هذه العواصف، مكرّسة كافة جهودها للصناعة والتجارة البحرية، مما أدى بالتالي إلى اتساع نشاط الأمالفيين في حوض البحر المتوسط.

ويمكن تحديد النشاط التجاري الأمالفي في عدة نقاط هامة :

أولاً : إن العمليات التجارية الأمالفية لم تمارس داخل نطاق الجمهورية وإنما كانت تزاول بعيداً عن الوطن الأم في الموانيء والأسواق الأجنبية، وفي مقدمتها البلاد الإسلامية في مصر والشام وشمال إفريقية، وفي هذا الصدد لم يكن تجار أمالفي حديث عهد بالتجارة في هذه البلاد، إذ أن التواريخ تشير إلى وجود جالية أمالفية في أنطاكية منذ القرن التاسع، كما أن مدينة نابلي، كان لها تجارة مع مصر من (القرن الثامن) أي حينما كان الأمالفيون لا يزالون في وضع التبعية لهذه المدينة، وبالتالي خبر هؤلاء التجار بأحوال هذه البلاد قبل مجيء الفاطميين إليها، مما كان له أثره في اتساع نشاطهم بعد قيام الخلافة الفاطمية في مصر والشام، مستفيدين من وضعهم القريب من الخلفاء، منذ أن كانوا على اتصال بهم في شمال إفريقيا، خصوصاً وأن هؤلاء الأخيرين كانوا من المهتمين أيضاً بالتجارة والنشاط البحري، فتلاقت أغراض الطرفين الأمالفي والفاطمي عند نقطة واحدة، نجم عنه ذلك التطور في مجال العلاقات بينهما والذي لمسناه في ثنايا الفصول السابقة.

ثانياً : إن حكومة الجمهورية كانت تتولى حماية التجارة الأمالفية سياسياً وعسكرياً، وفي هذا المجال حرص الأمالفيون منذ بداية اتصالهم بالمسلمين على قيام نوع من العلاقات الطيبة معهم، يضمن لهم الحفاظ على مصالحهم التجارية في الموانيء والمدن الإسلامية المهمة، هذا في نفس الوقت الذي حرصوا فيه أيضاً على الإبقاء على هذا النوع من العلاقات مع جميع الأطراف ما استطاعوا، مما يوفر لهم حرية الحركة في جميع الأماكن لممارسة أعمال التجارة، وعلى نحو كانوا فيه محببين وذوي حظوة لدى حكام هذه البلاد. وفي ظل هذه السياسة أخذ نشاط الأمالفيين البحري و التجاري في الانتعاش في موانيء ومدن كل من مصر والشام، بحيث لم تخلو أي منها من وجود جالية، أو فندق، أو محلات، أو كنيسة، أو مقيم أمالفي يتولى الإشراف على سير العمليات التجارية الأمالفية في هذه البلدان، وكان أهمها الأسكندرية والقاهرة ودمياط في مصر وأنطاكية وطرابلس واللاذقية وعكا ويافا وصور وبيروت وبيت المقدس في الشام.

ثالثاً : إن مواطني أمالفي كانوا يربطون تجارتهم بالتجارة البيزنطية، مع إعطائها طابع جديد له الأصالة الإيطالية الخالصة، ويقترن ذلك بتبعية أمالفي لبيزنطة، مما كان له أثره في تدخل الأباطرة البيزنطيين أحياناً في أمور تختص بالعلاقات التي كانت قائمة بين مدينة كمبانيا، وجيرانهم مسلمي مصر والشام، ويقترن أيضاً بحرص الأمالفيين على جعل هذه التبعية موئلاً للاستفادة من وضع التجارة البيزنطية التي بلغت ذروتها إبان القرنين التاسع والعاشر الميلاديين من ناحية، والتمتع بما كان للبيزنطيين من امتيازات خاصة بالتجارة في معاهداتهم مع المسلمين في مصر والشام من ناحية أخرى، ثم القيام بدور الوساطة التجارية بين المسلمين والبيزنطيين إبان الحروب القائمة بينهما، وقد استغل الأمالفيون هذا الموقف الأخير في مناسبات كثيرة، وحققوا من ورائه مزيداً من الأرباح والامتيازات سواء من الطرفين في آن واحد، أو من طرف أكثر سخاءاً على حساب الطرف الآخر، وفي الواقع كانت العلاقات مع الفاطميين أكثر أهمية بالنسبة

لهؤلاء التجار، مما جعلهم في بعض الأحيان لايضعون اعتبارا لتلك التبعية التي تربطهم بالبيزنطيين، وذلك لغلبة الاهتمامات التجارية عندهم على أية اعتبارات أخرى.

رابعاً : إن التجارة الأمالفية كانت مسيرة وفقاً لقانون إيطالي جديد سنه الأمالفيون، وطبق في جميع موانيء البحر المتوسط، مما ساعد على امتداد وانتشار الحضارة الإيطالية خارج حدودها بفضل هؤلاء التجار.

خامساً : إن القوة البحرية لأمالفي دامت طويلاً، حتى بعد انتهاء الحكم السياسي للأمالفيين، ولقد مارست المدينة سيادة بحرية في العصور الوسطى المبكرة بمظاهر ساطعة تدل على الرفاهية، والحياة الخصبة، وشعور راق بالانتماء إلى الوطن، وهو ما يمكن تبينه من ثنايا علاقاتهم الخارجية، ومما تضمنته بنود قانونهم البحري والتجاري.

أما المراكز التجارية الأمالفية في الشرق، فقد لعبت دوراً رئيساً في العلاقات بين الأمالفيين والمسلمين من خلال المعاملات التجارية والتعرف على سبل الحياة والمعايشة بين الطرفين كمناطق للاستقرار جمعت الأمالفيين بالمسلمين معاً، مما نتج عنه عملية تأثير وتأثر ظهرت معالمها واضحة في نواحي الحياة المختلفة : الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية.

من الناحية الاقتصادية : تعلم تجار أمالفي عن المسلمين الأساليب العملية في التجارة، كما أنه عندما ازدهرت التجارة بين الطرفين أقبل نبلاء أمالفي على التحف والحلي العربية، واتخذ صناعها من المصنوعات العربية نماذج يحاكمونها في الجودة والإتقان، هذا فضلاً عما كان قائماً بين أمالفي ومصر والشام من تبادل الخبرات والكفاءات الحرفية والفنية، ومن قبيل ذلك قيام ماورو الأمالفي - السالف الذكر - بجلب الصناع المتخصصين في هذه الأعمال من الاسكندرية لتنفيذها في بعض كنائس الأمالفيين وأديرتهم.

ومن ناحية أخرى، فإن تجار أمالفي باستيرادهم للأقمشة والمنسوجات الشرقية

المزخرفة والمنقوشة والتي اشتهرت بها : الأسكندرية، وتنيس، ودمياط، وصور وغيرها من مدن مصر والشام، نقلوا إلى الغرب فنون الشرق الزخرفية أو التطبيقية. هذا فضلاً عن أنهم بحصولهم على سلع الترف الشرقية الأخرى، أسهموا في رقي الذوق والتأثر بالتقاليد الشرقية لدى أهل الغرب، والأكثر من ذلك هو أن الأمالفيين بربطهم في الأعمال التجارية بين المراكز التجارية في مصر والشام وتلك التي كانت لهم في الإمبراطورية البيزنطية لعبوا دوراً له ثقله في الاتصال الحضاري بين الطرفين المتحاربين وهو أمر يؤكده وجود مؤثرات بيزنطية في المنشئات التي أقامها الأمالفيون في بلاد الشام، وأخرى إسلامية في مراكز أمالفي الكائنة في بيزنطة والغرب.

وبالنسبة للمعاملات المالية نجد في وثائق أمالفي الدبلوماسية أنها كانت أكثر تأثراً بالذهب، وهنا يكمن دور الذهب الفاطمي في إنعاش الاقتصاد الأمالفي، والسماح للتجار الأمالفيين بتعويض العجز في تجارتهم مع الإمبراطورية البيزنطية. ومن ناحية أخرى فإن الدينار الإسلامي المسمى بالمنقوش Mancus، زاد تداوله في الغرب الأوربي، وحل في عمليات التجارة نقداً وحساباً محل الصولدي الذهبي Soldi الذي توقف الغرب عن ضربه في النصف الثاني من القرن الثامن، وكان المنقوش أكثر تداولاً في إيطاليا، وقد زاد الفاطميون من جانبهم في سك العملة، فأنشأوا إلى جانب الدينار عملة جديدة من الذهب هي ربع الدينار أو الربع، وأصدروا منها كميات ضخمة في صقلية، وقلد الأمالفيون هذه العملة بأن سكوا عملة لهم على غرارها وأسموها بالتارين الأمالفي Tari di Amalfi أو التارين ذات الصليب Tarin Ad Crucem(١). مما يثبت قيام تجارة كبيرة هامة من صادرات الغرب الأوربي إلى العالم الإسلامي، كما يثبت من ناحية أخرى قيام تيار نقدي قوي يقابل تلك الصادرات(٢). ومن الناحية الثقافية هناك مؤثرات ناجمة عن

(1) cf. Codice Diplomatico Amalphitano, Passin

(٢) لومبار، موريس : المرجع السابق ص ٦٥ ، ٧٣ - ٧٤

عملية المبادلات التجارية ويجمع المتخصصون على أنها ترجع إلى الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية وأن الأمالفيين كانوا أصحاب الدور المتقدم في حدوثها. وتتمثل هذه في وجود ألفاظ استخدمت في التجارة وأخذت مكانها في الاستعمال لدى كل من الإيطاليين والمسلمين مثل Arsenale بمعنى الترسانة Dogana, Tara بمعنى الجمرك Magazzino أي المحلات Traffico بمعنى المرور Rischio بمعنى مخاطرة، Fondaco أي الفندق، Traiffa بمعنى تعريفه، وغيرها من الاصطلاحات الأخرى(١).

ومن ناحية ثانية، فهناك عبارات وردت في وثائق الجنيزا ذات أصل إيطالي وكان معمولاً بها في مصر مثل كلمة Bargalu بمعنى قارب(٢) والجملة الموجودة في سجل رسمي بجمرك القاهرة، وترجع إلى حوالي عام (١٠٣٠م) : «Passare La Scola» أي عبور السلم (ومعناها سداد الرسوم الجمركية)(٣)، ويؤكد ذلك أرماندو شيتاريللا بقوله : إن جميع الألفاظ خاصة بـ «Al gergo» بلهجات التاجر البحري، وبالعنصر الذي تيسرت له في ذلك الوقت أن يتاجر مع المسلمين والبيزنطيين(٤)، كما أن تجار أمالفي بتعاملهم مع البلاد الإسلامية، كان من واجبهم استعمال اللغة العربية التي كانت من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر كاللغة الانجليزية اليوم، بوصفها اللغة الفرنجية لتجارة البحر المتوسط، وهو أمر تم تأكيده في إشارات مختلفة.

وفضلاً عن ذلك، هناك مؤثرات أخرى نجمت بشكل طبيعي عن الاتصالات بين الطرفين في مجال الحياة الاجتماعية وهي مؤثرات تناولها المؤرخون بشكل عام في دراساتهم لأثر العرب في نهضة الغرب. وقد كانت العلاقات الأمالفية الإسلامية أحد الأسباب الداعية إلى حدوثها.

---

(1) cf. : Pellegrini, Y.B. : L Elemento Arabo Nella Lingue Neolatine Cou Particolare Riguardo Ltalia, in Occidente EL' Islam Op - Cit PP. 679 - 790

(2) goitein, S - D - : Op - Cit PP. 335 - 336

(3) Ibid P. 47

(4) Scambi Commerciali Fra L' Egitto E Amalfi P. 143

بيان بالمختصرات الواردة في الرسالة
«لبعض المصادر والدوريات»

A. H. R. : The American Historical Review.

A. O. L. : Les Archives de L,Orient Latin.

A. S. P. N. : Archivio Storico Per Le Province Napoletane.

God. Dipl. Amalf : Codice Diplomatico Amalfitano.

E. H. R. : The English Historical Review.

Ec. H. R. : The Economic Historical Review.

M. S. : Mediaeval Studies.

N. R. S. : Nuova Rivista Storica.

P. P. T. S. : Palestine Pilgrims, Text Society.

R. H. G. F. : Recueil des Historiens des Gauls et de la France.

R. H C. :Recueil des Historiens des Croisades.

R. H. C. Occ. : Recueil Hestoriens Occidentaux.

R. H. C. Doc. Arm. : Recueil Documents Armoniens.

R. B. PH. H. : Revue Belge de Philologie et d, Histoere.

R. O. L. : Revue de L, Orient Latin.

R. R. H. : Regesta Regni Hierosolymitani.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الخاصة بتاريخ جمهورية أمالفي :

Archivio della Curia Arcivescovile de Amalfi, Manoscritti. n. 7e N. g.

Archivio di stato di Napoli, Museo, 99 A : Codice Perris

Archivio di stato di Salerno, Sezione Notarile, buste 121-157; 4564.

Biblioteca Provinciale di Salerno, Manaseritti nos 104-105

(Giulio Ruggio, Breve Ragguaglio della cetta d, Amalfi)

Biblioteca Provinciale di Salerno, Manoscritti, n. 106 :

(Statute edita in Ecclesia Amalfie).

Codice Diplomatico Amalfitano, a cura di R. Filangierl,

Vol. I. : Napoli 1917, Vol. II : Trani 1951.

Chronici Amalphitani Fragmenta, ed. L. A. Muratori, Antiquit-ates Italicae

Medii Aeri, Mediolani 1718.

ثانياً : مجموعات الحروب الصليبية :

Les Archives de L, Orient Latin, Publiees Par La Societe de I'Orient Latin ; 2 Vols.

Paris 1881 et 1887 (Textes, Inventaires et Etudes originales).

Bernard the Monk :

A Journey to the Holy Plaees and Babylon, cf. John Wilkinson : Jerusalem Pilgrims. before the crusades, England 1977.

Burchard of Mt Sion :

A Description of the Holy Land, trans. From the Original Latin by Aubrey Stewart, London 1896.
Chau Ju-Kua :
His work on the chinese and Arab Trade in the twelfth and therteenth Centuries entitled Chu-Fan-Chi.
Trans-From the chinese and annotated by Friedrich Hirth and W. W. Rockhill. 1966.
Charters, Fulcher of :
A. History of the expedition to Jervsalem, trans. by Franco Rita Ryan, U. S. A. 1969.
Duchesne, A. :
Historia Francorum Scriptores, 5 Vols. PARIS 1936-1949.
Duchesne, L. :
Libr Pontificalis, 2 Vols. Paris 1884-1892.
Historiae Urbian et Regionum Italiae Rariores ; Istoria dell, Antica Repvbblica d, Amalfi, Opera di Fransesco Pansa, Bologna, (Senza D.).
Gesta Abbatum Fontenellensium, ed . Loewen Feld 1889.
Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum.
الترجمة العربية : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس للدكتور حسن حبشي، القاهرة ١٩٥٨م.
Lodovico Antonio Muratori Rerum Italicorum Seriptores, Mediolani 1723. cf.
Documents of the German History by Snyder, New York 1975.
Mandeville, John :
The Travels of Sir John Mandeville, New York 1964.

Michel Le Syrien :

Chronique de Michel Le Syrien, Patriarche Jacobite d, Antioche, editee en Francais Per J. B. Chabot, 3 Vols. Paris 1905.

Saewulf :

The Pilgrimage of Saewulf to Jervsalem (A. D. 1102-1103) Trans From the Original Latin by Brownshow, ef. P. P. T. S. Vol. V, Londn 1891.

Suchem, Ludolph Von :

Pilgrimage of Ludolph Von Suchom, ef. P. P. T. S. Vol. XII, London 1896.

Thoodorich :

Description of the Holy Palaces (Circa 1172 A. D. Trans). From the Latin by Aubrey Stewart cf. P. P. T. S. Vol. V, London 1892.

Vitry, Jacques de :

The History of Jerusalem, Trans. From the Original Latin by Aubrey Stewart, cf. P. P. T. S. Vol. XI, London 1897.

Wendover, Roger of :

Flowers of History, 2 Vols. Trans. From Latin by J. A. Gelles, London 1849.

William Arochbishop of tyre :

A History of Deeds Done Beyon the Sea, 2 Vols. Trans $ Annatated by Emily Atwater Babcock $ A. C. Krey, New York 1943.

رابعاً : دوائر المعارف والدوريات :

Dictionary, (The Oxford) of the Christian Church. London, 1971.

Dictionnaire de Theologie Catholique, Paris , 1933. (Tome VII Partie I).

Encyclopoedia (The) New Catholic, Washington.

American (The) Historical Review, U. S. A.

Annales de L, Ordre Souverain Militaere de Matte-Rome.

Antiquity, A Quarterly Review of Archeology. England.

Archivio Storico Per Le Province Napoletane. Napoli 1955.

Economic (The) History Review, London $ New York.

English (The) Historical Review. London.

Journal Asiatique, Paris.

Mediaeval Studies, Toronto, Canada.

Nuova Rivista Storica, Supplemente, Rome 1944-45.

Speculum, A Journal of Mediaeval Studies, Cambridge.

خامساً : المصادر العربية :

ابن الأثير ، عزالدين أبو الحسن .

الكامل في التاريخ ، ١٢ جزء ، طبع بيروت ١٩٦٥م.

التاريخ في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.

ابن بعرة ، منصور بن بعرة الذهبي.

كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية،

تحقيق د. عبدالرحمن فهمي ، القاهرة ١٩٦٦م.

ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم.

الحسبة ومسئوليات الحكومات الإسلامية.

تحقيق صلاح عزام، القاهرة ١٩٧٣م.

ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد.

الرحلة (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) بيروت ١٩٦٤م.

ابن خلكان ، شمس الدين أبوالعباس أحمد .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٣ أجزاء.
تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م.
ابن الرفعة ، أبو العباس أحمد :
كتاب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، مخطوط بالمكتبة التيمورية تحت رقم ٣١٢ رياضة. ابن سعيد ، المغربي.
المغرب في حلى المغرب ، تحقيق د. شوقي ضيف القاهرة ١٩٥٣.
ابن الصيرفي ، أبو القاسم علي بن منجب :
ديوان قانون الرسائل ، نشره وعلق عليه على بهجت ط ١ ، مصر ١٩٠٥م.
ابن عبدربه ، الأندلسي :
العقد الفريد، القاهرة ١٩٢٨م.
ابن عذارى ، أبو عبدالله محمد المراكشي :
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.
(كولان وليفي بر وفنسال)
ابن الفقيه ، أبوبكر أحمد بن محمد :
مختصر كتاب البلدان
ليدن - مطبعة بريل ١٣٠٢م.
ابن القلانسي ، أبويعلى حمزة : ذيل بتاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨م.
ابن مماتي ، أبو المكارم أسعد بن الخطير :
قوانين الدواوين، جمعه ونشره وعلق عليه د. عزيز سو ريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م.
ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف :
أخبار مصر، جزءان، تصحيح ونشر هنري مارسيه، القاهرة ١٩١٩م.
أبو الفداء ، الملك المؤيد عماد الدين :
المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء في مجلد واحد، ط ١ القاهرة ١٩٠٧م.
أبو الفرج الملطي ، غريغوريوس :

تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه الأب أنطوان اليسوعي بيروت ١٨٩٠م.
أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغري بردي
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ جزء
القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩-١٩٥٦م.
أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم
كتاب الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٥٢هـ.
الإدريسي ، الشريف :
مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق طبع بروما ١٥٩٢م.
الأنطاكي ، يحيى بن سعيد :
تكملة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزءان، بيروت ١٩٠٩م.
بنيامين التطيلي، الأندلسي :
رحلة بنيامين، ترجمها عن الأصل العبري ، و علق على حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد ، ط ١ بغداد ١٩٤٥م
البكري ، عبدالله بن عبدالعزيز :
جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨م.
البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤١٣هـ) :
الجماهر في معرفة الجواهر، ط١، حيدر أباد ، ١٣٥٥هـ
الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر الكناني :
التبصر بالتجارة، نشره وصححه وعلق عليه حسن عبدالوهاب ط١، دمشق ١٩٣٢م.
الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي :
الإشارة إلى محاسن التجارة، القاهرة (مطبعة المؤيد) ١٣١٨هـ.
سعيد بن بطريق، أفيتشوس البطريرك :
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩م.

السيوطي، جلال الدين :
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
جزءان في مجلد واحد، مطبعة الموساعات باب الخلق ـ القاهرة.
الشيزري، عبدالرحمن بن نصر :
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة الدكتور السيد الباز العريني، بيروت (دار الثقافة) بدون تاريخ.
عبداللطيف البغدادي، موفق الدين أبو محمد :
الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، القاهرة ١٢٨٦هـ.
القلقشندي، أحمد بن علي :
صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزء ـ القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩٢٠م.
بامخرمة ، أبو محمد عبدالله الطيب :
تاريخ ثغر عدن
مخطوط مصور ـ مكتبة بلدية اسكندرية تحت رقم ٣٦٣٢ج (تاريخ).
المسبحي ، محمد بن عبيد الله :
أخبار مصر في سنتين (٤١٤ ـ ٤١٥هـ)
تحقيق وليم، ج. مليلورد القاهرة ١٩٨٠ .
المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين :
التنبيه والإشراف
ليدن ـ مطبعة بريل ١٨٩٣م.
ميخائيل أمارى :
المكتبة العربية الصقلية ليبك ١٨٥٧م
المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله :
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، ليدن ١٩٠٩م.
المقريزي، تقي الدين أبو العباس :
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، جزءان في ست مجلدات

صححه ووضع حواشيه د. محمد مصطفى زيادة، ط٢، القاهرة ١٩٥٦م.
- اتعاض الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا.
تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨م.
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، جزءان، القاهرة ١٢٧٠هـ.
الناخذاه، بزرك بن شهريار :
عجائب الهندة وبحره وجزائر
ط١ ، القاهرة ١٩٠٨م.
ناصر خسرو علوي ، أبو معين الدين :
سفرنامه ، نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب ط١، القاهرة ١٩٤٥م.
ياقوت الحموي ، أبو عبدالله الملقب بشهاب الدين :
معجم البلدان، خمسة أجزاء وفهرس، ليبزج - ١٨٩٠م.

سادساً : المراجع الأجنبية :

Amari , M :

Storia Dei Musulmani di Sicilia, 3 Vols. Caania 1933.

I Diplomi Arabi del Regio Archivio Florentino.

Firenze, 1863.

Assante , F :

La Richezza di Amalfi nel Settecento, in Annali di Storia eocnomica e sociale n, VII Rome 1966.

Berza, m.Amalfi Preducale, in Ephemuis Documana,

Le Preducale, In Ephemeris docoromana, Annuario della Secula romanh di rome, VIII , 1938.

Bloch, M. :

Le Probleme de I, or au mogen-Age, in Annales d, Histoire Economi que et So-

ciale, V 1933.
Bognetti , gian Piero :
La Funzioe di Amalfi nella Formazione di un diritto comun del medioevo. Estratto dal I o Vol. degli atti delle mani-festazioni culturali pro Tabula d, Amal pha, Naopoli 1934.
Bratiann, G. :
Le Monopole de ble, in Byzantion IX , 1934 (PP. 643-662).
Brentano , R. :
Sealed Documents of the Mediaeval ARchbi-shop at Amalfi, In (Mediaeval Studies) XXIII-1961.
Brooks :
The Byzantines and the Arabs in English History Review xv, 1900 (P. P. 728-747) XVI, 1901 (PP 84-92).
Bury, J. B. :
Byzantine Naoval Policy in Western Waters, in Centenario della nascita di Michele Amari ; Palermo 1910.
Lieber, A. E. :
Estern Business Practices and Medieval European Commerce, in E. H. R., XXI (1968).
Lombard, M. :
L, or Musulman du VII au XIe Siecle in Annales d, Histoire Economique et Sociale II, Paris 1947.
Lopez, R. S. :
The Silk Industry of Byzantium, in Speculum, XX, 1945.
Mohammed and Charlemagne, A Revision in Speculum, XVIII, 1943.

Lopez, R. S. :

L, Importanza dell monde Islamico Nella Vita Economice Europa dans I, Occdente e I Islam alto Medioevo, Spoleto 1965.

Mas Latrie, L. :

Traites de Paix et de Commerce et documents divers concernant Les relations des chretiens avec les Arabs de I Afrique Septentrional au Moyen Âge, Paris 1866.

Meyendorf, A. F. :

Trade and communication in Eastern Europe A.D. 800-1200, in Travels and Travelers of the Middle Ages ed.

A. P. Newton, London 1926.

Schmbi Commerciali Fra I, Egitto e Amalfi In un documento inedito della Geniza del Cairo, in Archivio Storico Per Le Provinc Napoletane, L XXX VIII , 1971.

The Relations of Amalfi with thE Arab World before the crusades, in Speculurn, XLII, 1967.

It Declino del commercio Maritimo di Amalfi, In Archivio Storico Per le Province Napoletane, S III, X II , 1974.

A puzzling question concerning the Relation, between the Jewish communities of Christian Europe and those represented in the Geniza Documents, in Journal of the American Oriental Society (91) 1971.

Goriglio, G. :

Amalfi e il suo commercio nel medieoevo, in Nouva rivista storica, XX VIII - XXIX, 1944-1945.

Davis , R. H. :

A History of medieval Europe, London 1970.

Del Treppo , Mario $ Leone, Alfonso :

Amalfi Medioevale, Napoli 1977.

Dennett, Jr. :

Pirenne and Mohammed, in Specuium XX II, 1948.

Depping, G. B. :

Histoire du Commerce entre le Levant et I, Europe, A 2 Vols., Paris 1830.

De Saulcy, F. :

Numismatique des croisades, Paris 1847.

De Villard, St. Monneret :

La Moneta in Italia duranta I, alto medioevo, in Rivista Italiana di Numismetica, XXX II - XXX III, 1919-1920.

Dupont, A. :

Les Relations Commerciales entre les Cites maritimes de longuedoc et les cites d, Espagne et d, Italie. Nimes 1942.

Engreen, F. E. :

Pope John VIII and the Arabs, in Speculum XX, 1945 (P.P. 318-330).

Filangieri, R. :

Curialis di Amalfi, in Scritti di paleografia e diplomatica de archivistica e di erudizione, Roma 1970.

La Charta amalfitana, in Gli Archivi Italiani, VI, 1919.

Freeman, E. A. :

History of Norman Conquest, London 1911.

Food, E. :

The Byzantine Empire, London 1911.

Galasso, G. :

Il Commercio Amalfitano nel Periodo Normanno, in Studi in Onore di Riccardo Filan gieri I, Napoli 1959.

Gay, J. :

L, Italia meridionale e I, Impere bizantion dall arrento di Basilio I alla resa di Bari ai Normammi (867-1071).

Goitein, S. O. :

A mediterranean Society, I : The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed

in the Document of the Cairo Geniza, London 1967.

A med-Society I. Economic Foundations, Barkeley, University of Calivornia Press, 1967.

From the Mediterranean to India, Document, on the Trade to India, South Arabia, and East Africa From IIth to the 12the Genturies, Speclum , Vol . XXLX April 1954 no-2 Part1.

Aletter from Selencia (Cilicia) Speculum, Vol. XXXIX , no. 2 , April 1964.

Studies In Islamic History And Institutions, Isted. Leidin Brill 1968.

Haskins , Gh. H. :

The Norman in European History, New York 1959.

Hefele, K. J. Von :

Ahistory of the Councills of the Church, S Vols. Edinburgh 1876-96.

Helmost, Hans, F. :

Italy throughout the Middle Ages, in the Book of History Vos. V -V111.

Henderson, F. Ernest X : 9TRAMS ; ed).

Select Historical Documents of the Middle Ages, London 1892.

Heyd, W. :

Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age, 2 Vols. Leipzig 1885-1886.

Le Colonie Commerciali degli Italyani nel Medioevo , 2 Vols ., Venezia 1866.

Hodgkin, T. :

Italy and Her Invaders, 4 Vols. Oxford 1896.

Kruger, H. C. :

Italian cities and the Arabs Before 1095, in A History of the Crusades , ed. by K.M. Setton Vol . 1, London 1969.

Le Goff, 1. :

Marchands et Banquiers du Moyen Age, Paris 1956.

Gahen , Glaude :

Quelques Problems Concernant L, Expansion Economique Musulmane au Haute Moyen Age, dans L, occidente el, Islam Nell Alto Medioevo Spoletto 1955.

: Un Texte Pen Connu Relatif au Commerce Oriental d, Amalfi au xe Siecle, in A. S. P. N. , Napoli , 1955 (n. 3).

: La Syrie du Nord AL Epoque Des Croisades Et la Principante Franque D, Antioche, Paris 1940.

Carci, Luigi :

Le Republliche Marinare d, Amalfi, Cosenza 1937.

Camera , M. :

Memorie Storico-diplomatiche dell Antica Citta e ducato d Amalfi Bologna 1972.

Charlesworth, P. :

Trade Routes and Commerce of the Roman Empire , 2nd ed., Cambridge 1926.
Citarella, A. O. :
Patterns in Medienval Trade : The commerce of Amalfi before the crusades, in the Journal of Economic History, XXV111 , 1968.
Michwitz, G. :
Byzance et 1 economie de 1, Occident in Annales d Histoire Economique et Sociale, 1x , 1936.
Monti , G. M. :
11 Commercio Marittimo di Amalfi Fuori d, Italia nell, Alto Medioevo , In Rivista del diritto della navigazions, Roma 1940.
Musca, Giosue :
L, emirato di Bari, Dedalo Libri, Bari 1978.
Nabbia , U. :
Le navi di Amalfi, in Studi Sulla Repubblica marinara di Amalfi.
Ostrogorsky, G. :
History of the Bysantine State, trans by Joan Hussey, Oxford 1956.
Pansa, Francesco :
Isroria dell, Antica Republica d, Amalfi, 2 Vols. Bologna 1724.
Poul E. Kahle,s Schwich Lectures :
The Cairo Geniza, London 1947.
Pirrenne , H. :
Economic & Social History of Medieoval Europe, New York 1937.
Medieval Cities : Their Orgines & the Revival of Trade. New York 1956.
Mohammed and Charlemagne, New York 1939.
Pontieri, E. :

La Crisi di Amalfi Medioevale, in Studi Sulla Repubblica marinara di Amalfi, Salerno 1935.

Reinsand :

Muslim Colonies in France, Northern Italy and Swizerland-English trans. Sherwani - Lahore 1964.

Sabbe, E. :

L. Importation des tissus Orientaux en Europe Occidentale au moyan Age. 1XE -Xe Siecles, in Revue Belge de Philo. et d, Histoire, X1V, 1935 (PP 813-823).

Quelques Types de Marchands des 1X e et Xe. Siecles. in Revue Blege X111, 1934.

Sismondi , J. E. :

Histoire des Republicque Italiennes au Moyen Age, Paris 1818.

Starr, Joshua :

The Jews in the Byzantine Empire, Athens 1939.

Stern , S. N. :

The Original Document From the Fatimed ChanceryCopwiming The Italian Menchants in sudi in Onore di G. Levi della Vida. 11, Roma 1956.

The Book of the Prefect.

ويعرب بـ (كتاب المحتسب) نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني، ونشره في مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة، المجلد ١٩، مايو ١٩٥٧م.

Thompson, J. W. :

Economic $ Social History of the Middle Ages (300-1300) 2 Vol . New York 1955.

yver, G. :

Le Commerce et les merchands dans I.Italie meridionale au X111 et XV1 e Sieclés, Paris 1903.

سابعاً : المراجع العربية :

إبراهيم أحمد العدوي (دكتور)

الأساطيل العربية في البحر المتوسط، القاهرة ١٩٥٧م

السفارات الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٧م.

إبراهيم علي طرخان :

المسلمون في أوربا العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٦م.

إحسان عباس :

العرب في صقلية، القاهرة ١٩٥٩م.

أحمد توفيق المدني :

المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا (بدون)

أحمد مختار العبادي (دكتور)، السيد عبدالعزيز سالم (دكتور) :

تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، جامعة بيروت العربية ١٩٧٢م.

اسماعيل سر هنك :

حقائق الأخبار عن دول البحار، ٣ أجزاء ، القاهرة – بولاق – ١٣١٢هـ.

السيد عبدالعزيز سالم (دكتور) :

طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، اسكندرية ١٩٦٧م.

انستاس ماري الكرملي، (بغداد) الأب :

النقود العربية وعلم النميات، القاهرة – المطبعة العصرية ١٩٣٩م.

أومان، تشارلز : الإمبراطورية البيزنطية، تعريب د. مصطفى بدر القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٥٣م.جمال الشيال (دكتور) :

تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الإسلامي، الاسكندرية ١٩٦٧م.

مجموعة الوثائق الفاطمية، ط٢، الاسكندرية ١٩٦٥.

حسن إبراهيم حسن (دكتور) :

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٤، ط١، القاهرة ١٩٦٧م.

الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة ١٩٣٢م.
حسين عبدالرحمن :
النقود، القاهرة ـ مطبعة الاعتماد ـ د.ت.
حسين مؤنس (دكتور) :
المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٥٩م.
حسنين محمد ربيع (دكتور) :
النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٤م.
جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
علاقات مصر بالمالك التجارية الإيطالية في ضوء وثائق صبح الأعشى، من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية، دراسات أثرية وتاريخية، العدد الرابع، ١٩٧١م.
العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط٢، الاسكندرية ١٩٦٧م.
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :
بحوث في التاريخ الاقتصادي ـ ترجمة توفيق اسكندر، القاهرة دار النشر للجامعات المصرية ـ ١٩٦١م.
راشد البراوي (دكتور) :
حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ـ القاهرة ١٩٤٨م.
رنسيمان شتيفن :
الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، راجعه زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦١م.
زكي محمد حسن (دكتور) :
كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧م.
سعيد عاشور (دكتور) :
أوروبا العصور الوسطى، جزءان، ط٧، القاهرة ١٩٧٨م.
الحركة الصليبية، جزءان ط٣، القاهرة ١٩٧٦م.

عبدالرحمن فهمي (دكتور) :
النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة ١٩٦٤م.
عبدالمنعم ماجد (دكتور) :
العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ببيروت ١٩٦٦م.
ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي، الأسكندرية ١٩٦٨م.
نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ج٢، ط٣ القاهرة ١٩٧٨م.
عزيز سوريال عطية (دكتور) :
العلاقات بين الشرق والغرب.
تجارية - ثقافية - صليبية.
ترجمة الدكتور فيليب صابر سيف، راجعه الأستاذ أحمد زكي، دار الثقافة - القاهرة (بدون).
عطية القوصي (دكتور) :
تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، دار النهضة العربية.
عمر كمال توفيق (دكتور) :
الجاليات الأوربية في الأسكندرية في العصور الوسطى، مطبعة جامعة الأسكندرية ١٩٧٥م.
مقدمات، العدوان الصليبي - الإمبراطور يوحنا تريسكوس وسياسة الشرقية، الأسكندرية ١٩٦٦م.
فالتر هينتش :
المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة عن الألمانية د. كامل العسلي، عمان بالأردن ١٩٧٠م.
هادوه سونيا :
في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، الألف كتاب ٩٨ القاهرة ١٩٥٧م.

لوبون، جوستاف :
حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، ٣ ط، بيروت لبنان (بدون).
لويس أرشيبالد :
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ ـ ١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى مراجعة محمد شفيق غربال القاهرة (دار النهضة المصرية) د. ت.
محمد جمال الدين سرور (دكتور) :
سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٩٦٧م.
محمد محمد مرسي الشيخ (دكتور) :
الإسلام والتاريخ الأوربي الوسيط ، الاسكندرية ١٩٧٥م.
دولة الفرنجة وعلاقاتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي في أسكندرية ١٩٨١م.
محمد ياسين الحموي :
تاريخ الأسطول العربي، صفحة مجيدة من تاريخ العرب، دمشق مطبعة الترقي ـ ١٣٦٤/ ١٩٤٥م.
ممفورد ، لويس :
المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها، جزءان، مراجعة د. إبراهيم نصحي، القاهرة ١٩٦٤م.
نعيم زكي فهمي (دكتور) :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة ١٩٧٣م.

الملاحق

الملحق رقم «١»

قانون أمالفي البحري والتجاري والذي تضمنته اللائحة الأمالفية الشهيرة.

بعد العثور على هذه اللائحة بين مخطوطات الدوق فوسكاريني ومعها نظم هذه المدينة، وأيضاً تاريخ أساقفة أمالفي، فإنه منذ عام ١٨٤٣م لم يوجد مخطوط احتوى هذه اللائحة أو حتى جزء منها، رغم البحث المستمر من جانب دارسي التاريخ من أجل تقرير تاريخ الأجزاء المختلفة، التي نتج عنها ما احتوته اللائحة بشكل أقرب إلى الصواب(١).

وقد أجمع هؤلاء الباحثين وفقاً للإشارات التاريخية الواردة في هذه القوانين البحرية والتجارية التي تضمنتها اللائحة أنها وضعت في عصر استقلال أمالفي، أي قبل سقوط الجمهورية في عام ١١٣١م(٢). ومن وجهة نظرهم أن القوانين تتبع خط السير الانساني، وتدل على درجة تحضر البلد التي صدرت فيها هذه القوانين، لذلك فإنه من الواجب أن يوضع في الاعتبار الظروف التجارية والسياسية لجمهورية أمالفي، والتي في ضوئها نجزم بان الجزء المكتوب باللغة اللاتينية قد كتب في الفترة التي ازدهرت فيها الحركة التجارية والبحرية في جمهورية أمالفي. وكان هذا الازدهار قد وصلت إليه امالفي أثناء حكم الدوق مانسوني الثالث(٩٥٨ – ١٠٠٤م) الذي يقول عنه المؤرخ متى كاميرا إنه "ظل على مدى ست وأربعون عاماً ممسكاً بنبان الأمور"(٣).

وهذه اللائحة تمت صياغة بنودها على الشاطيء الأمالفي وتتعلق بالنظم البحرية سواء

---

(1) cf. Ciecaghione, Federico : Un Capitolo Latnio Della Tavola Di Amalfi, in A-S-P-N, Anno xx III, Fas. I, Napoli 1898. P - 365

(٢) البعض إستناداً إلى الظروف التجارية المزدهرة للأمالفيين في عصر الاستقلال قرر أن وضع الجزء اللاتيني من اللائحة يرجع إلى منتصف القرن العاشر وبالتحديد عام ٩٣٤م. انظر

(3) Carci, Liugi : op. cit p-75

المختصة بالسفن أو التجار انفسهم(١)، وببعض المسائل التجارية. ولقد نشأ هذا القانون البحري التجاري عن خبرة في ممارسة الأعمال البحرية والتجارية وبذلك ينسب إلى أمالفي شرف وضع أول قانون ايطالي للملاحة(٢).

نصوص اللائحة(٣) :

المادة ١ أولاً :

بالنسبة للسفن التي تقوم في خدمة الساحل، وذلك أنه بعد قيام السفينة وعقد أي اتفاقية بالنسبة للأجرة، على البحارة أن يقدموا خدماتهم ومساعدتهم للسفن حسب طلب القائد، باذلين كل ما يلزم من خدمات ومساعدات ضرورية. وإذا ما تغيّب أحدهم بذنب أو تقصير منه أستوجب عقوبة المخالفين على ما يراه القائد ورفاقه، ويجب أن تطبق عليهم العقوبة المعهودة.

المادة ٢ :

وكذلك إذا ما رفض أحد البحارة متابعة الرحلة بعد قيامها، وبعد استلام المبلغ أو الأجرة للقائد الحق في مطالبته بضعفه. وهو ملزم به لا محالة، ونصف هذا الضعف للقائد، والنصف الآخر للقيادة.

المادة ٣ :

وكذلك بالنسبة للخمس تارنتيات إن لم يستطع البحار دفعها فعليه أن يسجن وإذا ما اقترف الخدعة المذكورة فلا أقل من أن يسجن على راي الضباط.

---

(1) Ciccaghione,/ F. : op - cit p. 370

(2) Carci, Liugi : op-cit pp. 78-79

(٣) معظم بنود هذه اللائحة كتب باللاتينية العامية كالبنود : ٨ - ١١ ، ٢٢ - ٣٧ انظر Carci, Liugi : op. cit p-138، لذلك فان الباحث واجه صعوبات كبيرة في سبيل نقل هذه البنود إلى العربية. وتردد على معظم آباء الكنيسة ، ورهبان الأديرة الذين يجيدون اللغة اللاتينية فلم يستطيعوا فك طلاسمها إلى أن جمعته الظروف بالأب منصور مستريح أحد رجال الأديرة البارزين في مصر، فقام بترجمتها.

المادة ٤ :

وكذلك على القائد أن يذكر مدى حمولة السفينة.

المادة ٥ :

وكذلك على كل سفينة أن تشحن وزنة واحدة من كل عشر وزنات من الشحنة.

المادة ٦ :

كذلك حالما قامت الرحلة واستلم المركب ودائع الرحلة، يصبح المركب وما فيه من أموال شيئاً واحداً، ويصبح المركب مسؤولاً عن الودائع، والودائع مرتبطة بالمركب، بصرف النظر عن أي التزامات قديمة أو حديثة، من أي نوع كانت.

المادة ٧ :

كذلك بعد أن يعين أصحاب المركب قائداً لمركبهم وما فيه من حمولة فان هذا القائد المعين له الحق في استلام ودائع من أي إنسان يراه ويحبذه ويأمر المركب كما شاء، وذلك في خدمة مدينة الساحل كما يليق بصرف النظر عن أي تعاقد رسمي أو شخصي، أو أي اتفاقية أو شبه اتفاقية عقدت بين الأطراف.

المادة ٨ :

وكذلك إذا ما رفض صاحب حمولة معدنية المخاطرة بحمولته في رحلة ما والحمولة على المركب، ومع ذلك انطلق صاحب المركب مع قافلته فتعرض المركب للغرق أو فقد بأية طريقة كانت، فعلى المركب المذكور أعلاه أن يباع.

ويقسم الثمن على من تبقى من أعضاء القافلة أقساطاً متساوية للأفراد الذين خاطروا بحمولتهم في المركب. أما صاحب الحمولة الذي رفض المخاطرة بالرحلة فله الحق في استرجاع ما يقابل ماله من صاحب المركب الذي خالف إرادته بصرف النظر عن مسألة المركب أو حمولته المودعة فيه.

المادة ٩ :

كذلك لا يجوز قط لصاحب المركب أن يمنح أي حصة أو أي مكسب لأي من البحارة أو الشركاء إلا المعروفين وهم الناسخ والكاتب(١) ولا يسمح له ذلك قبل استشارة رجاله.

المادة ١٠ :

وعلى أصحاب المركب بعد قيام الرحلة أداء حساب مدقق لجميع البحارة والشركاء، ولجميع أعضاء القافلة عن البضاعة والنقود المحمولة من المدينة كما عليهم ذكر الجهة المتجهين نحوها.

المادة ١١

وكذلك لا يجوز لأي صاحب مركب أن يعرض على أفراد القافلة أي بضاعة من أي حجم أو نوع إلا بعد بيع البضاعة واقتطاع المصاريف وأجور المركب، والمال الحاصل يكون من نصيب أعضاء القافلة.

المادة ١٢

وكذلك طوال مدة الشركة والرحلة كل مكسب جاء عن طريق اللقيا أو العمل أو أي طريقة أخرى، وكان من حظ صاحب المركب أو البحارة، أو الشركاء، يحتفظ به ويعلن ويقسم بين الشركاء، لكن الفرد الذي حظي باللقيا، أو تعب له حصة أكبر وفقا لما يراه القنصل.

المادة ١٣

وكذلك إذا أحد البحارة أو الشركاء بقي في (المدينة) لصالح الشركة يعين له مصروف كما هو مذكور آنفاً أي: البحار له ٥ جرانات كل يوم والكاتب سبعة والقائد عشرة، وإذا مكثوا في أماكن فترة أطول زاد المبلغ على ما يراه القنصل، وبالإضافة إلى ذلك لهم حصتهم المناسبة من مكسب المركب.

---

(١) في وثق أمالفي القديمة حتى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي كان محرر العقود في الغالب رجل دين ويوقع ببساطة بكلمة Soiva

Filongieri, R. : op-cit p-279

المادة ١٤

وكذلك إذا ما قبض القراصنة أو غيرهم على أحد البحارة أو الشركاء رغما عنهم ، وفي أثناء الرحلة لهم حصتهم وإن لم يخدموا الشركة، وكذلك إذا مرض أحدهم فله ما يحتاج من مصاريف وعلاج بالإضافة إلى الحصة المذكورة وإذا ما أصيب في أثناء دفاعه عن المركب فله المؤونة والمصاريف والعلاج اللازم، بالإضافة إلى حصته المذكورة.

المادة ١٥

وكذلك إذا ما قبض على أحد البحارة أو الشركاء في أثناء الرحلة ودعت الضرورة إلى عتقه تكون الفدية على عاتق جميع الشركاء، وكذلك إذا ما أرسل لأداء خدمة للشركة، أو الجماعة وتعرض للصوص فعلى الجماعة تعويضه عما فقد ما عدا ما كان في حوزته من (مال) غير عائد لصالح الجماعة المذكورة بل من ملكه الخاص فهذا مفقود من حسابه هو وحده.

المادة ١٦

وكذلك إذا ما لاذ أحد البحارة أو الشركاء بالفرار فقد حصته، وإن كان سبق وخدم الجماعة، وفي حالة حصوله على أجره أو قروض فللقائد مطالبته بالضعف ويجب تقسيمه كما سبق ذكره.

المادة ١٧

وكذلك كل قرض أو سُلفة على مسؤولية صاحب المركب ومن اختصاصه.

المادة ١٨

وكذلك لا يجوز لصاحب المركب صرف أو قبض أي مبلغ من غير معرفة جميع البحارة أو الشركاء المباشرة، أو ضد إرادتهم لا سيما بالنسبة للمبالغ الكبيرة.

المادة ١٩

وكذلك إذا ما أقلع المركب من المرفأ بعد تجهيزه وإعداده كما يجب وتحطم أو احتاج إلى شيء ما لإصلاحه وتجهيزه وقعت النفقة على قافلة الرحلة.

المادة ٢٠

وكذلك إذا احتاجت السفينة إلى إصلاحات وصيانة قبل إقلاعها من الميناء فتؤخذ النفقة من الحمولة حتى ولو تم الإصلاح في أثناء الرحلة، ذلك لأن أصحاب المركب أو الحمولة ملزمون بإعطاء مركب صالح للسفر.

المادة ٢١

وكذلك إذا تلف شيء ما أو ضاع في أثناء الرحلة من واجب جميع أفراد الجماعة أو الشركة إصلاحه أو شراؤه.

المادة ٢٣

وكذلك في نهاية الرحلة وبعد إسقاط المصاريف، على صاحب المركب أن يؤدي الحساب لجميع البحارة أو الشركاء في المجلس وبحضورهم، وبعد إسقاط المصاريف يجب تقسيم الأرباح إلى حصص كما جرت العادة بذلك، وإذا ما استدعى البحارة أو الشركاء لأداء هذا الحساب ولم يحضروا فلا يجوز لهم فيما بعد أن يعترضوا أما إذا كان صاحب المركب لم يستدعهم عند أداء الحساب المذكور فلهم أن يعترضوا متى شاؤوا.

المادة ٢٤

كذلك يجب أن تكون كل حصة خمس أواقي.

المادة ٢٥

وكذلك كل مركب يصحبه كاتب، عليه أن يأتي إلى البلاط ويؤخذ توقيع الكاتب، كما تقضي المراسيم وعلى المحلف اعتماد خطه في البلاط كخطه الخاص به رسمياً ككاتب رسمي.

المادة ٢٦

وكذلك إذا ما تحطم أحد المراكب أو أُستولي عليه يجب تقسيم ما تبقى منه أجزاء متساوية والبحارة ليسوا ملزمين بالخسائر لكن عليهم إعادة القروض.

المادة ٢٧

وكذلك إذا تعرض أحد المراكب للغرق، ولكن سمحت حالته أن يصلح بسهولة على الرفاق أن يساعدوا في أثناء الإصلاح، و(نفقة) الصيانة تسقط من المال العام والبحارة، كل وفقاً لما كسبه في تلك الرحلة لاغير.

المادة ٢٨

وكذلك إذا ما استولى عليه وأمكن افتداؤه فعلى صاحبه افتداؤه حسب طاقته وأداء الفدية، التي يجب أن تقع على عاتق الجماعة والبحارة ليسوا ملزومين بها، لكن إذا ما افتقرت الجماعة إلى المبلغ فعليهم الانتظار والبحث والمساعدة لإنقاذ المركب وافتدائه.

المادة ٢٩

وكذلك لا يجوز مطلقاً لأي من أصحاب المراكب أن يحملوا على المركب بضاعة للتجارة ثمنها أوقية فما فوق، وإذا حملوها فكل المكسب الناتج عنها يسقط ويضم لمال الجماعة وكذلك الرفاق.

المادة ٣٠

وكذلك جميع السفن المبحرة للغرض المذكور عليها تسجيل أسماء جميع القافلة في سجلات البلاط لا سيما (أسماء) الذين جاؤوا من المدينة.

المادة ٣١

وكذلك إذا أحد أصحاب المراكب أو رفقاؤه استودعوا من أي إنسان بضاعة ما واسترجعت لعدم بيعها فعلى المستودع استلام بضاعته كما عادت حتى وإن أبرم العقد على بيعها أو أي شيء آخر.

المادة ٣٢

وكذلك إذا أحد من أصحاب السفن أو التجار خدع أحد المستودعين بتصرفاته الفردية واستطاع المستودع فيما بعد إثبات الخدعة، ففي هذه الحالة على الأصحاب أو التجار

الخادعين عليهم دفع تسعة للواحد لا محالة ويجوز تنفيذ (هذه العقوبة) ضد الأصحاب أو التجار حتى لو كان العقد يخص أشياء لا يتم فيها التنفيذ.

المادة ٣٣

كذلك إذا ما تلف المركب أو تعرض للغرق ووجب بيعه لتعويض الحمولات والقافلة يقيم الخبراء سعر المركب عند بدء الرحلة أو الصفقة وتتم الإسقاطات والحساب بناء على التقييم المذكور لا بناء على السعر الأصلي.

المادة ٣٤

كذلك أي مركب مكشوف أو مقبى لا يجوز مطلقاً بيعه من غير إذن البلاط المذكور، وإن تعارضت واختلفت الأطراف في وقت التسليم على القناصل تحديد وقت التسليم وعليهم أن يكونوا حاضرين هم أو من ينوب عنهم.

وإن كان المركب مكشوفاً يجوز للكاتب تسليمه، أما إذا اعترض أحد أصحاب المراكب على المادة المذكورة كان البيع باطلاً وعلى صاحب المركب غرامة إن كان المركب مكشوفاً أو مقبياً وتدفع (الغرامة) لخزينة البلاط المذكور.

المادة ٣٥

كذلك أي إنسان كان له حصة أو حمولة في أحد المراكب ولم يعد يريد أن يستمر في الشركة مع أصحابه، ولا أن تكون له حصة في ذلك المركب، تباع (حصته) عند طلبه ذلك أنه لا يجوز إرغامه على المشاركة ضد إرادته إلا إذا سبق لصاحب المركب أن أجبره بمعرفته ووعيه على شيء آخر أو رحلة أخرى.

المادة ٣٦

وكذلك في جميع المراكب المستخدمة في الساحل كل حصة يجب أن تزن ١٦ أوقية.

المادة ٣٧

كذلك إذا ما تحطم شيء ما أو فقد في أثناء الرحلة، وجب شراؤه على حساب جميع الشركاء.

أخيراً :

بند نشر في فترة تالية عام ١٨٩٨م على يد ريتشارد فيلا نجيري : «في حالة الرمي (للخطاف للرسو على الشاطىء) في غياب التجار أو من ينوبون عنهم في الأسطول، فإن ربان السفينة عند دخوله مدينة أو ميناء، عليه أن يذهب مباشرة مع الكاتب ومع البحارة يتقدمهم القنصل، وفي حالة عدم حضور هذا الأخير يذهب معهم أي مندوب آخر (للأمالفيين) من المقيمين في هذا الميناء أو المدينة، وذلك لتحرير محضر بحدوث عملية الرسو على الشاطىء الخاص به، حتى يستطيع تقديمه للتجار .....»(١)

(١) Filangieri, : op-cit p-374

وهذا البند يدل على دقة التجار الأمالفيين في الإشراف على أعمالهم، بوضع اللوائح التي تحول دون تلاعب أو مماطلة المشتغلين لديهم على ظهور السفن في عمليات المسير، مما قد يترتب عليه تعطيل لأعمالهم وبالتالي خسارة بالنسبة لهم.

التعليق : وهذا البند الأخير يؤكد أن أمالفي كان لها قناصل في جميع مدن البحر المتوسط الساحلية منذ وقت مُبكر، وأن تجار أمالفي انتشروا كثيراً في هذه المدن والموانيء في عصر استقلال مدينتهم (١)، كما أن البنود السابقة مفيدة بالنسبة للبحث في سجايا هؤلاء الناس الذين سلكوا طريق التجارة والملاحة، وازداد نشاطهم في هذين المجالين بشكل جعل هذه القوانين محوراً لتنظيم حياتهم الأساسية، التي نشأوا عليها منذ البداية، سواء في الداخل أم الخارج.

وفضلاً عن ذلك فإن قيام الأمالفيين بوضع قواعد المعاملات البحرية والتجارية في ذلك الوقت المبكر لأكبر دليل على أنها أسبق المدن في هذا المجال، وأن الظروف كانت مهيأة بالنسبة لها أن تواكب التقدم الذي كان سائداً لدى القوى البحرية المعاصرة كبيزنطة والمسلمين، مما يسّر لها السبيل في أن تكون على اتصال بهذه البلاد وتقيم علاقات نشطة معها بفضل تقدمها في الميدانين البحري والتجاري، والذي تفصح عنه بنود هذه اللائحة.

جدول بأسماء حكام أمالفي وسنين عهودهم

ماريـنو	٨٥٩ - ٨٧٣م		Marino
بولكارو	٨٧٤ - ٨٨٣		Pulcaro
سيرجيو دي ليو	٨٨٣ - ٨٨٤	(مع الأسقف بطرس	Sergio di Leonate
سيرجيو دي تورشيو	٨٨٤ - ٨٨٩		Sergio di Tutcio
مانسوني	٨٩٠		Mansone
ماريـنو	٨٩٠ - ٨٩٦		Marino
مانسوني	٨٩٧ - ٩٠٠		Mansone
مانسوني	٩٠٠ - ٩١٤	(مع الإبن ماستالو)	Lo Stesso
ماستالو	٩١٤	(نبيل إمبراطوري وجيوكي)	Mastalo
ماستالو	٩٢٢	(مع الابن ليو)	Mastalo
ماستالو	٩٣١ - ٩٣٩	(وحده من جديد)	Mastalo
ماستالو	٩٣٩ - ٩٤٧	(مع الابن يوحنا ـ نبيل وجيوكي)	
ماستالو	٩٤٧ - ٩٥٠	(وحده من جديد)	Mastalo
ماستالو	٩٥٠ - ٩٥٢	(مع ماستالو الثاني)	Mastalo
ماستالو الثاني	٩٥٢ - ٩٥٨	(نبيل امبراطوري ـ دوق مع الابن	Mastalo
سيرجيو	٩٥٨ - ٩٦٦	مانسوني)	Sergio
مانسوني	٩٦٦ - ٩٧٦	نبيل إمبراطوري ٩٧٦ ـ دوق)	Mansone
مانسوني	٩٧٦ - ٩٨٤	مع الابن يوحنا الأول)	Mansone
مانسوني	٩٨١ - ٩٨٤	(أمير سالرنو)	Mansone
أديلفيريو	٩٨٤ - ٩٨٨	(دوق مع الابن سيرجيو الثاني)	Adelferio
مانسوني الأول	؟؟؟ - ١٠٠٢	(من جديد مع الابن يوحنا الأول)	Mansone 1
مانسوني	١٠٠٢ - ١٠٠٤	(مع الابن يوحنا الأول ومع سيرجيو الثالث)	Mansone
يوحنا الأول	١٠٠٤ - ١٠٠٧	(مع الابن سيرجيو الثالث)	Giovanni

(١) هذه القائمة نقلاً عن :

Careim, Lugi , Le Requdliche Marim are d,Amalfi pp. 33 - 35 Carci

سيرجيو الثالث	١٠٠٧ – ١٠١٤		Sergio 111
سيرجيو الثالث	١٠١٤ – ١٠٢٨	(مع الابن يوحنا الثاني)	Sergio 111
حنا الثاني	١٠٢٨ – ١٠٣٠		Giovanni 11
حنا الثاني	١٠٣٠ – ١٠٣٤	(مع الابن سيرجيو الرابع)	Giovanni 11
مانسوني الثاني	١٠٣٤ – ١٠٣٨	(مع الأم ماريا)	Mansone 11
ماريا	١٠٣٩	(مع الابن حنا الثاني ومع سيرجيو الرابع)	Maria
جيو ماريو	١٠٣٩ – ١٠٤٢	(أمير سالرنو)	Guaemario
مانسوني الثاني	١٠٤٣ – ١٠٤٧	(من جديد)	Mansone 11
مانسوني الثاني	١٠٤٧ – ١٠٥٢	(مع جوماريو)	Mansone 11
يوحنا الثاني	١٠٥٢ – ١٠٦٩	(مع الابن سيرجيو الرابع من جديد)	Giovanni 11
سيرجيو الرابع	١٠٦٩ – ١٠٧٣	(مع الابن حنا الثالث)	Sergio 1V
روبرت جيكارد	١٠٧٣ – ١٠٨٥	(مع الابن روجر دي بوليا)	Roberto Guiscardo
روجر دوق بوليا	١٠٨٥ – ١٠٨٨		Ruggero, duca di Puglie
جيولف	١٠٨٨	(أمير سالرنو)	Gisulfo
روجر	١٠٨٩ – ١٠٩٦	(دوق من جديد)	Ruggero
مارينو ساباستو	١٠٩٦ – ١١٠٠	(دوق)	Marino Sabasto
روجر	١١٠٠ – ١١٠٨	(دوق مع الابن روبرت جيكارد)	Ruggero
روجر	١١٠٨ – ١١١١	(مع الابن وليم)	Ruggero
وليام الدوق	١١١١ – ١١٢٧		Guglielmo
روجرت اثاني	١١٢٧		Ruggero 11
روجر مالك صقلية	١١٣٠		Ruggero, Redi Sicilia

الخلفاء الفاطميون في مصر والشام

المعز لدين الله أبو تميم معد بن إسماعيل	(٩٦٨ – ٩٧٥ / ٣٥٨ – ٣٦٥هـ)
العزيز بالله أبو المنصور نزار بن المعز	(٩٧٥ – ٩٩٦ / ٣٦٥ – ٣٦٨هـ)
الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور بن نزار	٩٩٦ – ١٠٢١ / ٣٨٦ – ٤١١هـ)
الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي	١٠٢١ – ١٠٣٦م / ٤١١ – ٤٢٧هـ)
المستنصر بالله أبو تميم معد	(١٠٣٦ – ١٠٩٤ – ٤٢٧ – ٤٨٧هـ)
المستعلي بالله أبو القاسم أحمد	١٠٩٤ – ١١٠١م / ٤٨٧ – ٤٩٥هـ)
الآمر بأحكام الله أبو علي منصور	(١١٠١ – ١١٣٠م / ٤٩٥ – ٥٢٤هـ)

نقلاً عن تاريخ ابن الراهب ص ٧٩ – ٨٥

وكتاب التوفيقة الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية ص ١٧٩ – ٢٦٢.

السلاجقة في الشام

أ) سلاطين السلاجقة العظام :-

ألب أرسلان	١٠٦٣ – ١٠٧٢
ملكشاه بن ألب أرسلان	١٠٧٢ – ١٠٩٢
محمود بن ملكشاه	١٠٩٢ – ١٠٩٤

ب) سلاجقة الشام :-

تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١٠٩٥ – ١١١٣
دقاق بن تتش (بدمشق)	١٠٩٥ ـ ١١٠٣
ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٣ – ١١١٤
سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٤ – ١١١٧

نقلاً عن : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ـ ج٢ ـ ص١٢٩٧ ـ ١٢٩٨

العلاقات بين
جمهورية أمالفي والمسلمين
في مصر والشام

